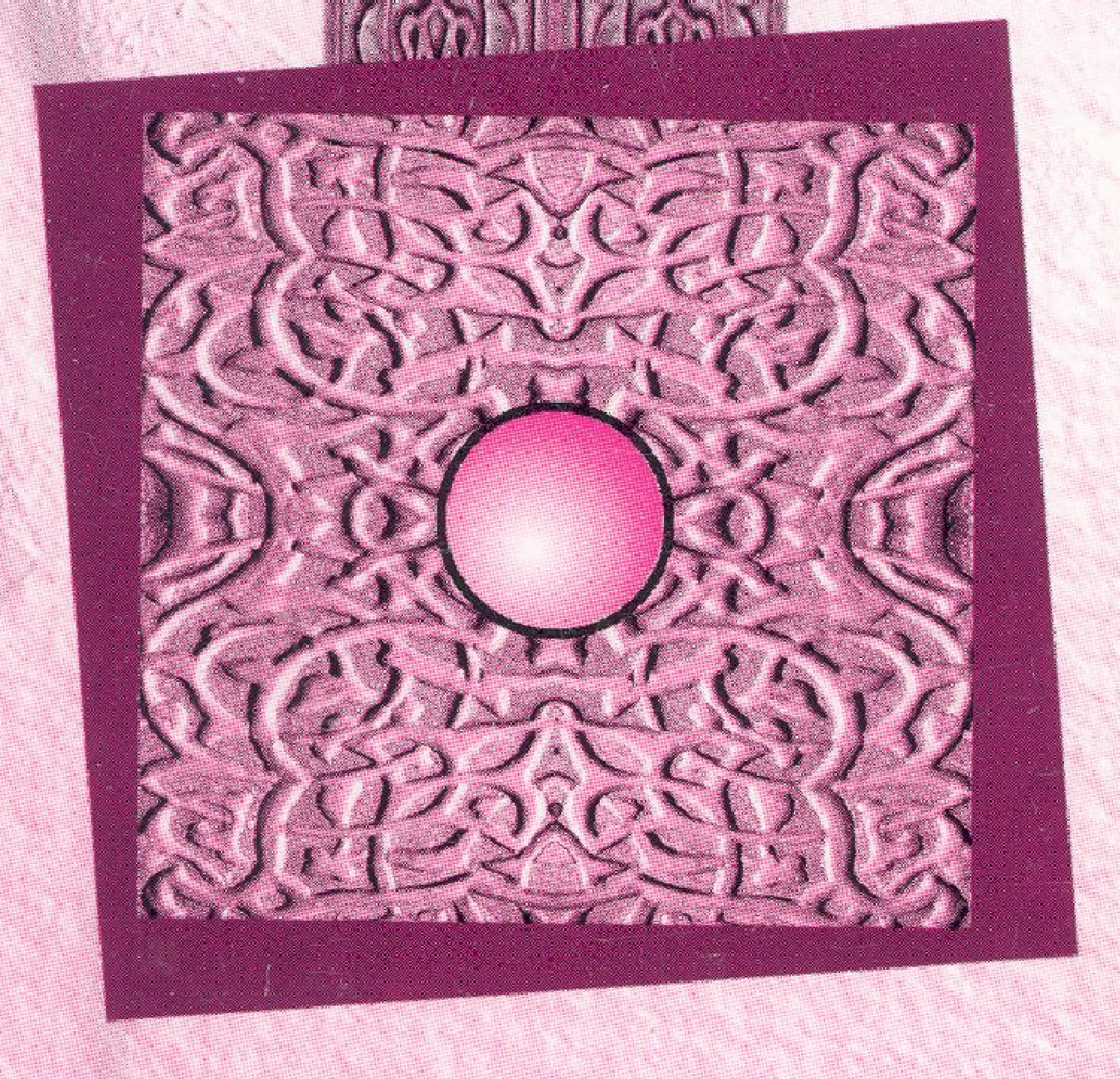


المأمون

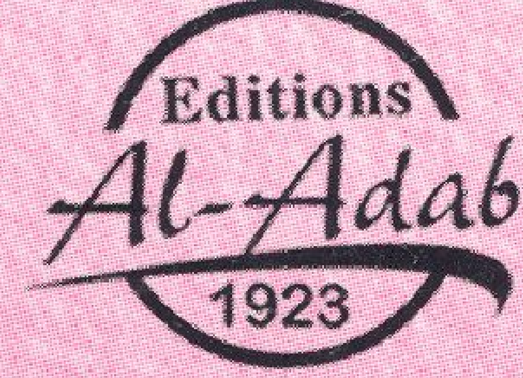
درة البيت العباسي



تأليف الأستاذ الدكتور

محمود عبد الفتاح شرف الدين

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية - جامعة الأزهر



42 Opera Square - Cairo Tel: (202) 23900868

مكتبة الآداب

٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة - ت : ٢٣٩٠٠٨٦٨

من مصابيح نهضات الإسلام

المأمون

درة البيت العباسي

تأليف

الأستاذ الدكتور

محمود عبد الفتاح شرف الدين

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية ـ جامعة الأزهر

Editions Al-Adab

42 Opera Square - Cairo (11111) Egypt
Tel & fax: (202) 23900868
E-mail:adabook@hotmail.com

مكتبة الآداب
أسسها علي حسن عام ١٩٢٣م
٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة (١١١١١)
تليفون وفاكس: ٢٣٩٠٠٨٦٨ (٢٠٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

الناشر

مكتبة الآداب

الطبعة الأولى : ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

شرف الدين ، محمود عبد الفتاح .

المأمون : درة البيت العباسي

محمود عبد الفتاح شرف الدين – القاهرة : مكتبة الآداب ٢٠٠٨م

١٦٨ص ، ٢٤سم

تدمك ٥ ٩٤٧ ٢٤١ ٩٧٧

١- المأمون العباسي ، عبد الله بن هارون الرشيد بن محمد ، ٧٨٦-٨٣٣

١- الخلفاء العباسيون

أ- العنوان ٩٥٣,٠٦

عنوان الكتاب : من مصابيح نهضات الإسلام

المأمون درة البيت العباسي

تأليف : محمود عبد الفتاح شرف الدين

رقم الإيداع : ٤٤٤٠ لسنة ٢٠٠٨م

الترقيم الدولي : I.S.B.N 977 - 241 - 947 - 5

مكتبة الآداب
أسسها علي حسن عام ١٩٢٣م
٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة (١١١١١)
تليفون وفاكس ٢٣٩٠٠٨٦٨ (٢٠٢)



إهداء

إلى القلم الذي أقسم به رب العالمين : ﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ وهو سيف مسلط على رقاب الجبابرة والخاضعين إلى الخذلان والإذلال ، هؤلاء الذين لا يعرفون قيمة الحياة فيرمون أنفسهم تحت وطأة الكسل فتجاهلهم أقرب النتائج لراحة المجموع .

وهو النائب الأول للسان الحق ينطق رعودًا في سماءِ العدالة ، فيصل بردًا وسلامًا إلى أكواخ المقهورين ومضاجع المحرومين فيدركهم الإنصاف القاطع من واسع الرحمات ، وهو يُكَوِّن مع السبابة والإبهام منظومة متآلفة للتعاون والمزواجة قلما تخبو أو تتبدل . وهو مع الفرح سيال ، وعند الحزن كثف البال .

وفي زمرة النشاط يسابق الرياح ، ويتوارى خجلاً لمصاحبة من يبيع ضميره بدراهم معدودة في سوق النخاسة ، وهو بصيرة العاقل في محراب تأملاته . ونصير الباشكاتب على منضدته . فإن رأيته موضوعًا على قمة الأذن . فاعلم أن اليوم أجازة حكومية .

وهو صديق نظارة الأستاذ ودفتر طالب العالم الجاهد . تموينه المحابر وقيمته سيرة على الخط المستقيم . خطره في خطئه . وحسنه مع شقائق النعمان في مملكة الجرجاني وساحات الجاحظ وسحبان .

محمود

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله باسط السماء بغير عمد ترونها ، وكاشف الضر لمن استجار بعفوه وحماه وسابل ستره لكل المطيعين القانتين بذكره آناء الليل وأطراف النهار . فسبحانه ولا إله إلا هو وله وحده الأمر كله وإليه المصير . وأصلي وأسلم على المبعوث رحمةً وهديًا لكل الأنام ، المبسوط حبه في قلوب من يطلب شفاعته يوم الزحام ، صلاةً دائمةً إلى أن نلقاه على المحجة البيضاء بين يدي رب العالمين .

وبعد ..

فتلك إطلالة تاريخة مدبجة لكل حروف العرفان لرجل قاد أمة الإسلام إلى محيطها الرحيب في مدارج الرقي والحضارة والمدنية . درة البيت العباسي المأمون بن هارون الرشيد . ذلك الذي حمل على عاتقه تاريخًا مبهجًا ومشرفًا من اتجاهاته السياسية والعلمية . حيث سبق عصره بكل قرارٍ متخذ أو مشروعٍ عقلاني تفردي آثر بهاجس الجرأة أن يحوله إلى واقعٍ مؤيد بمعالم القوة والقدرة والقدوة . وهذا أمر لا يختلف على إثباته له أحد من أنصاره أو معارضيه . فشكرته الرعية بلسان الإحسان ونكران الذات . أحب كل الناس من منطلق المعاملات الحسنة والإسهامات الناجحة والإنجازات الراقية . بادلُوه حبًا بحب : ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ﴾ فبإجماعِ المؤرخين الإثبات أنه أفضل بني العباس حزمًا وعزمًا وحلمًا وعلمًا ورأيًا ودهاءً وهيبةً وشجاعةً وسؤددًا وسماحةً . كما اشتهر أمره بنشر العلوم والمعارف والصناعة ومتاجر بلاده . فكان يقرب إليه العلماء والأدباء للمباحثات والمناظرات والمجاذبات الكلامية ـ كما سترى ذلك بنفسك في توِّ لحظتها من قراءتك ـ كما كلف المأمون بوعيه

السديد أمهر التراجمة الأفذاذ من أبناء العروبة بإخراج كنوز العلم والأدب والفنون المتقدمة من اللغات الأخرى ، كاليونانية والفارسية والسريانة والهندية وغيرها إلى اللغة العربية ؛ ليستضيء لها المسلمون بنورها الوضّاح ويهتدوا بهديها عند الإلمام بأطرف حقائقها والغوص بين دقائقها فهمًا وإدراكًا وعملاً بمفهومها ، والكشف عن مجاهلها بعد هضم المفردات الدقيقة بمدلولاتها وحذق فنها بمداخلات أسرارها . فأصبحت بغداد في عصر المأمون مركز إشعاع حضاري مؤثر على جميع الأبعاد وطول الآماد ، وظلت على حالها صفحة ناصعة للمدنية بكافة وجوهها ، قبة كل قاصد وقبلة كل طالب ؛ للاغتراف من مناهلها العذبة واقتطاف أزاهيرها من بساتينها الناضرة ، ولن يطول بك العجب إن عرفت ويستحسن لفخرك أن تعرف ـ إذ لا بأس من توضيح الصورة العاكسة لوضع واقع بلاد الإسلام ومناطق العرفان ـ بغداد ، وأنطاكية ، وصور ، وجندياسبور ، والإسكندرية ، وطوس في العهد المأموني تُدرّس في أروقتها وبيمار ستاناتها المجهزة علوم الطب ، والفلك ، والرياضيات فضلا عن التاريخ والفلسفة ، حينما أسرعت طوائف العقل المتحرك من أبناء غير العرب يفدون إلى تلك المراقد المتأججة بالحقائق العلمية المتطورة ، وعندما إطمأنوا إليها وتحققوا من صدق مفاهيمها ترجموها إلى لغاتهم بعد أن كان الأمر من أقل من ثلاثين سنة عكس ذلك على الإطلاق .

أخي القارئ : قف معي على الجانب الزاخر المليئ بكنوز المعاني والمعارف ، والتي نلتقطتها سويًا من أعماق المتون والأصول ، حتى نضعها في الإطار الصحيح من صحائف الأمجاد التي تذكر الحقيقة مجردة من الميل والهوى ، وربما احتجنا في سردنا للأحداث المستقبلية أن نأتي بمكتوبات حكومية أو شبه حكومية أو شبه حكوميه وردت ضمن أقوال معاصري المأمون ، فتلاحظ أن بعضها مكلّل بالتباريك والمحامد ، وقلّما شق الصفوف من تجري على لسانه كلمة حق

تسجل لصاحبها الشجاعة في ميدان الكلمة دون حجر أو حجاب ، والأمر متروك لوعيك وتقييمك الدقيق لمن يبدي رأيًا ، وعقلك دليلك في الوصول إلى ما تريد من غربلة تلك الروايات في إطار من النقد التاريخي المأمول .

ولله در هذا الخليفة الذي جعل تاجه عروس التيجان ومملكته درة يتيمه في جبين الدنيا . بفضل ما أوتيه من الذكاء والفطنة ، إذ عرف أن العلم الصحيح قد يكون سلاحًا أمضى من جميع الأسلحة المتعارفة . فأخذ ينشر لواء العلم بما أوتيه من قوة وسلطان ، فدانت لهيبته الممالك وخضعت لعزه الأمم ، فمن حسنات زمان المأمون أنه أمر العلامة الفراء أن يؤلف ما يجمع به أصول النحو وما سمع من العرب ، وأمر أن تفرد له حجرة في أجنحة القصر وصيَّر له الوراقين وألزمه الأمناء والمنفقين ليمدوه بما يحتاجه من كتب ، ووكل به الجواري وخدمًا للقيام بما يحتاج إليه ، فجعل الوراقون يكتبون عنه حتى صنف كتاب المعاني ، وأمر به المأمون فكُتب ووُضع في الخزائن ، ثم خرج الفراء إلى الناس ليملي عليهم تلك المسودة من فرائد هذا العصر الجليل .

ومن حسنات تلك العقلية المتفردة بكل صلاح وإصلاح ؛ أنه نزع بتقديره الموفق إلى نزعة جديدة في ملكه أراد بها أن يجمع المسلمين على أمرٍ جامع على كل الأحوال ؛ ليقضي على تلك الجفوة التي كانت قائمة بينهم بسبب اختلافهم في الدين إلى فرق متعادية ؛ لأن كل طائفة منها تجهل ما عند الأخرى والناس أعداء ما جهلوا ؛ وقد مضى المأمون في نزعته تلك غير متأثر فيها برأيٍ غير رأيه فوجد أن خير وسيلة لاتفاقهم أن يعقد لهم مجالس مناظرة ليدور فيها البحث فيما بينهم من خلاف ، ويعرف كل منهم ما عند الآخر من دعوى ودليل ويزول بينهم الخلاف بالإقناع والاقتناع ، وقد كان للمأمون رأي جليل في تفضيل « الإمام علي » مع احترامه لبقية الصحابة الأعلام وعندما نمى إلى علمه ما يدور في الخفاء قال : « إن طائفة من الناس عابوا علينا ما نقوله في تفضيل علي بن

أبي طالب رضي الله عنه . وظنوا أنه لا يجوز تفضيل علي إلا بانتقاص غيره من السلف . والله ما أستحل أن أنتقص الحجاج فكيف السلف الطيب؟ وأن الرجل ليأتيني بالقطعة من العود أو الخشبة أو بالشيء الذي لعل قيمته لا تكون إلا درهمًا أو نحوه فيقول : إن هذا كان للنبي ﷺ أو قد وضع يده عليه أو شرب فيه . فأشتريه بألف دينار وأقل وأكثر ثم أضعه على عيني ووجهي وأتبرك بالنظر إليه وبمسه ، فكيف لا أرعي حق أصحابه وحرمة من قد صحبه وبذل ماله ودمه دونه وصبر معه أيام الشدة وأوقات العسرة . يا سبحان الله! » .

إن درة البيت العباسي هو:

[أول] : خليفة مسلم يكلف علماءه بقياس محيط الأرض على الإطلاق ، وأول من فكر برصد الأملاك ليكون ريع غلتها أوقافًا للصرف على المراكز العلمية والدينية .

وهو [ثاني] : خلفاء بني العباس وفاة خارج بغداد بعد أبيه الرشيد الذي قبض بطوس ، وتوفي المأمون بالبندبذون من قرى الثغر ثم دفن بطرسوس .

وهو [ثالث] : الخلفاء الذين يشجعون التراجمة من أبناء العروبة في نقل تراث علوم القدماء بعد أبي جعفر والرشيد .

وهو [رابع] : الخلفاء العلماء « الإمام علي » في الفتيا ، و« عبد الملك ابن مروان » في الحديث ، و« عمر بن عبد العزيز » في فقه التشريع ، وهو في علوم اليونان .

والمأمون [خامس] : زعماء الإسلام الأماجد دنيا ودين : الصديق ، والفاروق وعمر الثاني بن عبد العزيز ، والمنصور ، وهو خامسهم ولا فخر .

وهو [سادس] : الخلفاء الذين وطئت أقدامهم ثرى كنانة الله في الأرض مصر « مروان بن الحكم » ، و« عمر بن عبد العزير » ، و« مروان بن محمد » ، و« السفاح » ، و« أبي جعفر المنصور » ، و« هو » فحدثت لهم البركات بإذن الله تعالى : ﴿ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ .

وهو [سابع] : خلفاء بني العباس « السفاح ، والمنصور ، والمهدي ، والهادي ، والرشيد ، والأمين ، والمأمون » فمنهم من مرّت أيامه مرَّ السحاب « السفاح ، والهادي ، والأمين » ومنهم مقتصد [المهدي] ومنهم سابق بالخيرات والإنجازات [جده المنصور ، وأبوه الرشيد وهو المنوط به تلك السيرة المسجلة هنا] .. إن تلك السباعيات التي أخذت منحى ترتيبيًا في حركة الحياة الإسلامية ، وكأنه نقشها على رقعة الوجود ، فبدت متوافقة وسجلت دون توثيق ، وبالتأمل تجد أن القدر أوجدها بيننا وكأنه على موعد معها .

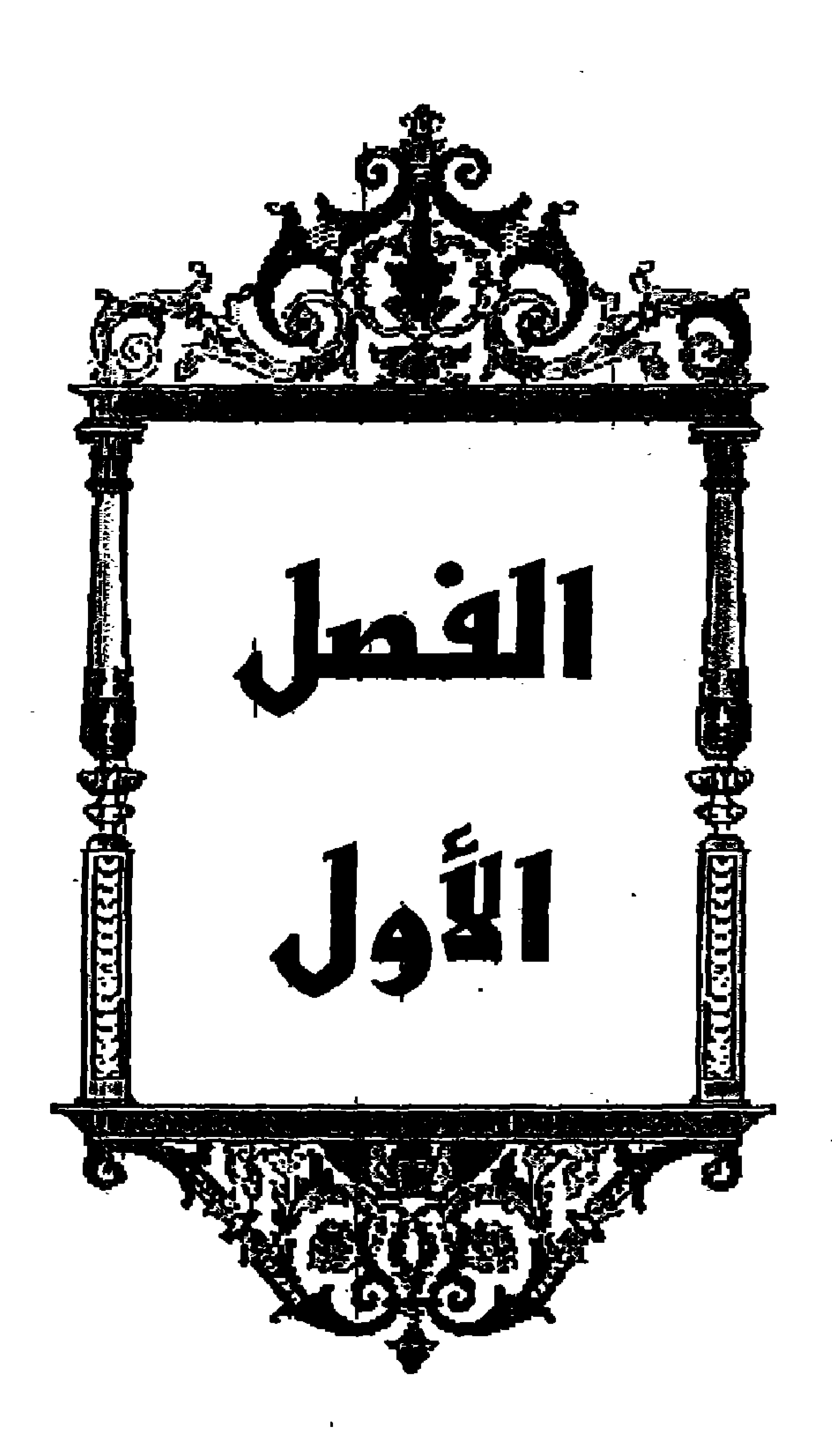
إني بقصد إتمام هذا العمل العلمي لا أدّعي أنني وفّيتُ الموضوع كل أطرافه التي خططت لها من منهج وتناول ومناقشة قضايا ، بل حاولت قدر الطاقة أن يظهر بملامح الحسن والاكتمال ؛ لأن العديد من الحقائق والأقوال والآراء وضعت أمامي على مائدة البحث ، بعضها مبهج يبعث في النفس الارتياح ، كما لمحت من طرف خفي جانب من السلبيات فأدرجتها في حيثيات اهتمامي ، فنمقت ما تحتاج منها إلى تشذيب وتهذيب حتى تخرج ملامسة للعقل وبالشكل الذي يرضاه أرباب العلم من باب المقبول . راجيًا أن يسامحني « قارئ الأحكام » أثناء مداولاته الحكمية لبعض الجوانب التي بدت مهتزة بفعل تزاحم الأحداث ، فجاءت ببعض سلبياتها فوالله إني لمحتاج إلى تشجيع أرباب الاستنارة الذين يتجهزون دائمًا بمسوغات التسامح الرفيق المبارك لخطوات الاجتهاد . والله أسأل المثوبة على جهد المقل ، والأمل معقودٌ في إبرام النصيحة لتكون مع إخواننا أصدقاء القلم في ركب العلم حضور ، وحسبنا جميعًا أن نكون لأمانته وحقه علينا من المحافظين ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ والسبيل إلى الحق والسداد ولمن طلب المعالي كله مكاسب ومحاسن .

دكتور : محمود شرف الدين

حدائق المعادي

في يوم الجمعة٢٦ من جمادي الآخرة ١٤٢٢هـ

الموافق الرابع عشر من سبتمبر ٢٠٠١م .


الفصل
الأول

ظل المأمون مأمونا

إن مترجمنا المأمون من النابهين الذين يستحقون بحق أن يكون لهم دور بارع من النوع البارز تحت المظلة الكونية التي يسجلها بشوق كل المعنيين بوقائع الدهور ، حبًا للحقيقة وخدمة للإنسان المعظم لخالقه ، المتواضع للأتقياء العاملين الذين لا يظلمون ، وهم بالتالي لا يحبون أن يظلمهم أحد ؛ لأن الحق معهم ومكافأة ربهم لهم أنه لا يضيع أجر المحسنين .

نشأته وتربيته العالية :

مع السكينة وهدوء النفس تبدأ المسيرة على شاطئ حياة ذلك المأمون المتيمن بقدومه إلى الوجود . إذ هو عبد الله أبو العباس بن هارون الرشيد ، ولد سنة سبعين ومائة هجري ليلة الجمعة منتصف ربيع الأول بقرية تسمى الياسرية على ضفة نهر عيسى بينها وبين بغداد مقدار ميلين [1] وأمه أم ولد تسمى مراجل ماتت في نفاسها به وهي تمت لأسرة فارسيةٍ عريقةٍ ، ولا شك أن الرشيد استبشر كثيرًا بمولد ابنه هذا في تلك الظروف السعيدة التي تزامنت مع إجلاسه لسده الخلافة الإسلامية « سادس خلفاء بني العباس » ، وقد انقشعت الغمة التي تراكمت على صدره من ملاحقات أخيه الهادي ، وتمت النعمة وأتى الملك للرشيد مع تضاعيف الخبر السعيد بمولد عبد الله أول غلام له . وكما يقولون : إن للطفل الأول في نفس أبيه قدر من الإعزاز والمحبة يزيد عما لأخوته التالين له في الميل فأسرع بتسميته عبد الله ؛ تعبيرًا عما في نفسه من اعترافٍ بفضل الله عليه ، إذ نجاه مما كان فيه من هم وضيق ، ودون أن يدبر الأمر بهذا الإحكام واليسر الذي تم الحكم فيه[2] إذاً هو شبل ينبثق عراه من عرين الرشيد . فماذا يبقى

---

(١) ابن الأثير الكامل ج١٠ ، ص ١٥٤ ، ياقوت معجم البلدان ج٥ ، ص ٤٢٥ .

(٢) د.محمد مصطفى هداره .المأمون الخليفة العالم ص٦ « كان الهادي أخوه يستخدم معه كل ألوان=

لشجاعة الرأي وصائب الفكر في مدلول حياته وبارع النوازع الخيرة المبثوثة في سجاياه من مستقر يقر في خلاياه ؟ المأمون ذلك الشبل اليافع الذي أدركه واقع أيامه بنضج سابغ فتتلاحق المواقف من بين ثنايا الاستنارة والعقل الراجح ، فنشأ في عزّ الخلافة العباسية أيام مجدها التالد واتساع أفقها الرحيب بجلالها وعظمتها وقد تهيأ له ـ بارك الله في خطواته ـ من أسباب البذخ والترف والنعيم ما لم يتهيأ لأحد غير أخيه محمد الأمين ـ غفر الله له ـ حتى عُد المأمون عندنا وعند غيرنا « درة البيت العباسي » وهو أفضلهم حزمًا وعزمًا وحلمًا وعلمًا ورأيًا ودهاءً وهيبة وشجاعةً وسؤددًا وسماحةً وعفة لسان ويد[1] .

وقد حكى عن المأمون في سالف ماضيه المتأجج بالنبوغ والعزم البالغ أهبته فشهد بعيني رأسه مظاهر الحضارة الإسلامية ، فأشهر ما نقل من صورة العظمة أيام أبيه الرشيد والثراء البالغ ما عرف بالياقوته النادرة . وهي ياقوته حمراء كبيرة توارثها قديمًا ملوك فارس السامانيون ثم صارت إلى الخليفة هارون الرشيد حتى اشتراها بمبلغ أربعين ألف دينار ذهبي ونقش عليها اسمه . وقيل أن هذه الياقوته من الكبر واللمعان بحيث ذا وضعت في الليل في حجر مظلمة لأضاءت كالسراج[2] .

وتتسع الرؤيا أمام حدقة التاريخ لهذا العصر الذهبي الحافل بالمخترعات المدهشات والبراهين الساطعات الدالة على ما وصل إليه العرب لهذا العصر من مدنية بديعة ، وقد نقش على ذاكرة الفتى اليافع المأمون صفحة مجلوة ، عند رؤيته للساعة الدقاقة (المائية) قبيل أن تحملها السفينة على متن الماء إلى أوربا مع مجموعة الهدايا التي حملت إلى شارلمان ملك الفرنجة ، وقد تعجب وانبهر بفضل هذا العالم الجهبذ الذي أنشأ تلك الساعة التي اخترعها لتقسيم الوقت وتحديد

= الضغط لكي يسلبه حقه المشروع كولي للعهد مما جعل هارون الرشيد يعيش في محنة قاهرة .

(١) انظر : البيهقي المحاسن والمساوئ ص٦١٦ ، العباسيون ملوك الدنيا للمؤلف ص١٥٢ .

(٢) الجاحظ : التاج في أخلاف الملوك ص١٧٠ .

العمل ، وقد عرف المأمون بأن تلك الهدية عندما وصلت إلى قصر العاهل الفرنسي ذعر منها بطانته وكبار حاشيته وقالوا إن هذا إلا سحر مبين قد كمنت فيه الشياطين ، وما أتانا الرشيد بهديته إلا ليسحرنا بها ونكون من الهالكين .

فكرهوها وأثبتوا أنهم جاهلون بحقيقتها فعلم الفتى من أول أمره بعد أن تفتقت مداركه بأن أوربا يمكنها أن تنقل عن العرب تلك الأصول الخصيبة فتنير أرجاءها فكملت الفكرة في ذهنه ، وثبت في لقاح مستقبله المزدهر عندما تتهيأ له كل الظروف المتاحة لكي يكون له عهد وتاريخ يسجَّل في أيام تلك الدولة فيشق في تلك التربة كل ألوان النماء والنضارة والسيادة ، فالبذرة في أرض الرشيد والحصاد تم اكتماله ناضجًا سويًا لحضارة أتت أكلها ضعفين وأنبتت من كل زوج بهيج في عصره فيما بعد .

ومما يدعو للفخر أن عصر الخليفة الوالد الرشيد شهد ألوان الثقافة الرفيعة على جميع الأصعدة وأرتدَت بغداد والبصرة والكوفة وقصبات بلاد الإسلام أزهى أردية المعارف والآداب والفنون الراقية ، وانفتحت الملكات وصقلت مدارك المأمون الذي أوفى في النباهة والذكاء على الغاية ، ولم لا . ؟ وقد انفسحت للآمال كل السبل المهيأة للنجاحات والنتائج الباهرة ، حيث فتح الرشيد أبواب قصوره العامرة للعلماء والأدباء والفقهاء وأرباب الفكر في مجالس متسعة جمعت بين شخصيات لامعة متميزة في علوم اللغة ، مثل الكسائي وأبي عبيدة والأصمعي ، وفي الفقه مثل القاضي المفضل الإمام أبي يوسف يعقوب تلميذ أبي حنيفة النعمان صاحب الموسوعة المالية النادرة « الخراج » ، وفي الشعر كان مروان بن أبي حفصة وأبو العتاهية وأبو نواس في أغراض المدح والزهد والوصف كما نجد في التاريخ علاّمة عصره الواقدي ، وفي الموسيقى والغناء فإن لإبراهيم الموصلي وابنه إسحق مكانًا بارزًا بين الحضور [1] وقد اكتست تلك

---

(١) انظر ابن النديم الفهرست ص٢١٤بتصرف .

المجالس العلمية الحافلة بالمناظرات والاختبارات التي شدت مع وفرتها انتباه المأمون ، فتفتحت أكمامه وسمح له أبوه أن يكون له مكانا بين القعود ، فلم تفتُر له هِمّةٌ ولم تخمد مع التواصل عزيمة ، وقد أجمعت كتب التراث بأن المأمون كان مع والده في الركب الذي انتقل إلى الأمام مالك بن أنس في المدينة ليسمع هو وأولاده كتاب الموطأ الذي وضعه أمام أهل السنة في الفقه والحديث ، وعندما وصل الرشيد وأولاده إلى يثرب وحط رحاله في قصر الوالي ، أرسل إليه يطلب منه إحضار الموطأ ليقرأه على أمير المؤمنين فقال الإمام مالك لرسول الرشيد : أقرئه السلام وقل له « إن العلم يسعى إليه طلابه بأنفسهم ولا يجئ إليهم » فقيل إن الخليفة ومعه أولاده مشوا إلى منزل هذا العالم ليسمع منه هو وأولاده كتاب الموطأ[1].

وهكذا برهن الرشيد إجلاله لمقام العلماء في عصره وحفاظه على مكانتهم السامية ؛ ليكونوا لعامة الناس قدوة وقد تعلم أولاده تلك الحقيقة بخير برهان . وفي قمة صفحة الجلائل التي تسجل للمأمون في باكرة أيامه ما نقل من أن الرشيد مع تزاحم مشاغله السياسية والإدارية أثناء حكمه لم يغفل لحظة اهتمامه بابنه النجيب المأمون حيث أحضر له خصيصًا المربين والأدباء والعلماء ؛ لتثقيفه وتهذيبه وتعليمه ، حتى برع في كثير من العلوم كالفلسفة والعلوم الرياضية التي برز فيها أقرانه ، وضرب في التفوق درجات الصعود التي لا يصل إلى رحابها إلا أرباب الفطنة النادرة والنبوغ ، وقد توفر له العديد من المؤدبين والمعلمين الأثبات الذين كانوا بحق قيمةً علميةً فائقةً ، تشهد لهم بذلك مؤلفاتهم وجهودهم التي برزت معالمها في حدائق الأوراق والأحبار وأتت في صدر صفحات المؤلفات التي جاءت بعد عصورهم الخالدة ، مثل الكسائي واليزيدي والأحمر الذين كانوا يقصدون قصر الخلافة أيام الرشيد مدعوين إلى مجالسه الحافلة . فكان المأمون يقصد أماكنهم التي يجتمعون عندها ؛ ليحظى بشرف

---

(١) ابن عبد ربه العقد الفريد ج٤ ص٧١ .

العلم وقت حضوره ، وزيادة في الاهتمام جعلهم الخليفة السديد الخطوات لابنه هذا مؤدبين ومعلمين على وجه الخصوص ، ووفر لهم كل سبل الحفاوة والإجلال بل كان يفتح لهم أبواب المكآفات والمنح كنوع من التشجيع الذي يحفز النفوس إلى الرقي والنماء . من ذلك ما روى أن الكسائي في مجلسه كان يقرئ المأمون وكان من عادة المؤدب الحصيف إذا قرأ عليه المأمون يطرق رأسه وإذا أخطأ ينظر إليه أثناء القراءة عليه . فكان يرجع ليرى صواب خطئه وذات يوم كان المأمون يقرأ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ من سورة الصف فنظر إلية الكسائي بعد أن رفع رأسه ونظر المأمون إليه فكرر الآية ، فوجد القراءة صحيحة والمأمون مصيب فاستمر في قراءته . وانصرف الكسائي فدخل المأمون على أبيه الرشيد فقال له : يا أمير المؤمنين إن كنت وعدت مؤدبنا وعدا فهو يستنجزه ويستحي منك . قال : إنه كان التمس للقراء شيئًا ووعدته به فهل قال لك شيئًا؟ قال : لا . قال فما أطلعك على هذا ؟ فقص عليه الخبر فسر من فطنته وحدة ذكائه وقال له : أنت ابني حقًا [1] .

ومما يروى من رواة الأدب الرفيع في غايات القدوة : « أن المأمون أتى يومًا المكان الذي يقابل فيه مؤدبه ـ محمد اليزيدي ـ ثم وجه إليه بعض غلمانه ليبلغه بقدومه فتأخر في الحضور فوجه إليه اليزيدي ثانيًا فتأخر أيضًا ، فلما جاء مع سعيد الجوهري ـ كفيله ـ أن هذا الفتى ربما تشاغل بالبطالة وتأخر . فقال : أجل ومع هذا فإنه إذا فارقك قسى على خدمه ولقد لقوا منه أذى شديدًا فقومه بالأدب ، فلما خرج الجوهري تناوله اليزيدى بالتأنيب وأمر بحمله وضربه تسع ضربات وظل المأمون يدلك عينيه من البكاء ، وإذ ذاك أقبل جعفر بن يحيي ـ وزير الرشيد ـ فأتا الفتى النبيل يمسح عينيه مسرعًا وجمع ثيابه وقام إلى مكانه المعهود وقعد متربعًا كأن شيئًا لم يحدث ثم قال : ليدخل الوزير . فقمت عن المجلس .

---

(١) الجاحظ : مرجع سابق ص ١٧٦ .

فخاف اليزيدي أن يشكوه إلى جعفر ولكنه لم يفعل ، وعندما انصرف الوزير أقبل المعلم على تلميذه بكل وجهه موجهًا إليه كلامه وسمع منه قولا تناقلته أسماع التاريخ بكل التوقير ، قال اليزيدي : أيها الأمير أطال الله بقاءك لقد خفت أن تشكوني إلى جعفر بن يحيي ولو فعلت لتنكر لي ، فقال : أتراني يا أبا محمد كنت أطلع الرشيد على هذه فكيف بجعفر . أأطلعه على أنني أحتاج إلى أدب؟ خذ في أمرك عافاك الله فقد خطر ببالك مالا تراه أبدا ولو عدت إلى تأديبي مائة مرة [1].

والعلامة اليزيدي هو الذي رد على المأمون في حلقته عندما أكثر من اللجج فأوقفه فقال المأمون : أقبيح بي أن أستفهم ؟!! فقال اليزيدي : بل قبيح بك أن تستبهم . أي تقول كلامًا مبهمًا [2].

كما كان الأحمر [3] زميلاً للكسائي وقد انضم إلى مؤدبي القصر ومعلوم عنه ميله إلى الاشتغال بعلوم العربية ، فكان يرصد مسير الكسائي إلى الرشيد ويعرض له في طريقه كل يوم ، فإذا أقبل تلقاه وأخذ بركابه ثم أخذ بيده وأنزله وماشاه إلى أن يبلغ الستر وسأله في طريقه عن المسألة ، فإذا دخل الكسائي رجع الأحمر إلى مكانه من باب الرشيد ، فإذا خرج الكسائي من القصر تلقاه لدى الستر وأخذ بيده وساءله حتى يركب ويجاوز المضارب ثم ينصرف إلى الباب فلم يزل كذلك يتعلم المسالة بعد المسألة حتى قوى وتمكن ، وظل يتقرب من المجالس حتى اشتهر أمره عند الرشيد فألحقه بمؤدبي القصر ولازمه المأمون زمنًا [4].

كان المأمون أفضل شباب بني العباس على الإطلاق لما يتميز به من حضور البديهة وسرعة الجواب : فألم بالعلم منذ حداثة سنه فسمع الحديث من والده ومن غيره من علماء العصر وبرع في الفقه والعلوم العربية والتاريخ ومهر في

---

(١) ابن قتيبة : المعارف ص ١٦٣ .

(٢) المرجع السابق ص ١٦٤.

(٣) جاء هذا العالم من بلاد النوبة التي ينتمي إليها .

(٤) ابن خلدون المقدمة ص٢٩٩ .

الفلك والطب والطبيعيات والعلوم الرياضية والفلسفة وحقائق الفكر المتقدم [1].

وكان المأمون فصيحًا مفوهًا يملك لسانًا لافظًا وفكرًا ثاقبًا وبيانًا في القول ساحرًا يملك به الأفئدة ويستميل كل القلوب إلى جانبه ، فملك زمام خصيصة البلاغة والإقناع والميل الفطري ؛ لكي يكون خطيبًا وشاعرًا مبرزًا من يافعته وشبابه الباكر ، فقد أخبرنا ابن العباس اليزيدي قال : حدثني عمر بن عبد الله وأخي أحمد قالا : لما بلغ المأمون وصار في حد الرجال أمرنا الرشيد أن نعمل له خطبة يقوم بها يوم الجمعة فعملنا له خطبته المشهورة ، وكان جهير الصوت حسن اللهفة فلما خطب بها رقت له قلوب الناس وأبكى من سمعه [2].

وكان هذا الشبل المتعدد المواهب والملكات يقرض الشعر ويخوض غمار بحاره الزاخرة فأخرجت لنا الروايات المعتمدة بأن الرشيد أراد سفرًا فأمر الناس أن يتأهبوا لذلك وأعلمهم أنه خارج بعد الأسبوع . فمضى الأسبوع ولم يخرج فاجتمعوا إلى المأمون وسألوه أن يستعلم ذلك من أبيه الخليفة ، ولم يكن الرشيد يعلم يقينا أن المأمون يقول الشعر قبيل تلك المخاطبة . فكتب إليه المأمون :

يا خير من دَبَّت المطِيُّ بِهِ	ومَنْ تَقَدّيَ بِسرجِهِ فَرسُ
هل غايةٌ في المسِيرِ تعرفُهَا	أَمْ أَمرُنَا في المَسِيرِ ملتَبَسُ
فَاعلم هذَا إلاّ إلي مَلِكٍ	مِنْ نُورِهِ في الظَّلاَمِ نقتَبَسُ
إنْ سِرْتَ سَارَ الرَّشَادُ متبعًا	وإِنْ تَقِفْ فالرَّشَادُ مُحْتَبَسُ

فقرأها الرشيد بعد أن رفعت إليه في رقعة مسطوره فسر بها ، ووقع فيها « يا بني ما أنت والشعر ، إنما الشعر أرفع حالات الدنى وأقل حالات السرى » [3].

وقد حبى المولي عبده الخلوق المأمون كل موروثات الطيبة وحسن الخلق

---

(١) ابن عبد ربه العقد الفريد ج٤ ص٢٧١ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج١٠ ص ١٥٤ .

(٣) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص٣١٤ .

وطيب المعشر والجلد ، وكان رفيقًا للصالحين دينا ، ختم في واحد من أشهُر رمضان من حياته ثلاثًا وثلاثين ختمةً للقرآن ، وكان معروفًا بالتشيع ، ولم يظهره ، وكان يقال : لبني العباس فاتحه وواسطه وخاتمه ، فالفاتحة السفاح والواسطة المأمون والخاتمة المعتضد ، والمأمون كان فقيه النفس أمارًا بالعدل ويعد من كبار العلماء فيه حزم المنصور ، ونسك المهدي ، وعزة الهادي ، وينسب إلى الرشيد ، وكان من حفاظ القرآن القلائل الذين استظهروه واشتغلوا بعلومه قال الصولي : أكتنى المأمون بأبي جعفر وكانوا يحبون هذه الكنية ؛ لأنها كنية المنصور وكان لها في نفوسهم جلالةٌ وتفاؤل بطول عمر من كُني بها كالمنصور والرشيد [1].

وقد حُكي أن أم جعفر ـ زبيدة ـ عاتبت الرشيد في مدحه المأمون دون ولدها محمد الأمين ، فدعا خادمًا وقال له : وجه إلى الأمين والمأمون خادمًا يقول لكل واحد منهما على انفراد . ما تفعل إذا أفضت الخلافة إليك ؟ فأما الأمين فقال للخادم : أُقْطِعُكَ وأعطيك ، وأما المأمون فإنه قام إلى الخادم بدواة كانت بين يديه وكتب . أتسألني عما أفعل بك يوم وفاة أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين ؛ إني لأرجو أن نكون فداءً له . فقال الرشيد لأم جعفر : كيف ترين ؟ فسكتت عن الجواب [2].

كان الرشيد ميالاً بكل كيانه ـ وتصرفاته تدل على ذلك ـ إلى هذا الأمير النجيب المأمون بشدة معرفته بالمواهب والقدرات العالية في العلم والدراية وحسن التخلص ومواجهة المواقف بما يثبت حسن ظن والده به ، فمن ذلك عندما سأله يومًا أن يكتب مرسومًا بتوليَةِ أحد العمال الأكفاء على مصر فكتب المأمون : « السيف بجده ، والقلم بمده ، والعبد بسعده ، لا في أبيه ولا في جده ، قد وليناك على مصر » فأعجب الرشيد كثيرًا من سلامة منطقه وحسن فطنته

---

(١) ابن الأثير مرجع سابق ج١٠ ص٢٠٧ .

(٢) تاريخ اليعقوبة ج١ ص١٩ .

وبلاغته التي ذبجت الكتاب بما يشبه الحكمة وفصل الخطاب [1].

وأخرج ابن عساكر عن يحى بن خالد البرمكي قال: قال لي المأمون « يا يحى اغتنم حوائج الناس فإن الفلك أدور والدهر أجور أن يترك لأحد حالا أو يبقى لأحدٍ مالا ، » وقال لغيره : من لم يحمدك على حسن النية لم يشكرك على جميل الفعل ، وما اقبح اللجاجة بالسلطان ، وأقبح من ذلك الفجر من القضاة قبل التفهم ، وأقبح منه سخافة الفقهاء بالدين ، وأقبح منه البخل بالأغنياء والمزاح بالشيوخ والكسل بالشباب والجبن بالمقاتل [2].

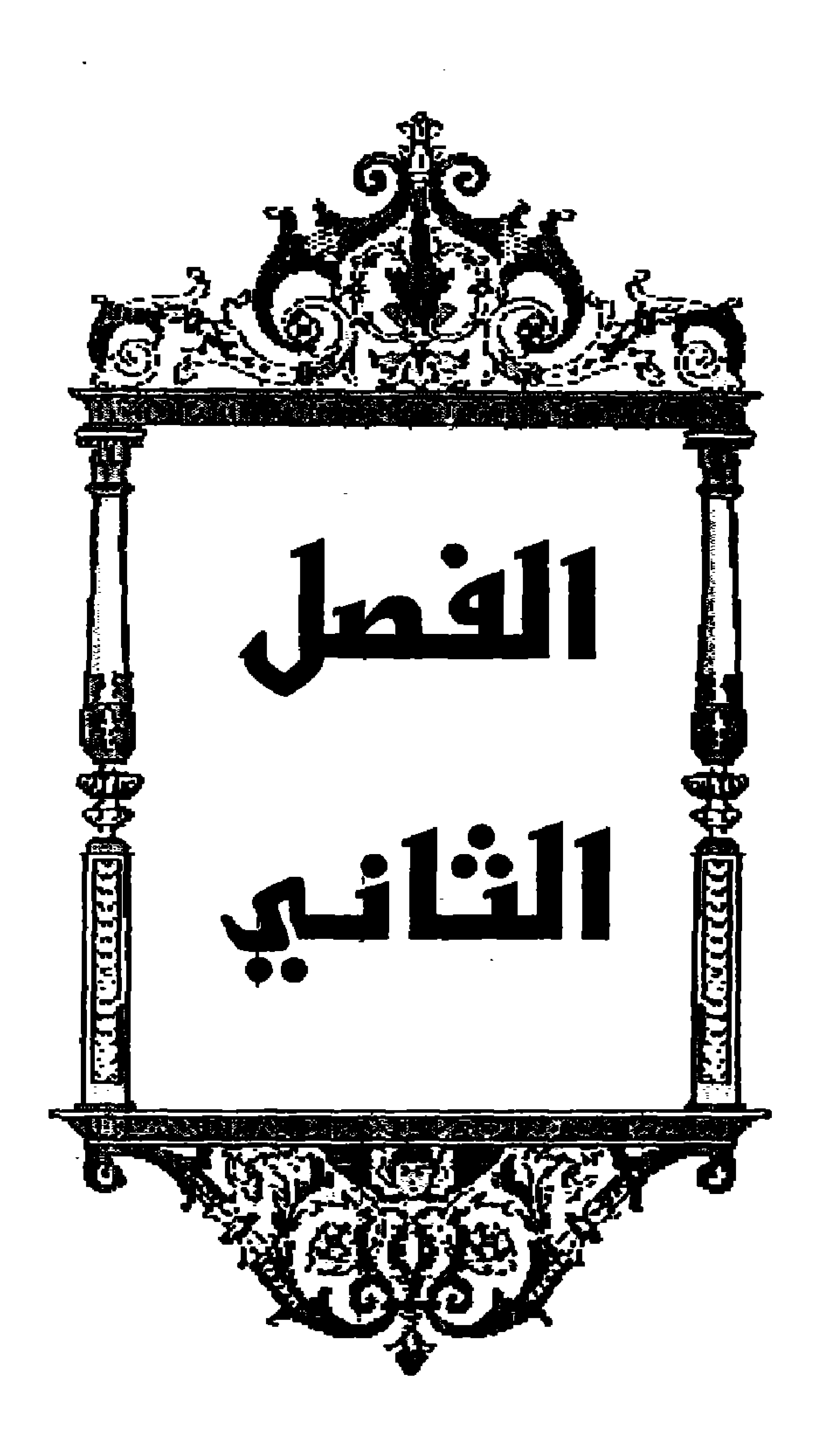
وقد نقلت عنه بعض الأقوال الأخرى التي سجلت عنه في ساعات الصفاء ، فمما يروي في هذا المجال والمواقف خير برهان ، فله في المال والشعر وذم النميمة أقوال فنوردها هنا على التوالي لمن أراد مزيدًا . قال : « إنما تُطْلَب الدنيا لتملك فإذا مُلكتْ فلتوهَبْ ، إنما يتكثر بالذهب والفضة من يقلان عنده » ، ولا شيء من سفر في كفاية ؛ لأنك كل يوم تحل محلة لم تحلها وتعاشر قومًا لم تعاشرهم ، وهو القائل : النميمة لا تَقْرُب مودةً إلا أفسدتها ولا عداوةً إلا جددتها ولا جماعةً إلا بددتها ثم لابد لمن عرف بها ونسب إليها أن يجتنب ويخاف من معرفته [3].



(١) ابن عبد به : العقد الفريد ج٤ ص٢٢٢ .

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص٣٢١ .

(٣) البيهقي المحاسن والمساوئ ص٥١٢ .



الفصل الثاني

الخطأ الجسيم والعواقب الوخيمة

(١) ولاية العهد للأخوين:

في سنة ١٧٥هـ بايع الخليفة هارون الرشيد لابنه الأصغر محمد بولاية العهد ولقبه بالأمين وكان عمره آنذاك خمس سنوات، فكان هذا أول وهن دب في أوصال الخلافة العباسية، وبايع بعده لأخيه عبد الله سنة ١٨٢ هـ وكان أسن من أخيه ولقبه بالمأمون ليكون له الأمر من بعده[١].

وقد أرسل الرشيد - أيام صفائه - الفضل بن يحيي البرمكي لأخذ البيعة للأمين من القواد والجند في خراسان، فبسط الفضل يده بالعطاء لأشراف تلك البلاد وظفر منهم بالبيعة لأخيه في الرضاع محمد الأمين والذي كان يشرف على تربيته، وجعل الخليفة لابنه هذا الشام والعراق، وقد احتفل في قصره ببغداد لتلك الخطوة، وحذى الأكابرة والفقهاء وعلية القوم من بني هاشم بالمال الجزيل والعطايا الجمة وجعل بغداد تعيش في عرس وقتي، ويبدوا أن الرشيد تعجل بأخذ تلك البيعة وسارع بإعلانها تحت إلحاح زوجته الأثيرة إلى قلبه زبيدة ولم يحكم العقل في تقديم المأمون مخافة منها وهي هاشمية النسب ومن الأصول العباسية العريقة، في الوقت الذي كانت فيه أم ابنه الأكبر الأنجب «مراجل»، لم تكن عربية الأصل والمنبت بل كانت فارسية من خراسان ففضل الرشيد الأمين على المأمون لتلك الغاية وقدمه، وجعل للمأمون ولاية المشرق الإسلامي من حد همذان وخراسان، وجعل لابنه الأصغر المؤتمن ولاية الجزيرة والثغور والعواصم، وبذلك يكون الرشيد قد اقتنع أخيرًا حرصًا على سلامة الولايات التابعة للخلافة وإبقائها مرتبطة بالخليفة العباسي، ببغداد بأن تقسم هذه الأملاك الشاسعة إلى أقسام إدارية ثلاث وأن يحكم كل قسم من هذه

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم ج٦ ص١٤٨.

الأقسام ابن من أبنائه وذلك في ظل خلافة واحدة هي خلافة بغداد [1].

ولما قسم هارون ولاياته بين هؤلاء الأبناء الثلاثة قال بعض العقلاء : « لقد ألقى الرشيد بأسهم بينهم وغائلة ذلك تضر بالرعية » [2].

وقد جثمت الهواجس النفسية على قلب الرشيد واقضت منه المضاجع وقاسمه التشتت غير مرة وظل هذا الأمر يقلقه ، إذ كيف يقدّم في البيعة من هو أقل موهبةً وأكثر ميلاً إلى التقاعس ؟ فمما يرويه أبو معشر المنجم قال : قال الرشيد قد قدمت محمد على عبد الله لأني لا أعلم أنه منقاد إلى هواه مبذر لما حوته يده يشاركه في رأيه الإماء والنساء ، ولولا أم جعفر وميل بني هاشم لقدمت عبد الله عليه [3] ، وعن الأصمعي الأديب النابه : أنه كان ساهر الرشيد ذات ليلة مقمرة وقد اعتلاه القلق وقد لاحظ ذلك من شدة اضطرابه حيث كان يقعد مرة ويضطجع أخرى ويبكي ويتقاطر منه الدمع ولسان حاله يقول :

قَلِّـدْ أُمـورَ عبـادِ الله ذَا ثقـةٍ ... موحَّدُ الـرأيِ لا نكْسٌ ولا بـرمُ

واتـرْك مقالَـةَ أقـوامٍ ذَوِي خَطَـلٍ ... لا يفهمـونَ إِذَا مَـا مَـعْشَرٌ فَهِمُـوا

وطلب على الفور وزيره المقرب يحيى البرمكي فلاحقه بما يعتمل في صدره قائلاً : لقد عنيت بتصحيح هذا العهد وتصييره إلى من أرضى سيرته وأحمدُ طريقته وأثق في سياسته ، وآمن ضعفه ووهنه وهو عبد الله ، وبنو هاشم مائلون إلى محمد بأهوائهم وفيه ما فيه من الانقياد لهواه ، غير أن الوزير أثناه عما ابتغاه مغبة الشقاق بين التجمع الهاشمي وترك الحبل على غاربه ، ونسي ما قاله في حق المأمون بأنه المرضي الطريقة الأصيل الرأي الموثوق به في الأمر العظيم [4].

---

(١) فتحي سيف : المشرق الإسلامي ص٥٦ .

(٢) السيوطي : مرجع سابق ص ٢٩٠

(٣) ابن الأثير : الكامل ج١٠ ص٢٥٥ .

(٤) المسعودي : مروج الذهب ج٦ ص٢٢١.

أما المأمون فلم يشغله أمر هذا التقديم كثيرًا لعلو همته ، وسمو إخلاصه ، وقد صدقت فراسة الرشيد فيه الذي حاول أن يعالج الأمر بتوثيق ما للمأمون من نفوذ في خطته الموضوعة مخافة الغدر والظلم ، فحدد لابنه عبد الله - حتى في زمن محمد - أن يكون له خراسان بثغورها وعشرها وعشورها وكورها وأجنادها وخراجها وبريدها وبيوت أموالها وصدقاتها وجميع أعمالها ، وألا يكون لمحمد سلطان على أخيه عبد الله في ولايته تلك ولهما في ذلك عهد الله وذمة الأوفياء [1].

ويكمل ابن الأثير الموقف بأن الرشيد – زيادة في الاحتياط – أخذ معه في حجة عام ١٨٦هـ في ركابه ابنيه محمد وعبد الله وبطانة الخير من رجاله وعلمائه والمقربين من الأسرة الهاشمية ، وبالقرب من الحرم في مكة طلب من كاتبه أن يخط أمام الجمع كتابًا موجهًا إلى محمد ألزمه في مضمونه بالوفاء لأخيه عبد الله عندما يصل الأمر إليه .وأخذ عليه مقتضى العهود والمواثيق المشفوعة بالأيمان المغلظة ، وأشهد الحضور على ما في الورقة ، وفعل الكاتب مع عبد الله نفس ما كتبه لمحمد بفحواه وشهود عيانه ، وآثر الرشيد أن يلزم الطرفين الحجة فعلق الكتابين على أستار الكعبة وقد كان [2].

ومما يجدر ذكره أن المأمون ظل وافيًا لعهد والده ، ولم ينقض حرفيته قيد شعره ، بل والى يذكر أخاه بعد إجلاسه بكل المحامد وبدت كراماته ونشاطاته السياسية والتنفيذية في إقليمه تنم عن الطاعة والإخلاص ، وها هو المأمون الذي أسس في مدينة بلخ القريبة من خراسان قصبة ولايات المشرق الإسلامي الهامة « دار ضرب » جديدة سك فيها عملة تحمل اسم الأخوين محمد الأمين والمأمون سنة (١٨٥هـ - ٨٠١ م) ، وقد تضمنت اسم المأمون بعد الأمين فهو ولي عهد أمير المؤمنين ، وعلى وجهها : محمد رسول الله مما أمر به الأمير المأمون ابن أمير

---

(١) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص٤١٦.

(٢) الكامل ج١٠ (ص٢٥٥، ٢٥٦) ، بتصرف .

المؤمنين الرشيد ولي عهد المسلمين [1].

وقد شهدت الولاية المشرقية أيام إمارته العديد من الإصلاحات ، ودرج المأمون على إيثار روح المودة حيث بان جوده ففتح أبواب خزائنه هناك للإنفاق على المشروعات بسخاء ، وشجع أرباب العلم على مواصلة الجهد في تبريزه وتحقيقه حتى غدت خراسان وبلخ وهراه يلقين قطب الراية في الآداب العربية ، وجعل من أنحائها أنجب من أخرجته الحلقات الدراسية حيث بث روح النشاط في قلوبهم واستخراج المكامن اللغوية ، وهم الذين سوف ينتقلون معه إلى قصبة بلاده أثناء خلافته فور انتصاف الحق له فيما بعد [2].

ومما يؤثر على المأمون داخل ولايته أثناء جولاته إذ صادف غلامًا يسوق جملاً بعنف وشدة والجمل بما حمل بطيء الحركة قليل الهمة ، فاستوقفه المأمون وتحاور معه قائلاً : يا غلام إرفق بجملك ، فقال الغلام وهو لا يعرفه : أيها الرجل في الرفق مضرة له ، فقال المأمون : كيف ذلك ؟ وإني لا أرى مضرة غير الذي هو فيه الآن . فقال الفتى : ذلك أنه إذا أبطأ يطول طريقه ويشتد جوعه ففي العنف إحسان إليه . فقال المأمون : وما الإحسان إليه ؟ قال الفتى : يخف حمله ويطول أكله . فأعجب الأمير العباسي من فطانته وحسن أحدوثه ، ودفع إليه بِصُرَّة بها بعض الدراهم فقال الفتى الجالد : هو رزق مقدور وواهب مأجور . قال المأمون معجبًا : قد أمرت بإثبات اسمك بين عمالي ، فرد الفتى : كفيت مؤونة ورزقت بها معونة ، فقال : ولولا حداثة سنك لأنفذتك على رأس كورة بلدك . قال الولد النابه : لن يعْدَم الفضلَ من رُزِق العقل . قال المأمون : وهل تصلح لذلك يا غلام ؟ فرد قائلاً : إنما يكون المدح والذم بعد التجربة ولا يعرف الإنسان نفسه حتى يبلوها ، وقال تعالى : ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ ، وتتوالى دورات الزمن

---

(١) الطبري : تاريخ الأمم ج٦ ص٥٢٧.

(٢) علي فكري : السمير المهذب (ص١٨٦، ١٨٧) .

وعرف المأمون أن هذا الغلام المحاور اسمه : عبد الله بن طاهر بن الحسين الخراساني الأصل الذي سوف يكون له شأن في دولة المأمون فيما بعد [١].

وقد مهد الله له الصواب باختيار الأخيار من المعاونين الذين أدلوا له بحججهم وأظهروا من المهارة جل الكفاءة ومن دروب الحزم في الإدارة ، فغدت إمارة المشرق للمأمون معهدًا لتخريج القادة البارزين ، والعلماء المجاهدين بزغت في الآفاق أنجمهم مثل : الحسين بن مصعب والي بوشنج إحدى مدن خراسان ، وطلحة بن رزيق عم الحسين الذي اتخذه المأمون كاتبًا لرسائله إذ كان له دراية وحسن بيان في هذا السبيل ، ومن الأسماء التي أدت دورًا في تحريك دولاب الإدارة المشرقية ، محمد بن جعفر بن محمد الأشعث الخزاعي الذي تولى أمر خراسان ، ومن بعده حمزة ابن مالك الخزاعي . ثم سطع في الأفق هذا النجم اللامع الذي خطَى في الطموح خطوات شقت الحجب في مستقبل أيام المأمون ، وأعني به طاهر بن الحسين القائد المهيب والذي أسلم بوتقة الطموح لأولاده وأحفاده عبد الله بن طاهر ، وطاهر بن طاهر ، ومحمد ابنه وجلهم خدموا المأمون أميرًا وخليفة ، كما يحفظ التاريخ الثقافي أسماء عبد الله النيسابوري ، وابن زاهويه أبي يعقوب ، والسراج النيسابوري في الحديث ، وإسحاق بن محمد الحنظل في الفقه . تلك الكوكبة التي ذاع اسمها في مرو ، ومكران ، وأذربيجان ، وكرمان ، وخراسان ، والأهواز ثم انطلقت معهم الشهرة فيما بعد في بقية مدن الإسلام وقصبة بلادها [٢].

وقد كان المأمون هو الكاسب في حركة الحياة التي أدارت السياسة لتلك الفترة من حكم الخليفة الأمين ، وقد كانت هناك بعض الأدلة التي أسفرت بآمالها البعيدة عن التقريب بين الأخوين فها هو الطبري يظهر هذا الوفاق البادي في

---

(١) تلك التفاصيل مستقاه من كتاب : المحاسن والمساوئ للبيهقي ص٤١٧.

(٢) انظر : فتحي أبو سيف المشرق الإسلامي . بتصرف .

معاملة الأخوين ، واستمر التواصل بعد وفاة هارون الرشيد الخليفة الوالد ، ومرت على ذلك فترة تُبودِلتْ فيها الرسائل الودية والهدايا القيمة بين الأمين في بغداد ، والمأمون في مرو [1].

وتشاء الأقدار أن يتوفى الخليفة الرشيد في رحلته الأخيرة إلى المشرق ولقي ربه بمنطقة (طوس) من أعمال خراسان في ضيعة قرب (بسناباذ) ، وقد اشتدت عليه علة مرض مؤثر ، وبينما كانت نفسه تتقعقع دعا كل من كان بعسكره من بني هاشم وأوصاهم بثلاث : الحفظ لأماناتكم ، والنصيحة لأئمتكم ، واجتماع كلمتكم . وانظروا محمدًا (الأمين) ، وعبد الله (المأمون) فمن بغى منهما على صاحبه فردوه عن بغيه ، وقبحوا فعله ونكثه [2]. ثم شهدت تلك المنطقة وغيرها من الولايات تلك الأحداث الجسام التي عجلت بنهاية عصر الأمين والتمكن للمأمون .

(ب) فتنة الأمين والمأمون المؤسفة :

احتدم الصراع السافر بين الخليفة الأمين وأخيه الأمير المأمون ، وكان لابد مما ليس منه بد ، فتدخلت أيادي عابثه في التأثير وتعكير الأجواء بين الأخوين ، وما كان ذلك يحدث إطلاقًا لو أن الخليفة القائم يحسن القياد ، ولا يسمع لنداء دعاة الفتن والانتهازية ، والشعار المرفوع الآن والذي طار صداه بين بغداد وخراسان ما قاله المعري الشاعر الأشهر يومًا :

هَـــذَا جَنَـــاهُ أَبِي عَـــلَيَّ   وَمَـــا جَنَيْـــتُ عَـــلَى أَحَـــدْ

وتلك الحقيقة تؤكدها الأحداث ومأساة ولاية العهد لأكثر من واحد أكبر برهان ، وها هي النار التي حركها بتدبير محكم ذلك الوزير الناقم « الفضل بن الربيع » ، وذلك إثر تفكير شيطاني حمل كبره هذا الوزير الذي سولت له نفسه تصعيد حدة التوتر بين الأخوين لحاجة ما شخصية يؤثر أن يحققها لذاته وسط

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ج٦ ص٤٧٠.

(٢) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص٤٢٥.

أتون ذلك الغليان المحدق ، وقد كان لوحظ في ذلك الفتور في العلاقات بعد مدة وجيزة فبان بعدها شدة بغض الأمين لأخيه المأمون ، فأوعز الفضل إلى الخليفة بأن يخلع المأمون ، والقاسم (المؤتمن) من ولاية العهد الموثقة وجعلها لابنه موسى .

تقول المرويات المعتبرة بأن الفضل بن الربيع كان وراء تلك المحاولة الفاشلة لإبعاد المأمون عن ولاية العهد ، فكان هو السبب فيما وقع من العداوة بين الأمين والمأمون ؛ لأن وزير السوء هو في الحقيقة مفسد معتاد اختلاق الأخبار ويرى ذلك يحسُن في آذان الخلفاء فلم يكن مصطبرًا عن ذلك فأفسد الدولة وأوقع بأس الأمة بينها وفي ذات الوقت كان يبدي الهلع والخوف من انتقام المأمون لو أفضت إليه الخلافة وهو علي قيد الحياة ، ذلك لأنه – من المعلوم للجميع – قد قام بحمل الوصية الأخيرة التي كانت قد كتبت بتقديم المأمون على الأمين من الخليفة الرشيد وهو في النزع الأخير ، حيث توجه الفضل هذا بالجنود إلى الأمين بدلاً من المأمون ، بل تمادى في تزيين أمر خلع المأمون والقاسم لدى الأمين ، ويسول له الإشارات المعلنة في كل مناسبة حتى نجح في مسعاه الذميم فمما قاله في هذا الشأن : ما تنتظر يا أمير المؤمنين بعبد الله والقاسم أخويك ، فإن البيعة كانت لك متقدمة قبلهما ، وإنما أدخلا فيها بعدك واحدًا بعد واحد [1].

وقد قيل إن الأمين – في رواية أخرى – كان ينوي الغدر بعد أن تم تنصيبه بمدة قصيرة ، إذ زعم الفضل بن الربيع أن محمدًا – يقصد الأمين – قال عند خروجه من المسجد : يا أبا العباس هو ما أجد في نفسي أن أمري لا يتم ، فقال له : ولم ذاك أعز الله أمير المؤمنين ؟ فقال : لأني كنت أحلف وأنا أنوي الغدر . فقال له الفضل : سبحان الله أفي هذا الموضع ؟ قال له الأمين : هو ما قلت لك [2].

فتشابكت المصالح وتداخلت نوايا السوء والشيطان ثالث المدبرين ، والله من

---

(١) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص٤٣٣.

(٢) الجهشياوي : الوزراء والكتاب ص٢٢٢.

ورائهم محيط ، ويبرزت بين مطالع التخطيط استغلال المواقف التي تزيد بعد الشقه بين الأمين والمأمون ، والكاسب الشيطان ومن يتبعه ، وأخذت الأحداث تتوالى وتنحدر إلى هوَّة الخطورة خاصة بعد أن تحمس الأمين لتلك الخطوة الجهنمية التي انتزعها من فم الفضل بن الربيع ، حتى قال يومًا لهذا الوزير : يا فضل ، أحَياء مع المأمون ؟ لابد من خلعه ، فاغتبط الفضل من هذا وأخذ يغريه ويقول له : فمتى ذلك ؟ إن انتظرت حتى يغلب خراسان وما فيها صعب عليك أن تنال ما تحب [1].

لم يلتفت الأمين إلى العهود والمواثيق التي قطعها والده الرشيد يومًا على نفسه ، ويلغت به النقمة مداها ، وفلت منه زمام الحكمة ، فلم يرعَوِ وركب الصعب حتى ظن أن الأمور سوف تجري حسب هواه فكان في ذلك مهواه ، فقيل إنه كان يلاحق خصومه بشتى المطاردات ، وأقسى العقوبات ، ولم يسلم من ذلك حتى الأموات الذي نوى أن ينالوا نقمته ، ولم يراع لذلك حرمة ضاربًا بكل المعايير الإنسانية ، واستمع إلى القرناء المُسَوِّلين ، وأصم أذنيه عن معاني الرحمة ، فماذا تقول لمن غلبته الشقوة ، وبان من منهجه أنه ضرب صفحًا عن تقدير العلماء ، وتقريب الأوفياء . هؤلاء الذين تميزوا بالخلق القويم والنصح الأكيد ولو اتبع الحقَ في معيتهم لكان من الناجين ، ولكنه لسوء طالعه تمادى في غيِّه ، وألغى من قاموس حياته قيمة العقل وتغافل عن كثير من صلات القربى والرحم ، ومن الجرأة غير المستحبة ما نقل من أن الأمين كاد أن يستشفى من الخصوم حتى وهم في كنف الله ، وقد ثوت أجسادهم بين الأجداث .

فعن حماد بن إسحاق قال : دخلت على الأمين فرأيته مغضبًا كالحًا فقلت له : ما لأمير المؤمنين ـ تمم الله سروره ولا نَقَصَه ـ أراه كالحائر ؟ قال : غاظني أبوك

---

(١) الطبري : تاريخ الأمم ج١١ ص٧٧٧.

الساعة لا رحمه الله ، والله لو كان حيًا لضربته خمسمائة سوط ولولاك لنبشت الساعة قبره وأحرقت عظامه ، فقلت : أعوذ بالله من سخطك يا أمير المؤمنين ، ومن أبي وما مقداره حتى تغتاظ منه ؟ وما الذي غاظك منه ؟ لعله له فيه عذرًا . قال الأمين : شدة محبته للمأمون . وتقديمه إياه عليَّ حتى قال في الرشيد شعرًا قدم فيه المأمون عليَّ ، وغنيته الساعة فأورثني هذا الغيظ [1] .

نعود إلى قلب الأحداث بدورانها السريع عند نقطة الغليان لنكون قريبين ممن سجلوها في متون أسفارهم ، بادئين بتلك اللحظة التي دبرها « ذلك الفظ المسمى الفضل » للخليفه الأمين وزين له فيها إمكان خلع المأمون والقبض عليه في عقر منطقة نفوذه بأرض مرو الروز ، وقد نجح في ذلك المغامر الحانق في جر انتهازي آخر هو علي بن عيسى بن ماهان وتلميذه السندي ، فمما قاله السندي في هذا السياق : فكانت أول الذرائع خلع القاسم (المؤتمن) بعد استدعائه من الجزيرة في الوقت الذي كان فيه المأمون بخراسان على كامل الهيئة من الإخلاص والطاعة ، وعلى العهد الذي قطعه على نفسه ، وبدا كوالٍ مؤيدٍ لأخيه بل كان يحشد في كتبه التي يرسلها إلى بغداد كل عبارات الإخلاص والتقدير ويواصل بعث الهدايا القيمة من خيرات خراسان شاملة النفائس والمتاع والأواني والسلاح والمسك والدواب ، ولم تنقطع حتى عظمت الشدة [2] .

الأحداث الدامية في سطور :

إنه لما بلغ عبدَ الله المأمون ولي العهد وفق الوثائق الموضوعة خبر عزل أخيه القاسم التالي له في الولاية ؛ أدرك بذكائه الذي لا يغيب عنه أن هذا العزل الفجائي ما هو إلا مقدمة لخطوات أخرى يمكن أن تؤدي إلى عزله هو فيما بعد ، وقد كانت أهم تلك الخطوات الحاسمة على طريق المجاذبة والصراع الأليم ما يلي :

---

(١) الأصفهاني : كتاب الأغاني ج١ ص١١٨.

(٢) الكامل في التاريخ ج٦ ص٧٤.

١- أن الأمين ـ وفق منهجه المستفز ـ قد بدأ التحرش المعلن بأن كتب إلى عامل المأمون على الري [١]، بأن يرسل إليه بعض الهدايا من منتجات بلاده متجاهلاً بعمله هذا أخاه المأمون ، وعندما استجاب هذا الوالي لطلبات الخليفة ـ وهو بالقطع لا يعرف مرامي ما ينويه ـ عدَّ الأمير العباسي ذلك التصرف خرقًا صريحًا للوصية التي كتبها والده الرشيد في حياته للأمين وملخصها في هذا الجانب حقيقة أن يترك للمأمون خراسان ولا يتصل بعماله إطلاقًا [٢].

٢- ثم اتصل الخليفة بأخيه المأمون مُعْلمًا إياه بأنه في حاجة ملحة لحضوره توًا إلى بغداد ، وينبغي الإسراع في تلبية تلك الرغبة ، وذلك للاستئناس برأيه ومشورته في هذا الأمر الذي جد ، ولكن المأمون الحصيف عندما وصلته تلك الرسالة ارتاب في أمر مضمونها الغامض وتوقيته ، غير أن الأمير تباطأ في الوصول إلى عاصمة الدولة ؛ لأن عيونه المبثوثة في جنبات قصر الخلافة أخبرته بدسائس أرباب الانتهازية الذين يحيكون خيوط الوقيعة بين الأخوين ، وممن لهم ضلع خبيث في تلك الخطوة غير الموفقة : الفضل ، وابن ماهان ، وابن صبيح ، والسندي من كبار رجالات الأمين [٣].

٣- تقطعت وسائل الاتصال بين الأخوين وحلت محلها الوحشة أثر طلب المأمون من الأمين أن يبعث إليه زوجته أم عيسى تلك التي تركها بين أهلها في بغداد ، وذلك قبل ذهابه عاملاً لأبيه على خراسان ، وأن يرسل إليه مبلغ مائة ألف دينار كان الرشيد قبيل رحيله قد أوصى بها إلى المأمون من بيت المال ، غير أن الخليفة رفض هذا الطلب المزدوج بحجة واهنه ، هي أن المال المطلوب صرفه قد استنفذ في مصالح عامة المسلمين ، أما بالنسبة لزوجته وأولادها فإنه يرى ألا

---

(١) اسمه العباس بن عبد الله بن مالك .

(٢) ابن الأثير : المرجع السابق ج٦ ص٧٥.

(٣) الطبري : تاريخ الأمم ج١١ ص٧٧٥.

يعرضهم لمشقات الطريق ووعثاء السفر [1].

٤- وعند هذه النقطة يمكن أن نقول بأن الخلاف المحدود وصل مع الشد والجذب والمكاتبات الجافية بأسلوبها العاري عن المودة والتلطف إلى طريق مسدود ، وذلك يوصلنا إلى البؤرة السحيقة في هذا الصراع عندما وجه الأمين إلى المأمون وفدًا يؤدي مهامًا مزدوجة ظاهرها السلامة وباطنها الضغط ؛ ليقبل ما رفعوه إليه من طلبات مؤداها تقديم ابنه موسى على المأمون في ولاية العهد وفق المشورة التي دبرت من قبل من خلال الوزير الفضل بن الربيع ، والمقابل لذلك أن يعطيه الأمين كل الأموال التي يرغبها ، وأن يدعو بنفسه لولي العهد الجديد - المزعوم - موسى من فوق منابر خراسان [2]، لكن المأمون أبدى عدم رضاه لهذا الضغط الصريح الذي حواه مضمون هذا الكتاب الذي يرفعه إليه هذا الوفد المكلف بتلك المهمة ، ثم عاد وفد بغداد حاملاً رد المأمون الرافض لهذه الرغبة الجامحة المغيرة للمفهوم السياسي المسجل في الوثائق ، مبينًا رأيه بأنه لا سمع عليه في هذا ولا طاعة ، وهو الرد نفسه الذي سمعه من سائر القواد المخلصين له والمؤتمرين بأوامره من داخل منطقة نفوذه بخراسان فمما قالوه له : « إنما يلزمنا لك الوفاء إذا وفيت لأخيك وأنت قد نقضت العهود وأحدثت الأحداث واستخففت بالأيمان والمواثيق » [3].

٥- عندما عاد الوفد برئاسة العباس بن موسى بن عيسى بن موسى من الأسرة الهاشمية حفيد ولي العهد عيسى بن موسى أيام الخليفة المنصور ، وفي جعبته أمرًا سريًا يحمله بين جوانحه ولا يبوح به لأحد مهما كانت غاية الثقة فيه ، وهي البيعة للمأمون خليفةً عندما كان بخراسان وقد خلا به ذو الرئاستين طاهر

---

(١) أبو حنيفة الدينوري : الأخبار الطوال ص٢٩٥.

(٢) ابن الأثير : الكامل ج٦ ص٧٧.

(٣) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص٤٣٦.

ابن الحسين ؛ يقول الطبري : أن طاهر قد تخاطب مع العباس المذكور في أمر ولاية جده . قال : كان جدك في أيديهم أسيرًا ، ثم قال ذو الرئاستين فأعجبني ما رأيت من ذكاء العباس بن موسى فخلوت به فقلت : يذهب عليك في فهمك وسنك أن تأخذ بحظك من الإمام ، وسمى المأمون في ذلك اليوم بالإمام قال : ثم قلت للعباس : لك عندي ولاية الموسم ولا ولاية أشرف منها ، ولك من مواضيع الأعمال بمصر ما شئت ، قال : فما برح حتى أخذت عليه البيعة للمأمون بالخلافة . فكان بعد ذلك يكتب إلينا بالأخبار ويشير علينا بالرأي [1].

٦- صار الأمين بعد وصول الوفد بامتناع المأمون وعدم رضوخه لما طلب على أكثر جرأة ، حيث أسقط اسم المأمون من ولاية العهد قسرًا كما طلب كتاب والده الرشيد المعلق بالكعبة فأحضره بواسطة حجبة البيت ومزقه على الرغم من نصح الناصحين له بألا يقدم على هذا الأمر قائلين له : « يا أمير المؤمنين لن ينصحك من كذبك ولن يغشك من صدَقك ، لا تجرّئ القواد على الخلع ، ولا تحملهم على نكث العهد ، فينكثوا عهدك وبيعتك ، فإن الغادر مغلول والناكث مخذول » . فلم ينتصح وأخذ يستميل القواد بالعطاء ، بل تمادى بأن بايع بولاية العهد لابنه موسى ولقبه « الناطق بالحق » وهو إذ ذاك طفل رضيع [2].

٧- أخذ النزاع يشق طريقًا أكثر وعورة وابعد غورًا ، وذلك عندما اتبع المأمون من جهته خطًا معاكسًا لهذا التيار الجامح الذي يقوده الأمين ، بدءًا بوقف التراسل مع قصر الخلافة وإسقاط اسم الأمين من الطرز والخطب والسّكة وما إليه ، كما أغلق الحدود الفاصلة بين خراسان والعراق ، وبث العيون والمراصد من داخل قصر المنصور مقر الخليفة الأمين ؛ تحسبًا لأن تأتيه الأنباء بانتظام عما يحدث في الردهات ومن وراء الستار ، كما كانت تخبره أولاً بأول عن تصاعد

---

(١) تاريخ الأمم ج١١ ص٧٧٩.

(٢) ابن طباطبا الفخري في الآداب السلطانية ص٨٨٧.

الخلافات مع سخونة الأحداث ، ومن جهة أخرى أسرع المأمون بتجهيز عسكره وجعل على القيادة الفارسي الأريب طاهر بن الحسين الذي كان عامل المأمون على الري ، فوكل إليه رئاسة تلك الفرق التي تتصدى لأي هجوم معلن أو مباغت يأتي من جهة بغداد ، وفي عاصمة ملك الرشيد أصدر الأمين أوامره لعلي بن عيسى بن ماهان بالسير قدمًا لحرب المأمون موليًا إياه خراسان ، ثم أمر بديوان الجند فدفعه إليه ، فاختار قائد السلطة العباسية ابن ماهان ستين ألف رجل من أبطال الحروب والكماة الفرسان العرب ، وسار بهم نحو همذان متوجهًا إلى الري [(١)].

٨- على التو شرع الأمين في إرسال هذا الجيش الرهيب إلى خراسان ؛ ليوقع الهزائم بأهالي تلك النواحي نظرًا لقوته واستعداده المكثف عددًا وعدة ، وعندما يتحقق له ما يريد ويسقط أخوه ـ نعم أخوه ـ كما توقع في يد جنوده يأتون به إليه مكبلاً بالأصفاد وأمامه هذا الجيش على الهيئة التي لم ير مثلها في عدده وهيئته المتميزة ، وذلك في جمادي الآخرة سنة ١٩٥هـ ، فأخذ ابن ماهان معه قيدًا من فضة ليسلسل به المأمون إن تمكن منه [(٢)]. تحرج الموقف وتأزمت العلاقات ولم يبق إلا استخدام السيف كسبيل حاسم لإنهاء هذا الصراع المروع ، فأعد المأمون جيشه الذي أحكم تزويده بالعدة والرجال وقاده بطل مغوار اسمه : طاهر بن الحسين ، وأمره أن يقصد حاضرة البلاد ـ بغداد ـ لينهي تلك الخلافات بالقبض على الأمين ـ المتعجرف ـ ويأتي به على قيد الحياة ليؤدبه ، وذلك بعد تحقيق النصر المرتقب .

٩- وأخيرًا كانت المواجهة الصارمة والتي اصطدم فيها الحديد بالحديد ، ولم ترفع في تلك الأيام رايات إذ وجد المحاربون أنهم في حاجة إلى السيوف ولم

---

(١) فتحي سيف : المشرق الإسلامي ص٧٧.

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص٢٩٨ ، يقال أن فكرة السلسلة كانت من ترتيب الأميرة : زبيدة والدة الأمين .

يفكروا أبدًا في إخراج البنود والأعلام من ديوان السلاح ، وكأنها استعصت فلم تخرج لتعلن استياءها إذ لا يهمها من يكون المنتصر في هذه الحرب الأهلية الدامية ؟ فخرج جند الحاضرة بقيادة علي بن عيسى في منتصف شهر جمادي الآخرة لقتال المأمون وجنده الخراسانية في أربعين ألفًا على هيئة لم ير مثلها ، وأخذ معه قُبيل تحركه قيد فضة ليقيد بها المأمون بزعمه [(١)].

أما جيش خراسان – المتأهب لخوض المعارك – فكان على رأسه طاهر بن الحسين وعدد رجاله أقل من أربعة آلاف مقاتل ، وهنا يتضح تفوق جيش علي بن عيسى على جيش طاهر من ناحية العتاد والعدة إلا أن قائد بغداد قد اغتر بقوته ، والجدير بالملاحظة أن المعركة قد تحددت معالمها قبيل الدخول في أحداثها حيث أن الأمين بتعيينه « علي بن ماهان » قائدًا لجنده قد خدم أخاه المأمون خدمة فائقة بهذا التعيين ؛ لأن ابن ماهان يتمتع برصيد هائل من الكراهية بين أهل خراسان أثناء ولايته لها أيام الخليفة الوالد – الرشيد – حيث سام الناس سوء الخسف وأذاقهم ألوانًا شتى من المضايقات والظلمات والفظائع التي لم ينساها أهل هذا الإقليم لهذا الوالي الظالم أبدًا ، وسوف يثير ذلك الرصيد من الشناعات حفيظة جند خراسان عماد جيش المأمون الذين عاشوا في كنفه بكل ألوان العدل والرفق وحسن سياسة وإنصاف ، وشتان الفارق بين الحمية والحب في موازين القوى أثناء التدبير وجمع العتاد وتلاحم الأجناد . زد على ذلك أن معسكر المأمون كان تحت قيادة حكيمة تعرف مكائد الحرب وخدعها ، فكان كل ذلك من دواعي تعويض قلة عدد الجنود الخراسانية [(٢)].

كسبًا للوقت راح طاهر يعمل على تفتيت وحدة جيش خصمه وضم أعداد

---

(١) المرجع السابق .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج٥ ص٢١٢ بتصرف .

منهم ليكونوا ضمن أنصاره ، يقول الطبري : إن القائد الفارسي المحنك « أرسل جنده السريين من أجناده من ناحية الري ، وهمذان ، ونهاوند ، وقم ، وأصبهان بصورة لم يدركها علي بن عيسى واندمجوا وسط هذا الجيش ليذكر الجند بالبيعة التي بايع بها الأمين وقواده للمأمون من قبل ، وزودهم بنسخ موثقة من هذه البيعة معلقة على رمحين ليذكروا الناس بها ، وعلى رأسهم ابن ماهان وفي ذلك إقرار بأنه ناكث للعهد فخمدت الهمم مما أضعف من جند الحاضرة وقائدها المعين على بن عيسى [1]، ذلك المغرور الذي لم يعبأ بقوة خصمه الذي تحصن في منطقة الري ووكل بأطرافها ، ووضع مسالحه وجنده في جنباتها ، وبث طاهر عيونه وطلائعه وشدد على جنده أن يكمنوا بحد الري لا يتجاوزونه ولا يطلقون يدًا بسوء [2].

وتمادى ابن ماهان في غيه وصلفه والاستهانة بالجند الخراسانية وقائدهم طاهر . يقول المسعودي : إن علي بن عيسى لما طلب منه معاونوه الاعتداد بطاهر وقوته ، أجاب بلا مبالاة ما طاهر إلا شوكة من أعضائي وشرارة من ناري ، وما مثل طاهر يؤمر على جيش [3].

ثم التقى الجيشان وحمي وطيس المعركة ، وكانت نتيجتها الحاسمة هي هزيمة جيش الأمين عند الري ، وذبح القائد علي بن عيسى بيد جندي فارسي اسمه : داود سياه ، كان موتورًا منه ، وقد تربص به وحمل رأسه إلى المأمون[4]. بعد أن سلمها إلى وزيره المقرب الفضل بن سهل ، ومساعده الأيمن . عندئذ دخل ابن

---

(١) تاريخ الأمم ج٧ ص٥.

(٢) ابن الأثير : المرجع السابق ص٢١٥.

(٣) مروج الذهب ج٢ ص٢٨٨.

(٤) وقيل جيء برأسه إلى طاهر فأعتق من كان بحضرته من غلمانه شكرًا لله ، ثم جاؤوا بعلي قد شد الأعوان يديه إلى رجليه يحمل على خشب كما يحمل الحمار وأمر به فلف في لبد ، وألقى به في بئر . أما رأسه فطيف بها أنحاء خراسان وسط الارتياح العام .

سهل على المأمون مسلمًا عليه بالخلافة وأمر أن يخاطب بـ « أمير المؤمنين » ، وأعلنت بلاد فارس كلها تأييدها للخليفة الجديد ، ولما أصيب قلب جيش بغداد بالهزيمة وقتل قائده انكسر الجيش بعدها ، ولما وصلت أنباء تلك الهزيمة إلى الأمين وازدياد شأن المأمون وهو يتصيد السمك ، فعزم على خلع أخيه الأمر الذي جعل الأمراء يطمعون فيه ، فاضطربت البطانة وشغب الناس لطلب الأرزاق . ويقي أمر الأمين كل يوم في تأخر لانهماكه في اللعب واللهو والجهل ، وازداد حب العامة للمأمون حتى بايعه أهل الحرمين وأكثر بلاد العراق ، وفسد الحال على الأمين جدًا وتلف أمر العسكر ، ونفدت خزائنه وساءت حال الناس بسبب ذلك وعظم الشر وكثر الخراب والهدم من القتال [1].

وزحف طاهر نحو بغداد التي دام حصارها نحوًا من خمسة عشر شهرًا في تلك المدة . كما يقول اليعقوبي : طلب الأمين من واليه على الشام [2]. أن يرسل إليه أعدادًا من فرسان تلك الولاية ممن عرفوا بالقوة وشدة البأس والمنعة [3]. فبعث إليه قوة كما طلب ، ولكنهم اشتبكوا في معارك عرقية أثناء قدومهم بين ما عرفوا بالزواقيل والأعراب عند منطقة الرقه ، وتعصب كلٌّ لجماعته تعصبًا أدى إلى التلاحم ، ونشب القتال وهزمت جماعة الأعراب وقتلت منهم مقتلة عظيمة فتنادي الزعماء ودارت معارك أخرى كان النصر هذه المرة إلى جانب الأعراب (الأبناء) ، وعندما طلب منهم الوالي عبد الملك أن يوقفوا حدة هذا العناء والبغضاء ويتركوا الحرب حتى يلحقوا بأمير المؤمنين الأمين ، حصبوا رسوله بالحجارة ، وجمع أهل الشام أمرهم وعزموا على الرحيل إلى بلادهم فرحلوا ، ولم ينجدوا خليفتهم الذي تركوه طعمه لمنافسيه وهكذا غدت تلك القوة تحارب

---

(١) السيوطي : مرجع سابق ص٢٩٩.

(٢) عبد الملك بن صالح بن علي .

(٣) اليعقوبي ج٢ ص٤٣٥.

في مطاحنات لم تؤثر في إدارة المعارك ، ولم ينتفع الأمين بهم بعد أن نفدت أسلحتهم وأقواتهم فعادوا دون نتيجة تذكر [1].

هذا في الوقت الذي أصبح فيه الأمين ينفض من جوانبه معظم رجالاته ومستشاريه ، وخلع جملةً من بطانته الذين كانوا يظهرون له الطاعة أمامه فقط مثل الحسين بن علي بن عيسى ، والعباس بن موسى ، وداود بن عيسى ، وأثناء ذلك كان جيش طاهر ابن الحسين يواصل انتصاراته ليدك بأسلحته التدميرية حدود بغداد ووسطها ورمي جند خراسان عاصمة الخلافة العباسية دار السلام بالمنجنيقات والنفط حتى درست معالمها ، ولم يبق مع الأمين يقاتل معه إلا الغوغاء ويسطاء القوم والخارجين على الدولة في سجونه فأطلقهم ليكونوا عدة بين يديه ، وأثناء ذلك الحصار انتشرت بالفعل المجاعات والأوبئة ونشط الغوغاء والرعاع والحرافيش الذين ارتكبوا أعمال السلب والنهب ، وكثر القتل والغرق أثناء المقاومة [2]، واشتد الحال بالأمين بعد أن انفض عنه الأتباع وتخلوا عنه وبعد أن توالت عليه الهزائم خلعت مدن فارس والحجاز والشام ومصر كلها والعراق بأطرافها طاعتها عن الأمين الذي شغله اللهو الذي يثبط الهمم ويقدح بالمذمات أرباب المناصب الرفيعة عما يحيط به من أخطار مؤسفة [3].

وسر المأمون بتلك الأنباء السارة التي وردت إليه في مرو بانتصار رجالاته طاهر وهرثمة بن أعين وزهير بن المسيب ، الذين شددوا النكير على الأمين

---

(١) محمد الخضري بك : محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ص١٨٩ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج٥ ص١٤٧. والأعراب مجموعة من القبائل تشترك في الحروب عند انتدابهم أو لقمع ثورة عندما يخفق الجيش النظامي في ذلك وينتفعون بالغنائم والأسلاب ، أما الزواقيل : عرب قيسين ، وهم من البدو المحرومين من العطاء ، وربما عمدوا إلى السلب والنهب لإقامة أودهم وقد نعتهم المأمون باللصوصية ، ولم يجدوا من يحل لهم مشاكلهم الاجتماعية .

(٣) انظر : نماذج من هذا اللهو الرخيص في تاريخ الخلفاء للعلامة السيوطي ص٢٩٨، ٢٩٩.

ليستخلصوا منه مناطق نفوذه ، وهو أمر يجعلهم ينهون تلك الصراعات لصالح المأمون رجلهم المثالي ، وتغمد سيوفهم في النهاية ، وعندما شعر الفضل بن الربيع ـ صاحب الضلع الأكبر في الفتنة ـ بالخطر الذي يحدق بخليفته الأمين سهل له سبل الهرب مع أسرته وما تبقى معه من الجواري من مدينة بغداد إلى مدينة الرصافة ، وقد كانت أمه السيدة زبيدة قد أشارت على ابنها أن يدخل على أخيه بخراسان ويسلم إليه أمر التنازل ففكر في ذلك ، إلا أن طاهر كان قد حاصر القصر بجند هرثمة بن أعين ، وأوصد عليه الأبواب وضيق عليه المنافذ ، ورفع الأعلام أخيرًا على سواري القصر ، وكاد الأمين أن يهرب بمن معه في الظلام وتمكن من الخروج إلى دجلة في حراقة ـ سفينة معدة ـ قاصدًا خراسان وفق مشورة أمه ، إلا أن جند طاهر لحقوه في عرض النهر ورموه بالنشاب ورشقوه بالحجارة فأغرقوا السفينة [١].

غير أن الأمين قد وقع في أيدي المطاردين فقبضوا عليه ومن كان معه من حريمه وجواريه وأطفال صغار فأخذوهم وساقوهم ليحبسوهم في بستان ، وأثناء الليل أمر طاهر بترتيب منه أن يدخل الجند على الأمين في محبسه ليقتلوه بالسيف ، ثم ذبحه بعض جند فارس من قفاه ، وذهبوا برأسه إلى القائد طاهر فنصبها على حائط ونودي : هذا رأس المخلوع محمد وجُرّت جثته بحبل ثم بعث هذا القائد بعد ذلك بالرأس والبُرد والقضيب والمصلى ـ وهو من سعف مبطن ـ إلى المأمون ، واشتد الحزن على المأمون وأسف لقتل أخيه ، وكان يحب أن يرسل إليه حيًا ليرى فيه رأيه [٢].

وبمقتل محمد الأمين الخليفة الخامس انتهى الصراع الداخلي للأسرة العباسية

---

(١) الطبري : تاريخ الأمم ج١١ ص٧٩٩.

(٢) تاريخ الخلفاء ص٣٠٠.

لصالح المأمون ، ولم يبق إلا رثاء الحال الذي تدهورت إليه الخلافة وتوقفت بالقطع في تلك المدة التي استطالت الإنجازات ، وسبل النفع ، ورغيد المعايش التي كانت بغداد جوهرة في تاج الإسلام فكانت ترسل أشعتها إلى سائر الأمصار ، وهاهي دار السلام الآن تعاني خراب رسومها ، فهل تعود إلى أركانها قوتها ونشاطها ومركز جذب لسائر الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية وما إليها ؟ المسلم الغيور يتمنى ذلك ويقول ذلك وهو يردد ما أعلنه قلب مكلوم فور تلك الأحداث الجسام :

مَنْ ذَا أَصَابَكِ يَا بغدادُ بِالعَيْنِ ؟ ... أَلَمْ تَكُونِي زَمَانًا قُرَّةُ العينِ؟

أَلَمْ يَكُنْ فِيكِ قَوْمٌ كَانَ مَسْكَنُهُمْ ... وَكَانَ قُرْبُهُمْ زَيْنًا من الزَّينِ؟

صَاحَ الغُرَابُ بِهِمْ بِالبَيْنِ فَاخْتَرَقُوا ... مَاذَا لَقِيتِ بِهِمْ مِنْ لَوْعَةِ البَيْنِ؟ (١)

ولخزيمة بن الحسن شاعر الحضرة على لسان الأميرة الأم زبيدة تبدي الحسرات :

أَتى طَاهِرٌ لا طَهَّرَ اللهُ طَاهِرًا ... فَمَا طَاهِرٌ فِيمَا أَتَى بِمُطَهَّرِ

فَأَخْرَجَنِي مَكْشُوفَةَ الوَجْهِ حَاسِرًا ... وَأَنْهَبَ مَالِي وَأَخْرَبَ أَدْوُرِي

تَذَكَّرَ أَمِيرَ المؤمنينَ قَرَابَتِي ... فَدَيتكَ مِنْ ذِي حُرْمَةٍ مُتَذَكِّرِ (٢)

وقيل أن المأمون بعد أن أكرمه الله بالانتصار توالت منه النعم والإحسان ، بدأها بأن قرب أبناء أخيه الأمين وأكرمهم ، بأن زوجهم من بناته وكتب إلى الأمصار الإسلامية المتعددة منشورًا سياسيًا حملته خيول البريد في وقت واحد ، حيث أرسله إلى جميع العمال بتلك النواحي ، ليعلمهم بالوضع الجديد بانتهاء عصر أخيه وبداية عصره هو ، قال المكتوب : أن الأمين كان قسيم أمير المؤمنين

---

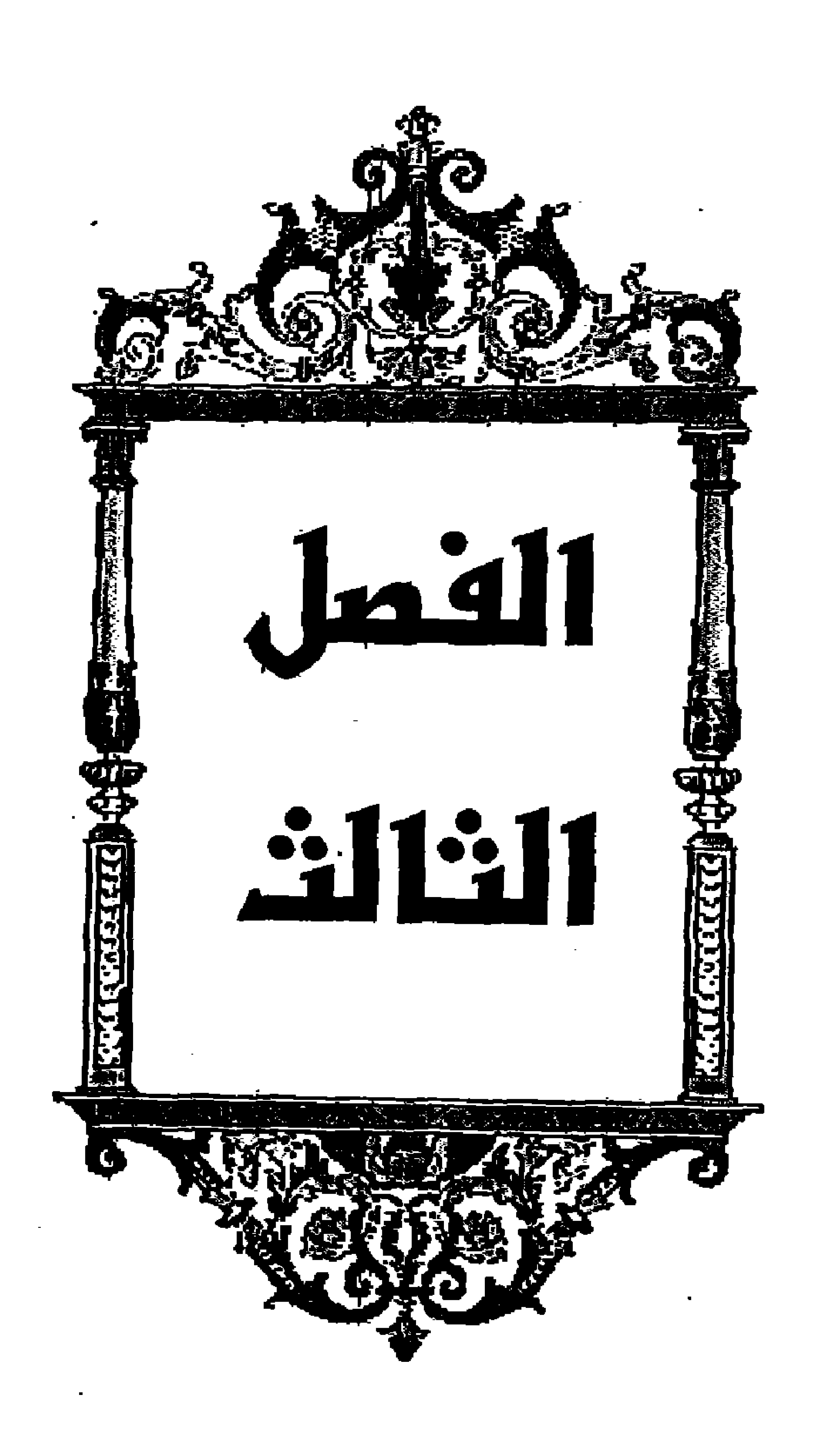
(١) أحمد الإسكندراني : الوسيط في الأدب ص١٩٦ .

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج٤ ص١٢٤.

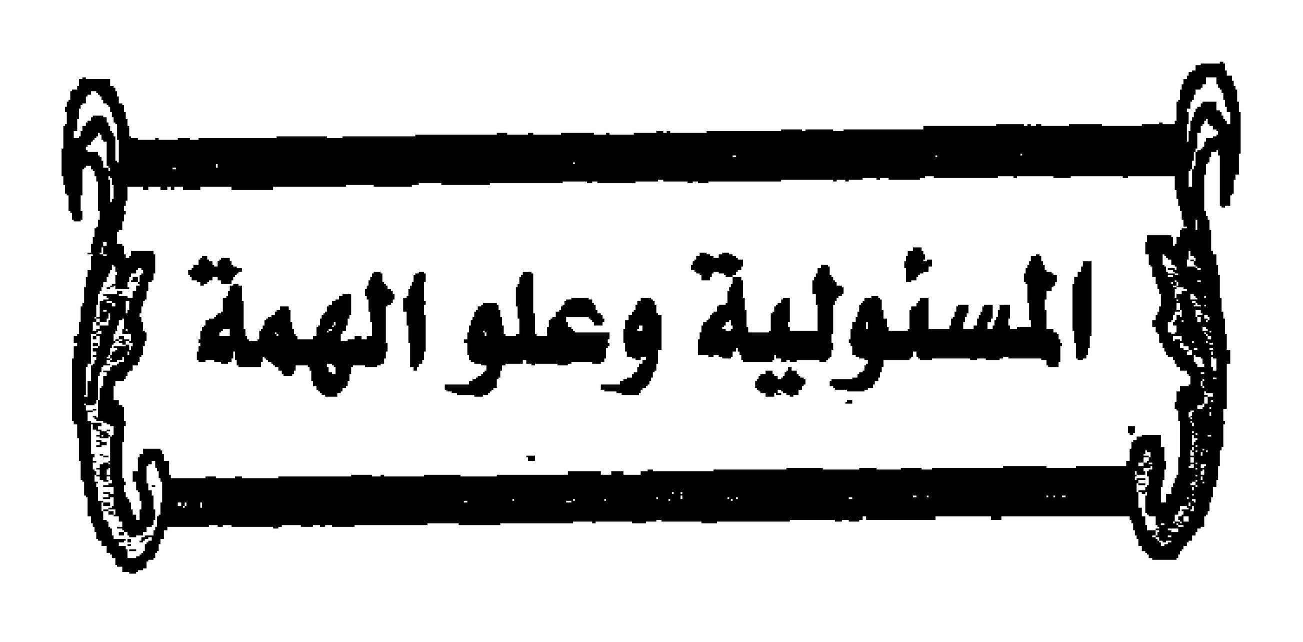
في النسب واللحمة ، وقد فرق الله بينه وبينه في الولاية والحرمة بمقاومته عصم الدين فلا طاعة لأحد في معصية الله ولا قطيعة إذا كانت القطيعة في جنب الله الذي أحصر لأمير المؤمنين زمره وأنجز له وعده ، ورد به الألفة بعد فرقتها ، وجمع الأمة والحمد لله بعد شتاتها ، وأحيا به أعلام الإسلام بعد دروسها والسلام [1].



(١) الطبري : تاريخ الأمم ج١٠ ص٢١٤.



الفصل الثالث



خلافة المأمون :

وصلت الخلافة العباسية لمن هو جدير بها ، ذلك الذي يتمتع بالسمت الصالح والعقل الراجح ، ويجد الرصيد المعقول من الحب والإخلاص من المقربين من مجالسه أثناء إمارته في خراسان وما وإلاها ، وتناقلت الأنباء السعيدة التي عايشها الناس هناك في أيامه ، فنال منهم كل تقدير وطاعة لأوامره بلا حدود ، وأصبحت النفوس مهيأة لأن يبادلوه حبًا بحب ، وقناعة فائقة بأنه سوف يدير أمر سياستهم بتفوق عندما يجلس في مكانه الحق على قمة الحكم في بغداد عاصمة ملك المسلمين العريض ، إذ لما بويع درة البيت العباسي - المأمون - بالخلافة وهو في مدينة الري ، وظل بأرض فارس حتى توالت انتصارات قواته في الملحمة المأساوية التي انتهت - كما رأينا سابقًا - بمقتل الخليفة الأخ محمد الأمين ، وذلك على يد بعض الجند الخراسانية ، بعدها حضر الخليفة الجديد إلى بغداد قصبة البلاد في منتصف شهر صفر سنة ١٩٨هـ . فكان أحد ملوك الأرض ، وكان يجب له هذا الاسم على الحقيقة ، فقد وظف مواهبه وسجاياه في إسعاد رعاياه . فإذا أنت قلبت كتب التراث لتخرج تلك المعاني من مكامنها إلى مكانها لوجدت سجلات تتلوها سجلات في أخبار المأمون ، الذي حظيت صفحات التاريخ السياسي والعلمي منها بما ينير للناس سبل المعاش - كمثال رائع للقدرة والإصلاح - في حياتهم الدنيا إن أرادوا أن يتمتعوا بها ، وللقارئ أن يلتقط منها ما يتلاءم مع مرآة ذاته .

فمن خطواته المسددة من أوائل أمره في إمارته ما يحمد له من تقريب أولاد رابع الخلفاء الراشدين المكرم علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - وتوالت مجاملاتهم فاتخذ اللون الأخضر شعار الشيعة وبالتالي ترك اللون الأسود الشعار المعتاد للعباسيين ، وكان دائمًا ينادي بكل حرص ويطلب من الحاضرين بمجالسه

الإقرار بأنه : برئت الذمة ممن ذكر معاوية بخير وأن أفضل الخلق بعد رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب [1]، كما أكرم البيت العلوي برد ما كان قد أخذ من أفراد سلالتهم بما عرف من « مال فدك » التي أعطيت للسيدة فاطمة بعد وفاة النبي ﷺ ، وتوالت العهود واجتهد الكثير من الخلفاء ما بين الإعطاء والمنع . فالصالح منهم يردها إليهم دون تردد كما فعل خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز ، وتبعه في تلك الخطوة الميمونة الخليفة العباسي المأمون حيث ردها كاملة إلى أحفاد فاطمة الزهراء سنة ٢١٠هـ وانتزعها من يد من استحلها لنفسه وكتب بذلك إلى قثم بن جعفر عامله على المدينة . أما بعد : فإن أمير المؤمنين بمكانه من دين الله وخلافة رسوله ﷺ والقرابة به أولى من استن سنته نفذ أمره ، وقد كان رسول الله ﷺ أعطى فاطمة ابنته البتول « فدك » وتصدق بها عليها ، وكان ذلك أمرًا ظاهرًا معروفًا لا اختلاف فيه بين آل الرسول ، فرأى أمير المؤمنين أن يردها إلى ورثتها ويسلمها إليهم تقربًا إلى الله تعالى بحدودها ، وجميع حقوقها المنسوبة إليها وما فيها من الرقيق والغلات ، وغير ذلك وتسليمها إلى محمد بن محيي ابن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين ، ومحمد عبد الله بن الحسن ابن علي بن الحسين . لتولية أمير المؤمنين أباهما القيام بها لأهلها وأعِنْهما على ما فيه عمارتها ومصلحتها ووفور غلاتها إن شاء الله والسلام [2].

وتوالت الخطوات في ميل المأمون إلى الجانب العلوي مما أوجد نوعًا من التحفظات الخفية أو المعلنة داخل قصر الملك ، ولم يعبأ بذلك بل حاول أن يجعل ولي العهد من بعده « عليُّ الرضا بن موسى الكاظم » بعد أن خلع أخاه المؤتمن من العهد المسجل سلفًا فضرب الدراهم التي تحمل اسم ولي العهد الشيعي ، وضمانًا للاحتياط وللارتباط زوج ابنه محمدًا ابنته أم الفضل ، وكتب إلى الآفاق بذلك . فاشتد الأمر على بني العباس وخاطبوه في ذلك ، وتغافلنا هنا عما قالوه ،

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج١٠ ص١٥٥.

(٢) الملتقاني : تنقيح المقال ج٣ ص١٧١.

وأثبتنا ما قاله : إنما ما فعلت لأن عليًا لما ولي الخلافة أسند أمر ولاية البصرة لعبد الله بن عباس وعبيد الله اليمن ومعبد مكة وأخاه قثم البحرين ، وما ترك أحدًا من أبناء العباس حتى ولاه شيئًا ، فكانت هذه منه عطية في أعناقنا حتى كافأته في ولده بما فعلت [١]، وقد اختاره في تقديري ليجعل الأمر شورى بين المسلمين .

وتتوالى نقاط الضوء المسلطة على هذه الأفعال المشهورة عن المأمون تجاه العلويين ـ من ذلك فوق ما تقدم ـ أن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين توفي في أيامه فحضر الصلاة عليه بنفسه ورأى الناس على الخليفة من الكآبة والحزن ما تعجبوا منه . ثم أن ولدًا لزينب بنت سلمان بن علي بن عبد الله بن عباس ، وهي ابنة عم المنصور ، توفي بعد الحسين العلوي فأرسل له المأمون كفنًا وسير أخاه صالحًا ليصلي عليه ويعزي أمه ، التي كانت لها منزلة كبرى عند البيت العباسي فأتى إليها صالح وعزاها نيابة عن أخيه واعتذر عن تخلفه عن الصلاة على ابنها ، فعظم عندها الغضب واتجهت نحو ابن ابنها ، وقالت له : تقدم فَصَلِّ على أبيك وتمثلت بقول شائع مشتهر أيامها :

سَبَكْنَاهُ وَنَحْسَبُهُ لُجَيْنًا ... فَأَبْدَى الكِيْرُ مِنْ خَبَثِ الحَدِيْدِ

ثم قالت لصالح : قل له يا بن مراجل ، أما لو كان الحسين بن زيد لوضعت ذيلك في فيك وعدوت خلف جنازته [٢].

ولم تغر المأمون الخليفة الجرئ في مواقع الحق مظاهر الملك في السطوة الظاهرة التي تأخذ بلب غيره ، إلى عمق الحلم والتواضع والصفح في غاياتهم التي هي صورة من ديدنه الذي عايشه الناس في أيامه كلها .

---

(١) تاريخ اليعقوبي ج٣ ص٧٢.

(٢) البغدادي : تاريخ بغداد ج٦ ص٧٥، ٧٦ ، وقد كان علي الرضا على جانب كبير من العلم والورع ، وقد قيل لأبي نواس : علام تركت مدح علي بن موسى والخصال التي تجمعن فيه؟ فقال : لا يستطيع مدح إمام كان جبريل خادمًا لأبيه والله ما تركت ذلك إلا إعظامًا له ، وليس قدر مثلي أن يقول في مثله ، فاختيار المأمون له كان لما امتاز به من هذه الخصال .

قال يحيى بن أكثم « قاضيه المفضل » : بتُّ ليلةً عند المأمون فانتهيت في جوف الليل وأنا عطشان فتقلبت فقال : يا يحيى ما شأنك ؟ قلت : عطشان ، فوثب من مرقده فجاءني بكوز من ماء فقلت : يا أمير المؤمنين ألا دعوت بخادم ، ألا دعوت بغلام . قال : لا . حدثني عن أبيه عن جده عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ سيد القوم خادمهم ، وفي حديث آخر : « مولى القوم منهم »[1].

وفي موقف آخر والمتكلم القاضي يحيى بن أكثم ـ أيضًا ـ قال : بت عند المأمون ليلة فاستيقظ من نومه وأراد أن يشرب ، فظنني نائمًا فلم يدعُ الغلام لئلا أنتبه ، وقام بهدوء وسكون حتى انتهى إلى « البراده » فشرب وعاد إلى مضجعه وهو يخفي مشيه ، ثم أخذه سعال فرأيته يضع كمه على فمه لئلا أسمع صوته ، ولما طلع الفجر أراد القيام وقد تناومت . فصبر إلى أن كادت تقترب الصلاة فتحركت فقال : الله أكبر ، ونادى الغلام لينبهني . فقلت : يا أمير المؤمنين رأيت بعيني جميع ما كان الليلة من جميل صنعك ، فعلمت ما فضلك الله به علينا وجعلك على المسلمين خليفة[2].

وقال قائده المقرب عبد الله بن ظاهر : كنت عند المأمون يومًا فنادى الخادم قائلاً : يا غلام فدخل عليه غلام تركي وهو يقول : أما ينبغي للغلام أن يأكل ويشرب ؟ كلما خرجنا من عندك تصيح يا غلام يا غلام ، إلى كم يا غلام يا غلام ؟ فنكس الخليفة رأسه طويلاً فما شككت في أن يأمرني بضرب عنقه . ثم قال : يا عبد الله : إن الرجل إذا حسنت أخلاقه ساءت أخلاق خادمه ، وإن ساءت أخلاقه حسنت أخلاق خادمه ، ولا نستطيع أن نسيء أخلاقنا لتحسن أخلاق خادمنا . قلت في نفسي صدق والله أمير المؤمنين في أحدوثته تلك[3].

---

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص٣٣٢.

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج٤ ص٢٧٥.

(٣) الجاحظ : التاج في أخلاق الملوك ص٨٧.

ولمن يطلب المزيد فليقلب بين أسطر كتب التراث التي جمعت بين طواياها كل معالم السجايا التي جعلت المأمون على القمة في تحبير الآداب المستخلصة والمعاني المستنبطة من غرر الكلام وأحسنه ، قال العباس بن الحسين للمأمون : يا أمير المؤمنين إن لساني ينطق بمدحك غائبًا ، وقد أحببت أن يستزيد عندك حاضرًا ، أفتأذن لي يا أمير المؤمنين بالكلام ؟ فقال له : قل فوالله إنك لتقول فتحسن وتحضر فتزين وتغيب فتؤتمن ، فقال : ما بعد هذا الكلام يا أمير المؤمنين . أفتأذن لي بالسكوت ؟ قال : إذا شئت ، وقال رجل من رجالاته وأحد المقربين من مجالسه [1]، لو لم أشكر الله إلا حسن ما أبلاني في أمير المؤمنين من قصده إلى بحديثه ، وإشارته إلى بطرفه ، كان ذلك من أعظم ما توجبه النعمة وتفرضه الصنيعة . قال المأمون : ذلك والله لأن الأمير يجد عندك من حسن الإفهام إذا حدثت وحسن الفهم إذا حدثت ما لا يجده عند غيرك [2].

ووقف رجل بين يديه بعد أن جني جناية فقال له المأمون : والله لأقتلنك فقال : يا أمير المؤمنين أرفق بي فإن الرفق نصف العفو قال : وكيف وقد حلفت لأقتلنك ؟ قال : لأن تلقي الله حانثًا خير من أن تلقاه قاتلاً ، فخلى سبيله ، وهو القائل : غلبه الحجة أحبُّ إليّ من غلبة القدرة ، لأن غلبة القدرة تزول بزوالها وغلبة الحجة لا يزيلها شيء ، وأظلم الناس لنفسه من يتقرب إلى من يبعده ويتواضع لمن لا يكرمه ، ويقبل مدح من لا يعرفه [3].

وأخرج بن عساكر قول القائل ، قال المأمون : من علامة الشريف أن لا يظلم من فوقه ويظلمه من هو دونه ، ووالله لوددت أن أهل الجرائم عرفوا رأيي في العفو . ليذهب عنهم الخوف ويخلص السرور إلى نفوسهم .

---

(١) سعيد بن مسلم بن قتيبة .

(٢) الجاحظ : المرجع السابق ص٨٧.

(٣) ابن الأثير : الكامل ج٦ ص٢٠٠.

ومن ارفع منازل العفو ما نقل من أن الشاعر العباسي الأشهر دعبل الخزاعي قد تناول المأمون بهجاء مقذع ، وغالي في استخداماته لعبارات القدح التي لو قيلت في غيره لغلى الدم في العروق وباشره بأقسى العقوبات ، وتلك غاية عادية لمن كان في مقام المأمون ، وذلك جزاء من يتطاول بعلانية الكلام ، قال دعبل :

إِنِي مِنَ القَوْمِ الذِينَ سيُوفُهُمْ ... قَتَلَتْ أَخَاكَ وَشَرَّفَتْكَ بِمَقْعَدِ

شَادُوا بِذِكْرِكَ بَعْدَ طُولِ خُمولِهِ ... واسْتَنْقَذُوكَ مِنَ الحَضِيضِ الأَوْهَدِ

فلما سمعها المأمون لم يزد على أن قال : ما أقل حياء دعبل ، متى كنت خاملاً ، وقد نشأت في حجر الخلفاء ؟ ولم يعاقبه [١].

وأخرج الصولي عن الحسين الضحاك قال : لما غضب عليَّ المأمون ومنعني رزقًا لي ؛ عملت له قصيدة أمتدحه بها ودفعتها إلى من أوصلها إليه وأولها :

أَجْزِنِي فَإِنِي قَدْ ظَمِئْتُ إِلى الوَعْدِ ... مَتَى تُنْجِزُ الوَعْدَ المُؤَكَّد بِالعَهْدِ

أُعِيذُكَ مِنْ خَلْفِ المُلُوكِ وقَدْ تَرَى ... تُقَطِّعُ أَنْفَاسِي عَلَيْكَ مِنَ الوَجْدِ

رَأَى اللهُ عَبْدَ اللهِ خَيْرَ عِبَادِهِ ... فَمُلّكَهُ واللهُ أَعْلَمُ بِالعَبْدِ

قال المأمون : قد أحسن إلا أنه القائل :

أَعَيْنَايَ جُودَا وَابْكِيَا لِي محمدًا ... وَلا تَذْخُرا دَمْعًا عَلَيْهِ وَاسْعِدَا

فَلا تَمَّت الأَشْيَاءُ بَعْدَ محمَّدٍ ... وَلا زَالَ شَمْلُ المُلْكِ فِيهِ مُبَدَّدَا

وَلا فَرِحَ المَأْمُونُ بِالمُلْكِ بَعْدَهُ ... وَلاَ زَالَ فِي الدُّنْيَا طَرِيدًا مُشَرَّدَا

فهذا بذاك ولا شيء له عندنا ، فقال له الحاجب : فأين عادة أمير المؤمنين في العفو ؟ ، فقال : أما هذا فنعم ، فأمر له بجائزة ورد عليه رزقه [٢].

وعن حفص المدائني قال : أتى المأمون بأسود قد ادعى النبوة ، وقال : أنا موسى بن عمران ، فقال له المأمون : إن موسى بن عمران أخرج يده من جيبه

---

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص٣٢٥.

(٢) السيوطي : مرجع سابق ص٣٢٣.

بيضاء ، فأخرج يدك بيضاء حتى أومن بك . فقال الأسود : إنما جعل ذلك لموسى لما قال له فرعون : أنا ربكم الأعلى ، فقل أنت كما قال فرعون حتى أخرج يدي بيضاء وإلا لم تبيض [١] . ثم أخذ من مجلسه بعد أن استتيب فعفا عنه المأمون الذي قال في غير هذا الموضع : ما انفتق على فتق إلا وجدت سببه جور العمال [٢] .

ومن كلام المأمون الذي يتناوله أرباب الخبرة بنفسيات الخلق وسلوكيات المتدبرين قوله : « لا نزهة ألذ من النظر في عقول الرجال » ، وقال : « أعيت الحيلة في الأمر ، إذا أقبل أن يدبر وإذا أدبر أن يقبل » ، وقال : « أحسن المجالس ما ينظر فيه إلى الناس ؛ لأن الناس ثلاثة فمنهم مثل الغذاء لابد منه على كل حال ، ومنهم كالدواء يحتاج إليه في حالة المرض ، ومنهم كالداء مكروه على كل حال » ، وقال : ما أعياني جواب أحد مثل ما أعياني جواب رجل من أهل الكوفة ، قدم عن أهلها فشكا عاملهم فقلت : كذبت ، بل هو رجل عادل ، فقال : صدق أمير المؤمنين وكذبت أنا ، قد خصصتنا به دون باقي البلاد خذه فاستعمله على بلد آخر يشملهم من عدله وإنصافه مثل الذي شملنا ، فقلت : في خير حفظ الله عزلته عنكم [٣] .

ومن بديهيات ما عرف عن المأمون قول الصولي عنه : كان المأمون من أفاضل الخلفاء وعلمائهم وحكامهم ، وإنه كان دَيِّنا عارفًا بالعلم ، فيه دهاء وسياسة ، وإنه كان فطنًا ذكيًا كاملاً جوادًا عظيم العفو ، ميمون النقية ، حسن

---

(١) ويشبه هذا ما حدث في أيام الرشيد حيث اتفق أن تنبأ رجل وادعى النبوة والرسالة ، فأحضر بين يدي الرشيد فزجره وجعل يعنفه ويتوعده وأبناء الرشيد مصطفون بين يديه وفي جملتهم العباس ، فأبى المتنبي إلا التمادي في ضلاله وغيه ، فأمر الرشيد بجلده ، ولما مس السوط جلده جعل يضطرب ويرتعد ويقوم ويقعد فقال له العباس ـ وهو ابن عشر سنوات ـ إن كنت رسولاً حقًا « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل » ، فلما سمع الرشيد كلام العباس فرح فرحًا شديدًا واستبشر استبشارًا زائدًا ، وقال : ابني والله ابني والله « فقربه وأدناه .

(٢) السيوطي : المرجع السابق ص٣٣٢.

(٣) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٦ ص١١٧.

التدبير ، جليل الصنائع ، لا تخدعه الأماني ، علمه بما يفد عليه كعلمه بما حضر متصفًا بالعدل والعفة والعفو والحلم [١].

وكان ميالاً للعفو يكره الانتقام ، كان الفضل بن الربيع هو الذي حرض الأمين على خلعه من ولاية العهد – كما رأينا سابقًا – فلما انتصر المأمون وتولى الخلافة سعى الفضل إليه يطلب العفو ، فعفا عنه ولم يطارده بأي لون من الإيذاء [٢].

ومن بالغ تواضعه ورأفته بالرعية التي بادلته حبًا بحب ، ما تنقله المرويات بالأحرف الكبرى في رقش الكلام المروي بالمعاني الراقية ، منها ما قاله يحيى ابن أكثم : ماشَيْتُ المأمون يومًا في بستان ، فكنت من الجانب الذي يستره من الشمس ، فلما انتهى إلى آخره وأراد الرجوع أردت أن أدور إلى الجانب الذي يستره منها ، فقال : لا تفعل وكن بحالك حتى أسترك كما سترتني [٣].

ومنها في إطار الفحوى واتفاق الموقع ما نقل عن محمد ابن يزيد الأعرابي قال : بعث إلى المأمون فصرت إليه وهو في بستان يمشي مع يحيى بن أكثم (قاضيه) فرأيتهما موليين فجلست ، فلما أقبلا قمت فسلمت عليه بالخلافة فسمعته يقول ليحيى : يا أبا محمد ما أحسن أدبه رآنا موليين فجلس ثم رآنا مقبلين فقام ، ثم رد عليَّ السلام ثم قال : أخبرني عن قول هند بنت عتبة :

نَحْنُ بَنَاتِ طَارِقْ نَمْشِي عَلَى ... النَّمَارِقْ مَشْيَ القِطَا الهَمَارِقْ
إِنْ تَقْدَمُوا نُعَانِقْ ... أَوْ تُدْبِرُوا نُفَارِقْ

من طارق هذا؟ فنظرت في نسبها فلم أجده ، فقلت يا أمير المؤمنين : ما أعرفه في نسبها ، فقال : إنما أرادت النجم وانتسبت إليه لحسنها من قول الله تعالى : ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴾ . فقلت : ما أبوه يا أمير المؤمنين ؟ فقال : أنا بؤبؤ هذا الأمر وابن بؤبؤه ثم رمي لي بعنبرة كان يقلبها في يده ، فبعتها بخمسة آلاف درهم [٤].

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج٤ ص١٠٧.

(٢) ابن قتيبه : المعارف ص٢١٧.

(٣) البيهقي : المحاسن والمساوئ ص٥٩٥.

(٤) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص٢١٩.

وقد كان المأمون يشجع شباب وصبيان دولته بشتى ألوان التحفيز ، ويستحثهم على الجرأة في الحق وبيان ما تخبئه طوايا نفوسهم من كنوز البيان ورقيق المقتبسات ، من ذلك ما نقل من أنه مر بغلام فقال : يا غلام أين العمران ؟ فقال : اصعد الرابية تشرف عليهم ، فصعد فاشرف على مقبرة . فقال : إن الغلام لجاهل أو حكيم ، فرجع فقال للغلام الذي لم يكن يعرفه : سألتك عن العمران فدللتني على مقبرة ، فقال : إني رأيت أهل الدنيا ينتقلون إلى تلك ، ولم أر أحد انتقل منها إلى هذه ، وإن النقل من الخراب إلى العمران ، ولو سألتني عما يورايك ودابتك لدللتك عليه ، فسر المأمون من إجابته وأجازه[1].

وكم رفع البيان من فقير فرفعهم إلى مصاف الكبراء ، إذ رب كلمة صادفت مكانها ورأي سديد وافق هوى في فؤاد المتلقي ، فأعلى من شأن صاحبه ، فنال الحظوة ، كما مدت الأماني أمام الحسن بن رجاء إذ دخل المأمون يومًا بيت الديوان فرأى غلامًا صغيرًا على أذنه قلمٌ ، فقال : من أنت يا غلام ؟ فقال : الناشئ في دولتك المتقلب في نعمتك المؤهل لخدمتك خادمك وابن خادمك الحسن بن رجاء ، فسُرَّ المأمون ، وقال : بالإحسان في البديهة تفاضلت العقول ، ارفعوا هذا الغلام فوق مرتبته ، فصار يرقى في مراتب الديوان حتى تقلد الوزارة[2].

ومما حُكي من منظور الفطرة أن المأمون نظر إلى بعض ولده ـ العباس ـ وهو يقرأ في كتاب فقال : يا بني ما كتابك هذا ؟ فقال بعض ما يشحذ الفطنة ويؤنس من الوحشة ، فقال : الحمد لله الذي رزقني فتى يرى بعين عقله أكثر مما يرى بعين وجهه ، وهو القائل لشاب مغمور سمح له بالتكلم بين يديه بناءً على رغبته فأحسن فقال : أما بعد .. فإن الله إذا وهب للإنسان لسانًا لافظًا وقلبًا حافظًا وبيانًا ساحرًا ، ونفسًا مطمئنة ، فقد آتاه الحكمة والسعادة ﴿ يُؤْتِى

---

(١) البيهقي : المرجع السابق ص٥٩٨.

(٢) البيهقي : المرجع السابق ص٥٩٨.

ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ . فقال له المأمون : ابن من أنت ؟ قال الشاب : ابن الأدب يا أمير المؤمنين ، فقال المأمون : نعم النسب يا بني ، وأنشد قول الإمام علي رضي الله عنه :

كُنْ إِبْنَ مَنْ شِئْتَ واكْتَسِبْ أَدَبًا   يُغْنِيكَ مَحْمُودُهُ عَنْ النَّسَبِ
إِنَّ الفَتَى مَنْ يَقُولُ هَا أَنَذَا   لَيْسَ الفَتَى مَنْ يَقُولُ كَانَ أَبِي [(١)]

وقد حظي فتى يافع من عطف أمير المؤمنين لما استمع إلى بالغ حجته في مواجهة مظلمته ، فكان خيرًا على أهله من كهل عَلّمته الدهور ، إذ دخل محمد بن عبد الملك ابن صالح على المأمون حين قبضت ضياعهم وهو غلام صغير فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين (محمد بن عبد الملك) سليل نعمتك وابن دولتك وغصن من أغصان دوحتك ، أفتأذن لي بالكلام ؟ قال : نعم . فحمد الله وشكره ثم قال : أمتعنا الله بحياطة ديننا ودنيانا ، ورعاية أقصانا وأدنانا ببقائك يا أمير المؤمنين ، ونسأله أن يزيد في عمرك من أعمارنا ، وفي أثرك من آثارنا ، ويقيك شر الأذى بأسماعنا وأبصارنا . هذا مقام العائذ بظلك الهارب إلى كنفك وفضلك ، الفقير إلى رحمتك وعدلك ، فسُرَّ المأمون من بديع غرر الكلام وتصَوّر ما خفي من المعاني فأمر برَدِ كل ما أخذ من ضياعهم سالفًا [(٢)].

ومن أعلى الصفحات التي تمتلئ بالبسمات ما أخرجه عن أبي أمامة قال : حدثني بعض أصحابنا أن أحمد بن أبي خالد ـ القاضي ـ قرأ القصص ـ رقاع الرعايا ـ يومًا على المأمون فقال : فلان الثريدي ـ اليزيدي ـ فضحك المأمون ، وقال : يا غلام هات طعامًا فإنه أصبح جائعًا ، فاستحيا وقال : ما أنا بجائع ولكن صاحب القصة أحمق نقط الياء بنقط فالتبس عليَّ ذلك ، فجاءه بطعام فأكل حتى انتهى ، وكان المأمون قد عرف شَرَهَ ابن أبي خالد فكان إذا وجهه في حاجةٍ غدّاه

---

(١) الجاحظ : التاج ص١٢٣.

(٢) ابن الأثير : الكامل ج٦ ص٢٠٠.

قبل أن يرسله ، ورفع إليه في قصة ـ مظلمة ـ من القصص ما مضمونه : إن رأى الأمير أن يجري على ابن أبي خالد نزلا فإنه يعين الظالم بأكله ، فأجرى عليه المأمون ألف درهم كل يوم لمائدته ، وقد قال الشاعر دعبل عن هذا القاضي الشره الأكول :

شَـــكَرْنَا الخَلِيْفَـــةَ إِجْـــرَاءَهُ عَـــلَى اِبْـــنِ أَبِي خَالِـــدٍ نَزْلَـــهُ

فَكَـــفَّ آذاه عَـــنْ المُسْـــلِمِيْنَ وَصَـــيَّرَ فِي بَيْتِـــهِ شُـــغْلَهُ

فيعلق ابن عباد على هذه المواقف المتابعة بقوله : ما أظن الله خلق نفسًا هي أنبل من نفس المأمون ولا أكرم [1] .

وقال رجل ـ هدية بن خالد ـ حضرت غداء المأمون فلما رُفعتْ المائدة جعلت التقط ما في الأرض ، فنظر المأمون فقال : أما شبعت ؟ قلت : بلى ، ولكني حدثني فلان عن أنس قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **من أكل ما تحت مائدة أمن من الفقر** » . فأمر لي بألف دينار ، وقال المأمون في موضع آخر : إنما تطلب الدنيا لتملك فإذا ملكت فلتوهب ، إنما يتكثر بالذهب والفضة من يقلان عنده [2] .

وكان المأمون واسع الصدر حليمًا مع مخالفيه في الرأي حتى يتصف للقضية التي يتبناها بالحق والعدل ، فمن مناقشاته السديدة مع بعض الخوارج قوله لرجل عصبي المزاج منهم : ما حملك على خلافنا ؟ قال : آية في كتاب الله . قال : ما هي ؟ قال : قوله تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ . قال : ألك علم بأنها منزلة ؟ قال : نعم ، قال : وما دليلك : قال : إجماع الأمة ، قال : فكما رضيت بإجماعهم في التنزيل فارض بإجماعهم في التأويل . قال : صدقت . السلام عليك يا أمير المؤمنين وانصرف مقتنعًا [3] .

وقال ثمامة بن أشرس أحد كبار المتكلمين من المعتزلة في حضور المأمون :

---

(١) الجاحظ : التاج ص١٢٢.

(٢) البيهقي : مرجع سابق ص٥٩٧.

(٣) الطبري : تاريخ الأمم ج١٠ ص٣١٣.

دخلت على صديق لي أعوده ، وتركت حماري على الباب ولم يكن معي غلام ثم خرجت فإذا بصبي عليه فقلت له : أتركب حماري بغير إذني ، قال : خفت أن يذهب فحفظته لك ، قلت : لو ذهب ما باليت بذهابه . قال : فإذا كان هذا رأيك في الحمار فاعمل على أنه قد ذهب وهبه لي واربح شكري .

يقول ثمامه : لم أدر ما أقول إزاء فصاحته ونباهته ؟ فقال المأمون مبتسمًا : عجل له الجائزة واسترح من حمارك [1].

وما زال في الجعبة من سمت أخلاق المأمون في الورع والتقى والإحسان ما يجل عن الوصف ، دخل محمد بن عباد على ذلك الخليفة الذي جعل يلبسه العمامة بيده ، وجاريته على رأسه تبتسم ، قال لها المأمون : ممن تضحكين ؟ قال ابن عباد : أنا أخبرك يا أمير المؤمنين ، هي تتعجب من قبحي وإكرامك لي ، فقال لها المأمون : لا تتعجبي فإن تحت هذه العمامة كرمًا ومجدًا ، وأنشد :

وَهَلْ يَنْفَعُ الفِتْيَانَ حَسْنُ وُجُوهِهِمْ إِذَا كَانَتْ الأَعْرَاضُ غَيْرُ حِسَانِ

فَلاَ تَجْعَلِ الحُسْنَ الدَّلِيلَ عَلَى الفَتَى فَمَا كُلُّ مَصْقُولِ الحَدِيدِ يَمَانِي [2]

وعندما أهدى ملك الروم إلى هذا الخليفة العباسي هدية فيها مائتا رطل مسك ، ومائتا جلد سمور . فقال : اضعفوها له ليعلم عز الإسلام [3].

إن الخليفة المأمون كان من شيمه الواضحة العدل ، والعفو فلا يفرق في ذلك بين كبير أو صغير ، ولا بين عظيم أو متواضع المستوى المادي مشتهر بأداء مهامه الخطيرة ، أو رجل من عامة الناس ، كما كان لا يحابي قريبًا من ذوي رحمه لقرابته ، وذلك ليحث الولاة والحكام على أن يقتدوا به في إشاعة روح العدل بين رعاياهم في أقاليمهم ، فالعدل أساس الملك ، والناس على دين ملوكهم ، من ذلك ما يؤخذ كمثال على المساواة في منسوب المعاملات بترجيح جانب الاطمئنان في كل النفوس فها هو المأمون ، وهو الخليفة ـ قمة حكام المسلمين آنذاك ـ قد اختُصم في قضية مع

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج٤ ص٣٧٦.

(٢) البيهقي : المحاسن والمساوئ ص٥٩٧.

(٣) السيوطي : مرجع سابق ص٣٢٢.

رجل شامي وحضر إلى مجلس قاضيه يحيى بن أكثم ، فدخل وخلفه خادم يحمل سجادة ليجلس عليها المأمون ، فرفض قاض بغداد أن يميز الخليفة أمامه بجلسة خاصة لا يجلس مثلها هذا الخصم المغمور ، فتنبه المأمون عندما خاطبه القاضي يحيى بقوله : يا أمير المؤمنين لا تأخذ على صاحبك شرف المجلس دونه ، فأسرع المأمون وأمر للرجل بطنفسه أخرى [1] ، ورضخ هذا الخليفة في ساحة العدل لمطالب قاضيه في المساواة دون ما غضب أو إحداث مشاكل .

كان المأمون درة البيت العباسي أشهر الخلفاء منهم حزمًا وجودًا مفوهًا [2] أمارًا بالعدل لا يهدأ له خاطر حتى تستكين النفوس الضعيفة فهو في ذلك ميمون النقية ، فمما اشتهر في تلك الخصيصة النادرة ما نقلته كتب التراث في أوضح الصفحات ، وذلك حينما كان يجلس بنفسه متصدرًا مجلس المظالم إلى جوار قاضيه يحيى بن أكثم ، فكان آخر من تقدم إليه ـ وقد هم أن ينصرف ـ امرأة عليها ثياب رثة فوقفت بين يديه ، وقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، فنظر الخليفة إلى قاضيه ، فقال لها ابن أكثم : تظلمي يا أمة الله في حاجتك ، فقالت :

يا خَيْرَ مُنْتَصِفٍ يُهْدَي لَهُ الرَّشَدُ ... وَيَا إِمَامًا بِهِ قَدْ أَشْرَقَ البَلَدُ

تَشْكُو إِلَيْكَ عَمِيْدَ القَوْمِ أَرْمَلَةٌ ... عَدَا عَلَيْهَا فَلَمْ يَتْرُكْ لَهَا سَنَدُ

وَابْتَزَّ مِنِّي ضِيَاعِيَّ بَعْدَ مِنَعَتِهَا ... ظُلْمًا وَفُرِّقَ عَنِّي الأَهْلُ وَالوَلَدُ

فأطرق المأمون حينًا ثم رفع رأسه إليها وهو يقول :

فِي دُونِ مَا قُلْتِ زَالَ الصَّبْرُ وَالجَلَدُ ... عَنِّي وَأُخْرِجَ مِنِّي القَلْبُ وَالكَبِدُ

وَإِنْ هَذَا أَوانُ العَصْرِ فَانْصَرِفي ... وَاحْضِرِي الخَصْمَ فِي اليَومِ الذي أَعُدُ

وَالمَجلِسُ السَّبْتُ إِنْ يُقْضَ الجُلُوسَ ... لنَا نُنْصِفْكِ مِنْهُ وإِلاَّ المَجلِسُ الأَحَدُ

ولما توالت أيام الإمهال من الأربعاء إلى الأحد كما طلب الخليفة ليستطيع أن يسمع شكواها بوقتٍ كافٍ وليعرف المشكو في حقه ، فلما كان يوم الأحد ، وهو

(١) ابن قتيبة : المعارف ص٢١٩.

(٢) قال ثمامة بن أشرس : ما رأيت رجلاً أبلغ من جعفر بن يحيى البرمكي ، والمأمون .

ما يعقد فيه مجلسه ، جلس المأمون على العادة فكان أول من تقدم إليه تلك المرأة ، فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ، فقال : وعليك السلام ، أين الخصم ؟ فقالت : الواقف على رأسك يا أمير المؤمنين وأومأت إلى العباس ابنه ، فقال : يا أحمد بن خالد خذ بيده وأجلسه معها مجلس الخصوم فجعل كلامها يعلو كلام العباس فقال لها ابن أبي خالد : يا أمة الله إنك بين يدي أمير المؤمنين ، وإنك تكلمين الأمير فاخفضي من صوتك ، فقال المأمون : دعها يا أحمد فإن الحق أنطقها وأخرسه ، ثم قضى لها برد ضيعتها إليها ، وأمر بكتاب يرسل معها إلى العامل ببلدها أن يوفر لها ضيعتها المغتصبة ، وأن يرفع عنها خراج العام ، ويحسن معاونتها ، كما أمر لها الخليفة بنفقة تدفع لها [1].

وعندما كان المأمون يتفقد أحوال الناس بالشام في الممالك التي يحكمها ، ثم أتى مصر فأضافته عجوز بجيوشه ثلاثة أيام ، وأهدته أربعة آلاف دينار من ضرب سنة واحدة ، وقالت له : إن الرخاء الذي نحن فيه هو بفضل الله وعدل أمير المؤمنين [2]، فهش لكلامها واطمأن على حال بلغها بمدارج سياسته السديدة ، وقد كان المأمون أكثر الناس عفوًا وأشدهم احتمالاً ، وأحسنهم مقدرة وأجدرهم بالمال الرغيب ، وأبذلهم للعطايا ، فاق في ذلك الرشيد ذاته ، فعن كتب التراث تريك النماذج المصورة بمعاني الجود بما كان له من حوادث غريبة في السخاء وبسط اليد كأنه لا يعمل للزمن حسابًا ، إذ لم يفرق ملك ولا سلطان في يوم واحد مثل ما فرق المأمون يوم ولي ابنه العباس على الجزيرة ، إذ أمر لكل من المعتصم والعباس ابن الحسين العلوي بخمسمائة ألف دينار لكل واحد منهما ، وأقر بمثل ذلك لعبد الله بن طاهر [3].

وفي سنة مائتين من الهجرة أحصى المأمون أولاد العباس فبلغوا ثلاثًا وثلاثين ألفًا ما بين ذكر وأنثى فوصلهم جميعًا بعطايا جزيلة فائقة ، وفعل مثل ذلك في أولاد علي بن أبي طالب فجمعهم في رباط المودة بإيثارهم بالمال الوفير الذي أغنى الكثير منهم عن الحاجة فحمدوا له حظواته [4].

---

(١) ابن قتيبه : المرجع السابق ص٢١٧، وابن عبد ربه : العقد الفريد ج٤ ص٤١٠.
(٢) البيهقي : المحاسن والمساوئ ص٥٩٨.
(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٧ ص١٨٥.
(٤) أبو المحاسن : المرجع السابق ج٧ ص١٨٧.

إن جود المأمون وسخاءه العميم يرجع إلى عناصر مختلفة في نفسه ، فمنها ما يرجع إلى ما في فطرته من أريحيَّة واعتزاز بوشيجه المعروف ، وشمول الرخاء ، ومنها ما يرجع إليه كعقلية سياسية تسابق عصرها في إلمام الناس بقسط من الحب والإخلاص والطاعة لأوامره ، فملأ أياديهم وأغرقهم بالمنح فاستقامت على الطريقة جوانحهم ، وانفتحت كل مغاليق القلوب التي تحولت إلى الصفاء والتسامح وطردت من ساحتها كل أساليب الشحناء والبغضاء ، ولم يتجمهروا مع دعاة الفرقة في ميادين الفتنة إلا لمامًا ، وقد أنشد شاعر مغمور المأمون ببعض الأبيات التي جمعت بين الأطروفة والسخرية في حشد من المجالس المتطرفة من الحاضرة بغداد ، وكان الخليفة حاضرًا دون أن يدرك الشاعر ذلك حيث دخل المأمون خلسة قال الرجل :

مَأْمُونُ يَا ذَا المِنَنِ الشَّرِيفَه	وصَاحِبِ المَرْتَبَةِ المنيفَه
وَقَائِدَ الكَتِيْبَةِ الكَثِيفَه	هَلْ لَكَ في أَرْجُوزَةٍ طَرِيْفَه؟
أَظْرَفُ مِنْ فِقْهِ أَبي حَنِيْفَه	لاَ والَّذِي أَنْتَ لَهُ خَلِيْفَه
مَا ظُلِمَتْ في أَرْضِنَا ضَعِيْفَه	أميرُنَا مُؤْنَتُهُ خَفِيْفَه
ومَا اجْتَبَى شَيْئًا سِوَى الوصِيْفَه	فَالذِّئْبُ وَالنَّعْجَةُ في السَّقِيفَه

والِلّصُ والتَاجِرُ في القَطِيْفَه

وما كاد ينهي الشطر الأخير من أرجوزته تلك حتى وجد زهاء عشرة آلاف فارس قد سدوا الأفق يقولون السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، فأخذته رعدة شديدة فتقدم منه المأمون على تلك الحال ، ونظر إليه فقال : لا بأس عليك أي أخي ، فقال الشاعر : يا أمير المؤمنين جعلني الله فداءك أتعرف لغات العرب ؟ قال : أي لعمر الله ، قال : فمن جعل الكاف منه مكان القاف ؟ قال : هذه حِمْيَر ، فقال الشاعر : لعنها الله ولعن من استعمل هذه اللغة بعد اليوم ، فضحك المأمون ، وعلم ما أراد الرجل فالتفت إلى خادم إلى جانبه فقال : أعطه ما معك ، فأخرج له كيسًا فيه ثلاثة آلاف دينار ذهبي ، فأخذها الشاعر

مشدوهًا فرحًا غير مصدق فانصرف من المجلس حيث قال السلام عليك يا أمير العطاء ، ومضى فكان آخر العهد به [١].

وقد كان محمد بن حامد ـ من خاصته ـ على رأس المأمون في مجلسه على العادة فاندفعت « عريب » فغنت بشعر النابغة الجعدي « كحاشية البر اليماني المسهم » ، فأنكر المأمون أن لا تكون ابتدأت بشيء ، فأمسك القوم . فقال : نُفيتُ من الرشيد لئن لم أصدق عن هذا ، لأقررن بالضرب الوجيع عليه ثم لأعاقبن عليه أشد العقوبة ، ولئن صدقت لأبلغن الصادق أمله ، فقال محمد بن حامد : أنا يا سيدي أومأت إليها بقبلة ، فقال : الآن جاء الحق ، صدقت أتحب أن أزوجك بها ، قال : نعم ، فقال المأمون : الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطيبين ، لقد زوجت محمد بن محمد بن حامد من عريب مولاتي ومهَّرتُهَا عنه أربعمائة درهم على بركة الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ، خذ بيدها ، فقامت معه فصار أخوه المعتصم إلى الدهليز فقال لابن حامد : ابن الدلالة ، قال : لك ذاك ، قال : دلالتي أن تغنيني الليلة ، فلم تزل تغنيه إلى السحر وابن حامد على الباب ، ثم خرجت فأخذت بيده ومضت معه [٢].

فإذا كان المأمون كما هو مشهور عنه – ماهرًا في جميع الفنون ، كاشفًا عن كل سر مكنون – فإن قاضي بغداد أعجب بهذا الإلمام الشامل فأنشأ يقول بحيث يسمعه الخليفة : يا أمير المؤمنين جعلني الله فداك ، إن خضنا في الطب فأنت (جالينوس) في معرفته ، أو في النجوم فأنت (هرمس) في حسابه ، أو في الفقه فأنت (علي بن أبي طالب عليه السلام) في علمه ، وإن ذكر السخاء كنت (حاتمًا) في جوده ، أو الصدق فأنت (أبو زيد) في لهجته ، أو الكرم فأنت (كعب) في إيثاره على نفسه ، أو الوفاء فأنت (السموءل بن عاديًا) في وفائه ، فاستحسن المأمون قوله وتهلل وجهه وأمر ابن حامد أن يبادره بكيس مملوء بالذهب الأبريز والجوهر النفيس [٣].

---

(١) الطبري : تاريخ الأمم ج٥ ص٢١٢.
(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص٣٢٥.
(٣) الجاحظ : التاج في أخلاق الملوك ص١٢٥، ١٢٦.

وما زال في الجعبة من سمت أخلاق المأمون من الورع والتقى والإحسان والعفو عن الزلات والأغضاء وقت الغفوات عَمَّن أساء ما يجل عن الوصف ، فكان رحمه الله يحلم حتى يغيظ رجاله والمقربين منه ، من ذلك ما نقل من أنه جلس مرة على نهر دجلة من تحت عريش وستر نصب له ، فمر ملاح وهو يقول : أتظنون أن هذا المأمون ينبل في عيني وقد قتل أخاه ؟ قال الراوي : فوالله ما زاد على أن تبسم ، وقال لنا : ما الحيلة عندكم حتى أنبل في عين هذا الرجل [(١)].

وفي هذا السبيل ما نقل أيضًا عن صفحهِ لما خرج عليه عمه إبراهيم بن المهدي الذي نادى بنفسه خليفة في بغداد ، والمأمون في ذلك الوقت كان بمرو ، فعندما أقبل فر إبراهيم وانضم إلى مجموعات من الخارجين على النظام ، فحلم عليه المأمون عسى أن يرجع إلى رواق الطاعة والدخول مع المبايعين له ، ولما لم يقلع عن عصيانه ذهب إليه بجيش وحاصره في منطقة البصرة الذي كان يتحصن بها ، فاقتحمها فهرب إبراهيم ، ولما ضاقت عليه الأرض تنكر وقدم إلى المأمون ودخل عليه واعتذر معترفًا بمقترفات الذنوب ، وطلب الصفح فعفا عنه ، ورد إليه أمواله وضياعه وجعل بالقرب منه من يراقبه [(٢)].

وقد كتبت إليه السيدة زبيدة [(٣)] أم أخيه محمد الأمين رسالة بعد مقتله تستعطفه من خلال مضمونها قالت : كل ذنب ـ وإن عظم ـ صغير في جنب عفوك ، وكل زلل ـ وإن جل ـ حقير عند صفحك ، هذه رقعة الوالهة التي ترجوك في الحياة لنوائب الدهر ، وفي الممات لجميل الذكر ، فإن رأيت أن ترحم ضعفي

---

(١) السيوطي : مرجع سابق ص٣٢٠.

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ج١٠ ص٢٦١.

(٣) سماها جدها أبو جعفر بزبيدة لغضاضة بدنها ، وكانت جذلة وميالة إلى عمل الخير ، فبنت مسجدًا على ضفة دجلة بمقربة من قصر الخلافة سمي بمسجد زبيدة ، ولها مسجد آخر بقطيعة أم جعفر بين باب خراسان ودار الرقيق ، وحفرت بالحجاز العين المعروفة بعين المشاش ، ومهدت الطريق لمائها في كل خفض ورفع وسهل ووعر ، وبلغ ما أنفقته عليها ألف ألف دينار ، وكانت أحسن الناس في أيام زوجها الرشيد ، فكان لها في السياسة وفي التداخل في أمور الدولة كأفطن من يكون من الرجال .

واستكانتي وقلة حيلتي ، وأن تصل رحمي وتحتسب فيما جعلك الله له طالبًا ، وفيه راغبًا ، فافعل وتذكر من لو كان حيًا لكان شفيعي إليك .

فكتب إليها المأمون بالرد السريع الآتي والدال على اهتمامه وخلوص احترامه قال : وصلت رقعتك يا أماه أحاطك الله وتولاك بالرعاية ووقفت عليها وساءني – شهد الله – جميع ما أوضحت فيها ، لكن الأقدار نافذة والأحكام جارية والأمور متصرفة والمخلقون في قبضتها لا يقدرون على دفعها ، والدنيا كلها إلى شتات ، وكل حي إلى ممات ، والغدر والبغي حتف الإنسان ، والمكر راجع إلى صاحبه ، وقد أمرت برد جميع ما أخذ لك ولم تفقدي ممن مضى إلى رحمة الله إلا وجهه ، وأنا بعد ذلك لك على أكثر مما تختارين والسلام [1].

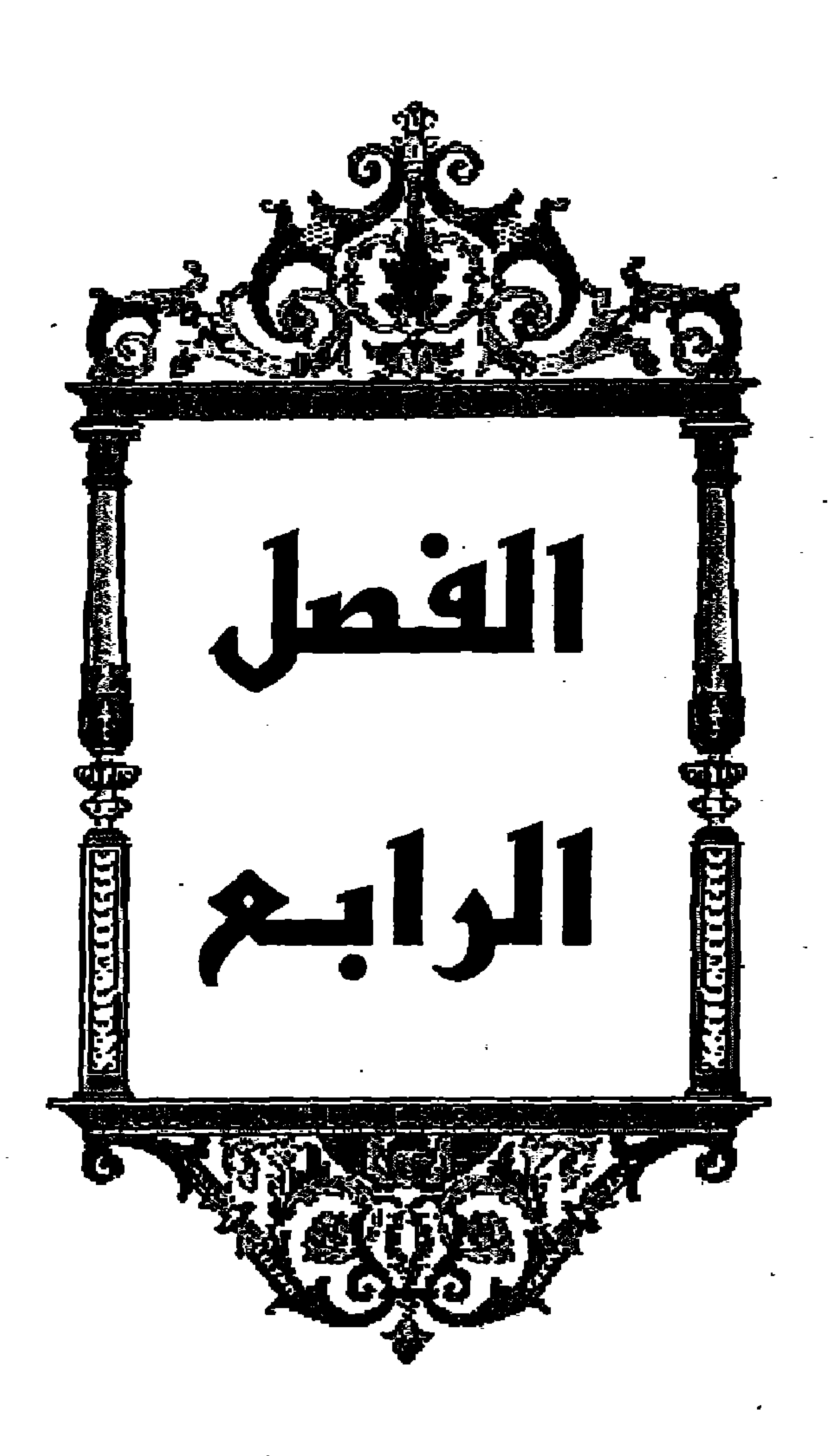
وقد كان المأمون ـ كما رأينا سالفًا ـ محبًا للعفو كارهًا للانتقام ، وكان أبوه هارون الرشيد يعرف له هذا الفضل الجليل ، وقد روي عنه أنه قال : إني لأعرف في عبد الله ـ المأمون ـ حزم المنصور ونسك المهدي ، ولو شاء أن أنسبه إلى الرابع يعني نفسه لنسبته [2]، وعرف عنه الكثير من الخصال التي افردنا لها العديد من الصفحات السابقة ، والتي أخصها أنه أفضل رجال بني العباس علمًا وفضلاً ، وأقواهم شجاعة وسؤددًا وعزمًا وحلمًا ورأيًا ودهاءً وهيبةً وسماحةً ، وهو الشخص الذي فيه تلك السمات العالية التي تجعل منه رجل جماعة في مقدمة صفوفهم ، وقائد أمة يوجهها إلى مدار الإمامة والسبق والحضارة ، وكان المأمون في يده شراع دولته يوجهها إلى أرض السلام ، وفي مركز حكمه الحصين كان يشير ملخصًا منهاجه وفق ما يتراءى للقارئ فهو القائل : معاوية بعَمْرِه يعني عمرو بن العاص ، وعبد الملك بحجّاجه يعني الحجاج الثقفي ، وأنا بنفسي ! [3].



(١) الجاحظ : التاج ص١١٧.

(٢) السيوطي : مرجع سابق ص٣٢٢.

(٣) المرجع السابق ص٣٠٦.



الفصل الرابع

المظاهر الحضارية لعهد المأمون

إن بصمات الخير التي دارت بين جميع المرافق التي شهدت تقدمًا ونشاطًا لهذا العهد الخصيب ، وكانت من أهم الخطوات في هذا الدرب الطويل ، واستتباب الأمن واطمئنان الناس على أرزاقهم وأقواتهم في أيامهم ومستقبل حياتهم الأمر الذي جعلهم جميعًا ينصرفون إلى ترقية شئون حياتهم الداخلية التي شملت فيما انطبع في سجلات معايشهم الأمور الاجتماعية والسياسية ، وراجت أحوال الرعية ، وتقدمت سبل المهن والحرف التي انضوت تحت جناح الإصلاح صناعية كانت أو تجارية أو زراعية ، واجتهدوا - كما سنرى - في استخراج خيرات الدولة حتى كانت ثروتها أعظم وأضخم ، وتوفر لديها مجالات الخدمات عن أي عهد آخر .

وهاهو كذلك العهد المثالي يشهد طفرة كانت هي العامل المساعد فيما شهدته الأمة من الازدهار والمدنية .

أولاً : إن المأمون الحاكم صاحب المنهاج القويم ضرب المثل الكامل على التسامح والسياسة المعتدلة في التعامل مع سائر الناس ، الذين اتخذوا منه قدوة صالحة لخير أيامهم التي يصبحون ويمسون على أن يساعدوه في إبراز دلالات الطموح والصلاح ، ولا يزالون ينتهجون خطته السديدة ويسيرون على دربه وما أصدق من قال : الرعية تبع الراعي ، والعامة على دين الملك .

ثانيًا : اختياره الحكيم لكل الأمراء وأرباب المناصب الأكفاء الذين عظمت في عيون الناس سيرتهم ، فكانوا له نعم الأعوان في مقدمتهم الحسن بن سهل ، وعبد الله بن طاهر ، والفضل بن سهل ، ويحيى بن أكثم ، والعباس بن عبد الله ، ويحيى بن موسى ، ممن برزت مواهبهم في دواوينهم الحكومية التي شهدت جهودهم الخارقة في إعلاء شأن الناس ، وعالجوا طرق التقدم كل في طريق .

ثالثًا : جمع المأمون الناس على المودة والإخلاص له ، وذلك بمشاركتهم في أوقات أزماتهم والإسراع في حل مشاكلهم والاستماع إلى شكايتهم بصورة دورية ، فكم شهد العصر من آيات المحافظة على هذا السلوك الحضاري ، فقد خفف الضرائب أوقات المحن ، وأعاد الحقوق المغتصبة إلى أصحابها فور علمه بوقوعها ، وكان يحب الوقوف على أحوال رعاياه بنفسه ، واصلاً إلى تجمعاتهم في أماكنهم المتباعدة ؛ لأن تقارير وسجلات الأمراء الوافدة عليه والواردة إليه ربما لا تسعفه ولا تكشف له الضوء بما يجب ، فليس من رأى كمن سمع ، وقد انتقل الخليفة المأمون بنفسه إلى بلدية الشام ليقف على ما بها من رفاهية أو تقصير ، ثم عرج إلى مصر وتنسم من هوائها وعبق نيلها الخالد وشاهد عجائب مباني كنانة الله في الأرض ، ودهش لما رأى بديع آثارها فهو الذي أمر بفتح الثغرة التي بهرم الجيزة الأكبر المنسوب إلى خوفو الملك الفرعوني ، وذلك المنهج الصائب الذي اختاره المأمون كان من أهم الأسباب التي جعلت الرعية هنا أو هناك تستقيم على الطريقة ، وهو القائل لواليه ابن طاهر : تفقد أمور من لا يصل إليك منهم ممن تقتحمه العيون وتحقره الرجال ، ففرغ لأولئك ثقتك من أهل الخشية والتواضع فليرفع إليك أمورهم ثم اعمل فيهم بالأعذار إلى الله يوم تلقاه ، وتعهد أهل اليتم وذوي الرقة في السن ممن لا حيلة له ، واجعله لذوي الحاجات منك قسمًا تفرغ لهم فيه شخصك وتجلس مجلسًا عامًا فتتواضع فيه لله الذي خلقك . فقال الرسول ﷺ : « **من ولاه الله من أمر الناس شيئًا فاحتجب عن حاجتهم احتجب الله عن حاجته يوم القيامة** »[1].

الجانب الزراعي من تلك المظاهر :

ارتقت أساليب النهوض الزراعي في البلاد التي عاشت تحت مظلة دولة المأمون بشتى ألوان التحسين ، فصحب ذلك رِفْعَةً في مدارج الزراعة في الأقاليم التي تشتهر بكنوز أرضها الخصيبة مثل مصر والشام والعراق ، والعمل الدوري على تشغيل

---

(١) تاريخ اليعقوبي ص٢٧٩.

وسائل الري وتشييد المشروعات التي تفيد في استغلال مرابعها وبساتينها الناضرة واستخراج خيراتها ، حتي كانت ثروة الدولة أعظم منها في أي عهد آخر [(١)].

وشجع المأمون لهذا الغرض الفلاحين على إنتاج المحاصيل الجيدة ، وعمل على إصلاح طرق الري في الأقاليم التي تشتهر بالزراعة ، وأوصى ولاته بعمل المشاريع الخاصة بالتقدم الفلاحي ، ونظم أسلوب التعامل المالي المرتبط بهذا العمل ، فكان حريصًا على كتابة المناشير السريعة لعماله على الولايات التابعة لسلطانه ، وهناك وثيقة قيمة أوردها ابن الأثير منسوبة إلى المأمون وموجهة إلى عبد الله بن طاهر واليه على ممالك خراسان متصف جمادي الآخرة من (سنة ٢١٤) يحثه فيها على التَّيَقُّظ والابتعاد عن الغرور ، ويوصيه خيرًا بالمزارعين وإنصاف الصغار منهم ؛ ليسود بينهم العدل والإنصاف [(٢)].

وجدد المأمون بواسطة أعوانه الأوفياء وبالوسائل المساعدة حفر بعض القنوات القديمة كما استحدث أخرى في مناطق تقع على الفرات ودجلة ، حتى أضحى ما بين هذين النهرين شبكة من القنوات أطلقوا عليها اسم النواظم ؛ لأنها نظمت توزيع المياه على الأراضي [(٣)].

ويبدو أن مشكلة ري الأراضي الزراعية كانت من المشاكل الداهمة التي أرقت ساحة الدولة في أقاليم المشرق الإسلامي ، وهاهو الدال الكفء عبد الله بن طاهر يتحرك لحل تلك المعضلة المستعصية ويتدخل عندما اشتد المزارعون في كيفية استخدام قنوات الري ، فآثر أن يبرز الحلول الفعالة بإصدار تشريعات جديدة جمع لغايتها أرباب الخبرة وبعض الفقهاء من أهل تلك المناطق في خراسان ، ومرو ، والري وغيرها ، فتواضعوا على عمل خطة اشتركوا في إخراجها تنظم من خلالها العلاقات المنظمة والمسطورة بين كافة الفلاحين فتراضوا واستقاموا بعد أن نودي بينهم وفي أسواقهم بتلك الخطة الشاملة التي هيأت

---

(١) انظر البغدادي : كتاب تاريخ بغداد ج١ ص٢٨٨.

(٢) ابن الأثير : الكامل ج٥ ص٢٣١.

(٣) مصطفى زيادة : الدولة الإسلامية ص١٢٣.

لهم سبل استخدام قنوات الري دون مشاكل يمكن أن تحدث في المستقبل [1].

وهكذا نرى أن هذا العهد لم تشغله أعباء السياسة والإدارة ومشاكل الرعايا عن تنظيم الري ، وحفر القنوات ، وتحسين سبل الزراعة باستحداث مجاري مائية عبر النيل والفرات ودجلة وسيحون وجيحون ، فانبثقت من تلك الأنهار شبكات متدفقة من الخلجان والقنوات التي أسهمت في ترقية المنتجات الزراعية القيمة ، كما اعتمدت الزراعة على الأمطار والأنهار في المواقع الشرقية وأقاليمها من بلاد تلك الدولة المتباعدة الأركان ، وأهمها بالقطع (نهر هراة) ، ويجري هذا النهر في أوله من الشرق إلى الغرب ويمر بمدينة (هراة) على سبعة أميال من بابها الجنوبي وتعتمد على مياهه كل من (بوشنج وسرخس) وغيرها من مدن خراسان ، ثم نهر (مرغاب) ، وتعتمد على مياهه مدينة (باذغيس) كذلك يعتبر نهر (جيحون ، وسيحون) من أهم الأنهار في المشرق حيث تعتمد المدن الواقعة في دلتاهما على مياههما في الري ، فتتنوع المحاصيل الزراعية هناك ، فتشتهر كل من الأهواز وأذربيجان بزراعة السكر والفاكهة ، وتشتهر كرمان بزراعة الجوز والنخيل والأخشاب ، وتشتهر فارس والري بزراعة الزبيب والرمان ، وكذلك ساعدت التربة الخصبة إقليم خراسان على زراعة المحاصيل الزراعية الغذائية المختلفة [2].

وعاد لإقليم السواد كل معالم الانتعاش الزراعي بعد أن عني المأمون بإمداده بالوسائل المعينه على ازدهاره ، وبالتالي تضاعف الإنتاج بعد فترة كساد رهيبة شهدتها المنطقة أيام الفتنة التي حدثت بين الأخوين الأمين والمأمون ، وكما استعادت منطقة السواد شهرتها القديمة بالخصب والنماء ؛ عظمت الكميات المستخرجة من خيرات أرض مصر الزراعية فانبثقت منها التمور والشعير والقمح والمقاتي [3]، والفاكهة والأرز والورد والكتان والقطن والعدس والفول واللارنج

---

(١) انظر الجهشباوي : الوزراء والكتاب ص٢٨٢ بتصرف .

(٢) فتحي سيف : المشرق الإسلامي ص١٦٦.

(٣) المقاتي : الخيار والقثاء .

وقصب السكر والسمسم ، فمن حول الفسطاط عاصمة مصر آنذاك كان الاخضرار يمتد مع البصر إلى السهل حتى ينقطع ، وأن مصر يتنوع فيها هذا المظهر أربعًا كل سنة ، فتكون ثلاثة أشهر لؤلؤه بيضاء أولها شهر أبيب المعروف بتموز عند المشارقة ، يركبها النيل إلى أن تصير ضياعها في بحر من المياه لا سبيل إليها إلا في الزوارق ، وثلاثة أشهر مسكة سوداء أولها شهر بابه وهو المعروف بتشرين أو أقطوبر ينكشف الماء من الأرض ويترك عليها طينًا علكًا أسود فيه دسومة صالحة للزراعة يقال له الإبليز ، وثلاثة أشهر زمرده خضراء أولها شهر طوبة الذي ينجم فيه الزرع ويظهر ربيع الأرض حتى لا يبين الثرى من خلاله ، ثم ثلاثة أشهر سبيكة حمراء تبتدئ من برمودة فيتورد الزرع لبلوغ الحصاد ويكون كسبيكة الذهب في المنظر [1].

وقد أخرجت أرض العراق التي بسط الله رزقها من خلال دلتا نهريها دجلة والفرات العديد من الخيرات التي ازدهت بالنماء مثل : القمح والتمور والشعير والأرز والكتان والورد والبنفسج والفاكهة المتعددة ، ونافست خراسان ومعها ما وراء النهر في تقدم الزراعة في هذا العهد المزدهر ، بحيث كانت لا تقع العين إلا على المروج الخضراء والحدائق التي تتصل خضرتها بلون السماء ، وكأن السماء قبة زرقاء على بساط أخضر ، من ذلك أن البطيخ حمل من خوارزم إلى بلاط المأمون في أوعية من الرصاص مبطنة بالثلج ، فتباع الواحدة في بغداد حاضرة البلاد بثمن يبلغ مائتين من الدراهم [2].

الجانب الصناعي والتجاري :

وقد عاشت المدن الإسلامية حول تلك الفترة أنضر وافخر أنواع العمل الصناعي مما ابتدعته يد العامل المسلم الماهر في أسرار صنعته ، الذي كان يتميز بالدقة والصبر والجلد ومواصلة الجهد في كسب معايشه وبالتالي راجت سبل المنتجات المتنوعة وبيعت في الأسواق الداخلية كما وجدت لها شهرة ذائعة في محافل المدن الخارجية ،

---

(١) المسعودي : مروج الذهب ج١ ص٢٧٢.

(٢) البغدادي : تاريخ بغداد ج١ ص٢٨٧، وزيادة مرجع سابق ص١٢٤.

ونعِمَ أرباب الحرف والأعمال بشتى وسائل الرخاء ، وقد ساعد على تلك النهضة ما وجد في الدولة من مواد خام موجود في بطن الأرض أو كانت مستخرجة من سقفها الظاهر ، فوجد بين يد الصناع الذهب والفضة والحديد والنحاس والرصاص والكبريت والزئبق والنفط فضلاً عن السكر والقطن والكتان والأخشاب والحجارة والطمي اللاذب ، وصنعوا من كل ذلك وحدات وهيئات برزت فيها مواهبهم الدقيقة وبراعتهم في التفنن في إتمامها بالصورة التي أبهرت الأبصار وتفوقت على من سبقها في مدارات عملية وصناعات حرفية ، والمعروف أن البلاد الإسلامية في عهد المأمون امتدت من بلاد الهند شرقًا حتى نهر الشلف غربًا ، وأصبحت بغداد عاصمة هذا الملك العريض مركز الدائرة وقطب الرحى التي تحرك النشاط الصناعي في تلك البلدان المتباعدة ، ففي هذا العصر اشتهرت مدن دمياط ، وتنيس ، وديبق بالمنسوجات الحريرية المعروفة بالدمياطي ، والتنيسي ، والديبقي ، وأصبحت ذات شهرة عالمية إذ ذاك ، كما غدت مدن صيدا ، وصور ، وغيرهما من مدن الشام مشتهرة بصنع الزجاج الذي ضرب به المثل في الصفاء والدقة [(1)].

كما استهوت الصانع المسلم الدمشقي ؛ ليبالغ في التفنن في صناعة القيشاني والرخام والفسيفساء التي تزين واجهات وجدران القصور والمساجد ، كما انتشرت في غرب آسيا صناعة البسط والطنافس وأغطية الأرائك والوسائد ، كما وجد بين الصناع المهرة ما تخرجه الأنوال من منسوجات نفيسة غالية الثمن عرفت بالعتابي الذي اشتهر به حي عتاب ببغداد ، كما صنعت الكوفة مناديل حريرية توضع على الأعناق هي الكوفية وغيرها من أغطية الرأس والخلع المزركشة التي تصنع خصيصًا للخليفة المأمون أو غيره ليعطيها للأدباء والعلماء وأرباب المناصب الرفيعة في المناسبات وظل هذا العرف السائد إلى ما بعد هذا العصر ، فكان بالقرب من القصور أو في بعض الأسواق العديد من المصانع التي تسهم في

---

(1) فليب حتى : تاريخ العرب ج٤ ص١٧٨.

صناعة هذه الأنسجة والمطرزات البديعة [1].

وإذا انتقلنا إلى خراسان وتوابعها لتقف على حقيقة (العمل الصناعي) داخل مدنها والمشتهر منها في هذا العهد الذي تخصصت فيه بعض النواحي في إنتاج محدد ، حيث اشتهرت مرو بتصدير الإبريسم والقز والقطن مصنعة على هيئة نسيج غاية في اللين ، كما كانت مرو تعد الكثير من هذه المواد على هيئة خيوط مفتولة لمن يصنعها أو تنسجه هي عن طريق أنوال معدة لهذا الغرض [2].

كما عرفت كركان بصناعة الأخشاب والجودة فيها ، كما ظهرت في تلك المناطق صناعة الفرش والأكسية الطرية من طبرستان ، واشتهرت بعض الصناعات المعدنية في أذربيجان وكرمان التي توفر لديهما الذهب والفضة والنحاس ، فقامت بعض المسابك باستخراج اللوحات الفنية التي صورت الفن في أرفع دقائقه من خلال تلك المعادن ، كما أن مدن ما وراء النهر صنعت العديد من الأسلحة المهندة لشيوع الحديد في أرضها ، كما تركزت بعض الحرف في مناطق خراسان التي من أهم أنشطتها الصناعية مكونات الأخشاب والسجاد والديباج ومعدات الحرب ، فأصبحت تلك الصناعات تمد الدولة العباسية بما تحتاجه من إنتاج متوافر لديها ، فلا تطلبه من خارج حدودها خاصة بلاد الصين أكبر منافس لتلك المدن الإسلامية في هذا السبيل ، وتخطت الصناعة الإسلامية في تفوقها نظيرتها الصينية التي ضربت أروع الأمثلة في الدقة والمتانة من القدم فزاحمتها مدن المشرق في هذه الحرف الصناعية [3].

ويقيني أنه لمن أتم السعادة أن تتواصل المسيرة التقدمية لتلك العقلية الراقية التي أتحفت المعمورة بهذا الصنع البديع والجديد في صورته والتي تسجلها حوليات

---

(1) للمزيد من المراجع العقد الفريد لابن عبد ربه ج٣ ص٢٢٩، الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج١ ص٧٢.

(2) تاريخ اليعقوبي ج٣ ص٢٧٩.

(3) اختصار لصفحات مستقاه من ابن خلدون في المقدمة ، واليعقوبي في تاريخه ، حسن أحمد محمود العالم الإسلامي .

التاريخ على أنها من نتاج نور العقل ، وأقصد بها تلك الخريطة الشهيرة والمعروفة باسم (الصورة المأمونية) ، فقد نُقل إلينا أن الخليفة المأمون أمر برسم صورة يظهر منها العالم بأجوائه ونجومه وقاراته وبحاره ومواطن سكناه ومدنه وصحاريه بأصباغ مختلفة ، وقد قام برسمها أولاً عدد من العلماء بلغو تسعة وستين رجلاً في مقدمتهم العلامة الخوارزمي ليخرجه متسع من نسيج بهيئته ، وقد ساعدتهم مجموعة من الصناع المهرة الذين أخرجوها في صورتها النهائية بعد تخطيطها وفق مواقع العالم وقتها ، وهي بالقطع أول مصور جغرافي للدولة الإسلامية وأقاليمها [١].

وعندما سمت صناعة الزجاج برز في هذا العصر المتألق بجلائل الأعمال فاتخذوا من الزجاج بعض الفوانيس والثريات المنقوشة بالمينا بمختلف الألوان وعلقت في قصر المشاش ، وقصر الملك بالرصافة ، وأعطي المأمون علي بن البواب الذي كان يتميز بأعماله الفنية الدقيقة ، ويبدو أنه كان من أسرة البواب الضاربة في الفن الرفيع في الخطوط وأعمال الزخرفة ، وقد كانت لعَمَّة المأمون المسماه علية بساطًا بلغت تكاليف صنعه نحو ثلاثة ملايين من الدراهم قد رسم عليه بخيوط الذهب أشكال أنواع الطيور المختلفة رصعت مواضع أعينها بالياقوت وغيره من الأحجار الكريمة ، وفي حفل زفاف بوران بنت الحسن بن سهل على الخليفة المأمون كانت تقدم إلى المدعوين صواني الفضة والذهب المطعمة بالأحجار النفيسة ، ومن محاسن هذا العصر أن المأمون درة البيت العباسي هو أول من كسا الكعبة المشرفة بالديباج الأبيض المنقوش بخيوط الذهب ، واستمرت تلك الخصيصة النبيلة لمن جاء بعده من الخلفاء والأمراء ، وقد أطلق على المكان الذي يصنع فيه أنسجة الكسوة والتفنن في إبداع زخرفتها بالخطوط والخيوط المتداخلة اسم « دار الكسوة » ، سواء كانت في بغداد في وقته أو في القاهرة محروسة مصر في العهود التالية [٢].

---

(١) المسعودي : التنبيه والأشراف ص٣٥.

(٢) الأبشيهي المستطرف في كل فن مستطرف ج١.

ومن مناهج الحضارة في إيثار الجانب التجاري ما نقل من أن السلطة الحاكمة الموفقة أنذاك قد سمحت للتجار المسلمين أو غيرهم باقتحام أسواق الصين من أجل المشاركة الفعالة في تجارة الحرير ، فسافروا إليها من « طريق الحرير العظيم » الذي يمر من سمرقند وتركستان ، وورد في بعض الوثائق الصينية القديمة اسم أمير المؤمنين أبي العباس السفاح ، واسم الخليفة هارون الرشيد ، وابنه عبد الله المأمون . مما يدل على قدم الصلة بين الدولة العباسية والصين [١].

وغدت بغداد العاصمة من أعظم مراكز التجارة قاطبة حيث يفد إليها التجار من المشرق والمغرب ، ومعهم النفائس والتحف ، واتخذت كل فئة من التجار سوقًا معينة في داخل تلك المدينة المتألقة لا يشاركها فيها سواها ، واختصت كل جماعة من الأجناس بخان أو ما يطلق عليه بفندق آنذاك ، وكونت فيما بينهم روابط يجمعهم على سواء فيها المصالح [٢].

وقد كانت المتاجر تأتي إلى بغداد في السفن من النهر والصين واليمن أو على ظهور الإبل حيث تنزل في مضارب خاصة على جانبي دجلة على مقربة من عاصمة الخلافة فعملت السلطة الحاكمة على استتباب الأمن ، وتطهير الطرق من عامة الرعاع والغوغاء الذين يترصدون طرق المتاجر ، فرصدت لهؤلاء الخارجين العديد من رجال الشرطة والأعوان الأشداء الذين عن طريق مواقفهم اليقظة سكنت الخواطر وأمن التجار من غائلة الغصب والسرقات ، فعاشت أركان الدولة في انتعاشة دائمة فصحب رواج التجار رفعة فائقة في سبل المعايش ، ومع الأرباح تزداد المباهج ، فلبست المدن مع الثراء أثواب الأفراح وكأنها في عرس قائم أو عيد دائم ، وتحولت الطباع من الخشونة إلى نعومة العيش ، وهاهم أولئك التجار في ذلك الزمان الزاهر قد حملوا منتجات الدنيا إلى بغداد والبصرة والكوفة ، ومن طرقهم من وسائل الاتصال حطوا رحالهم من مدن الشام ومصر منها وإليها

---

(١) المسعودي : مروج الذهب ج٣ ص١١٧.

(٢) إبراهيم نمير : صور من التاريخ ص٥٣ ص١٤٤.

فحملوا من الجند آنيتها ، ومن أصبهان وشيراز ويزد شرابها ، ومن خراسان حديدها ، ومن كرمان رصاصها ، ومن كشمير النسيج الملون ، ومن الصين الكمكام والعود والمسك والسنور والسروج والعصائر والدراصيني والخلنجان ، ومن اليمن العطر وأنواع الطيب ، ومن فارس السلاح والمصوغات ، ومن عيذاب اللالئ ، ومن بلاد السند الأبنوس والبسط والقنا والخيزران والكافور والعود والقرنفل والكبابة والنارجيل والثياب القطنية والمخملة والفيلة ، ومن سرنديب ألوان اليواقيت واشباهها والماس والدر ، ومن أرض الروم المستكة والغلمان والرقيق ، ومن الروسيا الخرز والثعالب ، وكانوا يتجرون في كل ذلك وتزاحمت الأسواق من تلك المعروضات التي درت عليهم المال الوفير [١].

وقصص السندباد البحري وغيرها من قصص كتاب ألف ليلة وليلة تعطي صورًا أكيدة لمغامرات هؤلاء التجار العرب المسلمين وغيرهم من أهل الذمة في سبيل الثراء كما تلقي الضوء على أسواقهم ومعاملاتهم التجارية ، وظهر غير واحد في الدولة الإسلامية من كبار التجار مما بلغت ثروتهم سنة ٢١١هـ بملايين الدنانير ، وذلك في بغداد والبصرة والكوفة خاصة من مثل أبي الحسن السيرافي ، وسليم البدعي ، وعلي بن صالح الحنتيري ممن لهم مصالح جمه في التجارة ، وتجمعت لهم الثروات الفائقة بما اشتهر [٢].

وقد ساعد على انتعاش التجارة وجود طرق تجارية برية وبحرية كطريق (خراسان – بغداد) ، وطرق برية ونهرية أهمها (بحر الهند ، والخليج العربي) وعلى الرغم من أن هذه الطرق البحرية كانت تتمتع بازدهار ملحوظ إلا أنها ازدادت نشاطًا على هذا العصر الخصيب وحكمت هذه التجارة نظم ضرائبية سليمة . فهناك ضرائب على التجارة الخارجية وأخرى على السلع التجارية الداخلية [٣]، ولما اتسعت نطاقات الموارد التجارية في البلاد نتج عن هذا ظهور

---

(١) يراجع حضارة الإسلام في دار السلام لجميل نخلة المدور .

(٢) فليب حتى ج٢ ص٢٦٧، مصطفى زيادة : الدولة الإسلامية ص١٢٩.

(٣) فتحي سيف : المشرق الإسلامي ص١٦٩.

فئة اكتسابية جديدة من بعض المغامرين الذين يتطلعون إلى الربح السريع ، فوقع الغش الفاحش في نوعيات المعروض من المتاجر خاصة في أوقات الشدائد والمواجهات التي انشغلت فيها الإدارة المأمونية إبان ذلك ، حيث برزت على السطح نوعيات من الصيارفة من اليهود وغيرهم يعطون مالهم بالربا على أن يعاد عليهم المثل في آخر العام مثلين وأكثر منهما ، فأسرع المأمون بوضع محتسبه النشط (علي بن الراوي) فكان يطوف بالأسواق ويفحص عن الأوزان والمكاييل وينظر في معاملات التجار ويلاحق المتجاوزين الغششة ، وما زال في أمره هذا حتى أصبحت المعاملات جارية على سنن العدل فلا يتحامل الشرفاء على الوضعاء ، ولا الأغنياء على الفقراء ، وقدر التجار الحقيقيون للمحتسب جهوده ونشاط معاونيه الذين تتبعوا تلك الفئة الجديدة التي كانت تشتري السلع والمعروض من التجارات بما يفرضون لها من ثمن بخس دراهم معدودة ثم يبيعونها بما يتراءى لهم الجشع وبالثمن الضارب في الغلاء قسرًا ، وهو في العرف التجاري السائد في كل زمان ومكان مدلوله يفضي إلى الاحتكار المناظر للفساد وخراب الذمم والإغراق وانعدام الثقة [1].

الجانب الاجتماعي السائد :

عمت البهجات وازَّيَنَتْ أركان المجتمع آنذاك بعدما تنسم الناس من نعيم الاستقرار وسلوك النظام الذي حباهم النشاط التجاري والزراعي والصناعي ، ومن دخلوا في معية الوظائف وأرباب المناصب ، ومن هم في الألفة من ذويه وأقربائه ، ومن في حاشيته وبلوغ أقران جلساته كلهم تحت سقف دولة المأمون يتمتعون بكامل الرعاية وسمو الإنصاف والمساواة وخالص العدالة وهم بين عينيه ، إن سلكوا على الحب والإخلاص والطاعة نهجه أوفى بهم إلى حيث تصل همتهم من مراقي الكمال وموارد الجلال ، وإن حادوا عن السبيل الأقوم تابعهم أولاً بالتلويح بالرجوع إلى ساحة التسامح والعفو والصفح الجميل ، وإن تمادوا في

---

(١) المسعودي : التنبيه والإشراف ص٨٩، الأصفهاني : الأغاني ج١٧ ص١٠٨، ١٠٩ . بتصرف ما يقتضيه المقام .

الغي واتبعوا أهواءهم وضلوا عن السبيل السوي فلا مجال إلا العقاب الصارم ، حتى تسكن الفتن في مهادها ، وسوف يؤدي بهم العناد إلى شفا الهلاك .

ومع الرقي تتكاثف المعايير الاجتماعية داخل المدن الرئيسية وعامة القرى لبعض الأقاليم ؛ ليجمعهم عناصر متوافقة تمثل الطبقات السائدة هنا أو هناك فإذا تواضعنا على أن نجعل للمجتمع سلسلة من المجموعات تحت مسمى طبقي ، أمكن لنا أن نلحظ أن البلد الإسلامي إبان عصر المأمون لا يخرج عن طبقات ثلاث :

أولاها : بالقطع تتمثل في البيت العباسي الشامل الخليفة وأهل بيته وكبار رجال الدولة من الأمراء وأفراد البيت الهاشمي ، وما يلحق بهم من جمع غفير مبثوثين بين أركان القصور المتعددة في بغداد والري ومرو وبعض المناطق كالبصرة والكوفة وما إليها ، التي تتداخل فيها بعض العناصر التابعة لتلك الطبقة المستخلصة من قمة الحكم ، ولا يخرجون عن أفراد من الجند والحراس والأصدقاء والندماء والموالي والخدم [1].

وثاني تلك الطبقات : ما يمكن أن يطلق عليها الطبقة الوسطى ، وهم في حقيقتهم مجموعة من العلماء والفقهاء ورجال الفن والشعراء المبرزين وكبار التجار وأصحاب المهن والحرفيين ، وكان لأفراد تلك الطبقة رجحان في الميزان الاجتماعي بما أتوا من مواهب أو ثراء عريض ، ثم تلي الطبقتين السابقتين طبقة ثالثة وهم عامة الأمة والسواد الغالب بين السكان وغالبيتهم من أرباب الفلاحة والصناعات الخفيفة وصغار التجار الذي يقطنون القرى وأطراف المدن ، ولا نبالغ إن قلنا إن معظمهم يتمتع بروح الكفاح في سبيل ربح يومه وربما يصل بهم الحال إلى الاستكانة في أوقات الشدة والأزمات [2].

---

(١) وكانت الغالبية العظمى من الخدم من العبيد الذين جلبوا إلى بغداد من بلاد اليونان والصقالبة والأرمن والبربر والسود ، أما الجواري : فيفضل معظمهن من الحسناوات اللواتي يحسن الضرب على العود ويجدن الغناء ، وكانت منهن الحظيات لجمالهن .

(٢) مصطفى زيادة : الدولة الإسلامية ص١١٨.

وأدى الاندماج بين العرب والموالي في بلاد المشرق إلى عظم الإحساس بهذا التشريع العظيم الذي سوى بينهم في جميع الحقوق ، فجذبهم بسماحته فحققوا آمالهم بتكوين الأسر الإسلامية في مدنهم التي عاشوا فيها تحت ظلها مثل خراسان ونيسابور ومرو وهراه وبلخ ، وقد كانت نيسابور التي قال عنها شاهد عيان : مدينة ذات فضائل حسنة وعمارة كبيرة كثيرة الخيرات والفواكه والثمرات ، جامعة لأنواع المسرات وعتبة المشرق ، وهي من أحسن بلاد الله وأطيبها ، مقر تجمع دواوين الولاية فاستقر فيها مصالح الخلق الذين جاءوا إليها من كل فج ، وتزاحمت الأسر في بيوت بداخلها كما توصف مرو بالنظافة ، وشوارعها حسنة الترصيف ، ومبانيها منظمة ، وتمتاز أسواقها بالتعدد ، وهي ميزة تبرزها في المحاسن عن بقية مدن ولاية خراسان [1].

أما متاع المنازل والقصور وما تحويه من أثاث فهو عادة في غاية البساطة والحسن ، وبدت روعة النوافذ ذات الزجاج الملون والجدران التي طليت بالجص ، وفي القصور بالملاط ، كما توجد بعض الطنافس المعلقة والمزركشة على الحوائط ، وفي الحجرات كانت توجد المناضد والآرائك وتضاء الغرف بالمصابيح المثبتة أو المتحركة في البيوت [2].

وسارت المرأة في ظل هذا العصر تتمتع بالحرية المكفولة لها ، فظهرت أسماء بوران بنت الحسن بن سهل زوجة الخليفة ، والسيدة عليه بنت المهدي عمته ، والسيدة زبيدة أم جعفر زوجة أبيه الرشيد ، وبرزت النسوة في مجال الشعر وإنشاده والغناء وترداده مثل : عبيدة الصنبورية ، وعريب اللتين اشتهرتا بالحسن والغناء في مجالس الخليفة في الليالي العذاب ، وقد كانت المرأة تمتدح لتدبيرها وتسيير أمور دارها ، ورعاية أولادها وخدمة زوجها ، فإذا بقي من وقتها جزء تستنفذه في مغزلها الذي يأخذ حيزًا في ركن منزلها ، وكانت صفة العقل أهم ما يميز الفتاة عند اختيارها

---

(١) فتحي سيف : المشرق الإسلامي ص١٧٤.

(٢) المرجع السابق ، بتصرف ص١٧٥.

كزوجة ، وهاهي الفارعة زوجة المأمون ، وأم ابنه العباس من فضلها لهذه الغاية النبيلة والحكاية القادمة تستجاد من محاسن النوادر والمصادفات السعيدة ، ولذا آثرنا أن نسجلها في مدارها من مكانها يقول البيهقي : خرج المأمون يومًا إلى الصيد في كوكبة من الحرس ، فلاحت له طريدة ، فأطلق عنان فرسه حتى أشرف على مجرى ماء من نهر الفرات ، فإذا هو بفتاة عربية قد أعطيت من كل شيء أحسنه ، وبيدها قربة قد ملأتها ماء ، وصعدت بها من ضفة النهر فانحل وكاؤها فصاحت برفيع صوتها : يا أبت أدرك فاها ، قد غلبني فُوهَا ، لا طاقة لي بفِيْهَا ، فأخذ المأمون العجب لفصاحتها وجميل لفظها ، فقال مخاطبًا لها : يا جارية ممن أنت ؟ فأجابت الفتاة : من بني كلاب ، فقال المأمون : وما الذي حملك أن تكوني من بني كلاب ؟ فقالت الفتاة : والله لست من الكلاب ؟ وإنما أنا من قوم كرام غير لئام يقرون الضيف ويضربون بالسيف ، ولكن يا فتى من أي الناس أنت ؟ فقال المأمون : أو عندكم علم بالأنساب ؟ قالت الفتاة : نعم . فقال المأمون : من مضر الحمراء ، فقالت الفتاة : من أي مضر ؟ فقال المأمون : من أكرمها نسبًا وأعظمها حسبًا ، فقالت الفتاة : أظنك من كنانة ، فمن أي كنانة ؟ قال المأمون : من أكرمها ولدًا وأشرفها محتدًا ، فقالت الفتاة : أنت من قريش ، فمن أي قريش؟ فقال المأمون : من أجلِّها ذِكرًا ، وأعظمها فخرًا ، فقالت الفتاة : أنت والله من بني هاشم ، فمن أي هاشم ؟ فقال المأمون : من أعلاها منزلاً وأشرفها قبيلة ، ممن تهابه هاشم وتخشاه ، فأحنت الفتاة رأسها إجلالاً وتعظيمًا له ، وأقبلت بوجهها ، وقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ، فطرب المأمون طربًا شديدًا ، وثمل برحيق أدبها وسريع بديهتها ثم نزل ، ريثما حضر الحرس وأنفذ خلف والدها وخطبها إليه ، وأخذها وعاد بها مسرعًا إلى دار الخلافة فرحًا مسرورًا كأنه ملك الدنيا ومن فيها ، فكانت الفتاة أم ولده العباس [1].

---

(١) المحاسن والمساوئ ج٢ ص٦١٥، ويضيف البيهقي تعليقًا على هذا الموقف قال : فلولا ما تحلت به=

ومع النماء ومناهج الرخاء تتلون الحياة بزينة الحسن التي ما تنفك عن قطبها العالي في النعماء الدائمة ، وتصور حوريات الدنيا عرس القرن الثالث الهجري من واقع عايشته من أحدوثة ذلك الزمان المسجل بأحرف الذكرى ، أعني بذلك زواج المأمون من بوران بنت الحسن بن سهل ، ففي هذا الحفل كانت تقدم إلى المدعوين صواني الذهب والفضة المطعمة بالأحجار الكريمة ، كما نثر أبوها صينية كبيرة ملئت جواهر بين يدي المأمون وعروسه عندما زفت إليه ، وكتب الحسن رقاعًا فيها أسماء ضياع وأراضي كتبها في رقاع فرقت على القواد وأرباب المناصب العليا ، فمن وقعت في يده رقعة باسم ضيعة أو أرض تسلمها ، كما طلب والد العروس - تيمنًا بهذه المناسبة السعيدة - من حائكي الخلع الموشاة الغالية الثمن أن يصنعوا منها ألوفًا أهداها للقواد الخراسانية والوجوه من بني هاشم استنفذت مدة سبعة عشر يومًا في استكمالها ، حتى خرج الحفل في أبهى صورة يمكن أن يتصورها العقل آنذاك أما جهازها فقد بلغ ألوفًا كثيرة [1]، وكان ذلك عام عشرة ومائتين من الهجرة .

وقيل في سبب زواج بوران ما ينقله ابن عبد ربه : إن المأمون كان يمر مع نديمه إسحاق بن إبراهيم الموصلي على دار بداخلها من الحسن العجائب ، ولفت نظر الخليفة فتاة بهرته بحسن جمالها وموفور أدبها وثقافتها وقوة تفكيرها ، وعندما سأل عن صاحب الدار قيل أنها للحسن بن سهل ، فلما عاد إلى دار السلام بعث في طلبه فقال له المأمون : ألك بنت ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، قال : ما اسمها ؟ قال : بوران ، قال : فإني أخطبها إليك ، قال : هي أمتك وأمرها إليك ، قال : فإني تزوجتها على ثلاثين ألف دينار ، ثم تزوجها فكانت أحظى نسائه عنده وآثرهن لديه ، لما جمعت من عظم قدرها وشرف همتها ، ولما جمعت من

=تلك الفتاة من رجاحة العقل وفصاحة اللسان وكمال الجمال وكريم الشيم ومحاسن الخصال ، وما ارتدت به من فضيلة الأدب ولين الخطاب وسرعة الجواب لما صارت شمسًا مضيئة في قصور الخلفاء .

(١) قدرت نفقات الزواج بخمسين مليون درهم ، انظر : الطبري تاريخ الأمم ج١٠ ص٢٢٠.

نبل وعلم وظرف ، فقد عاشت في بيت المروءة والأقدار العالية والشرف الرفيع ، فقد أجمعوا لها عنده بأنها لم تظهر لها ريبة ولا حالة تنكر ، فتضاعف قدرها عند أمير المؤمنين وعظم خاطرها لديه وظلت في حياته حتى مماته [1].

وقيل : لما تزوج المأمون بوران أهدى الناس إلى أبيها الحسن ، فكان ممن أهدى له رجل فقير حيث بعث إليه بمزودتين في أحدهما ملح وفي الآخر اشنان ، وكتب إليه : جعلت فداك خفة البضاعة قصرت ببعد الهمة وكرهت أن تطوى صحيفة أهل البر لا ذكر لي فيها ، فوجهت إليك بالمبتدأ به لِيُمْنِهِ وبركته وبالمختوم به لِطيبِهِ ونظافتِهِ . فأخذ الحسن المزودتين ودخل بهما على المأمون فاستحسن ذلك وأمر بهما ففرغتا وملئتا دنانير ، ودفعها للرجل مرة أخرى [2].

وقد صحت عزيمة المأمون الفتية من أن ينال حظه من دنيا الناس بالركون إلى بعض الألعاب الذهنية والعضلية التي يحتاجها أرباب الفروسية ، وأنجم الميادين في التجاذب والتسابق ومواجهة الأنداد في الحرب والسلم ، وشجع الشباب ومن يقفز بهم السن إلى ما فوق تلك الأعمال في الاحتكام إلى ما عرف في كتب التراث باسم ألعاب التسالي المنزلية كالشطرنج والنرد ، وفي الساحات بالصولجان [3] والنشاب في البرجاس [4] واللعب بالإكرة والطبطابه [5] وما إليها ، وكان المأمون يحب لعب الشطرنج شديدًا ويقول : هذا يشحذ الذهن واقترح فيها أشياء ، وكان يقول : لا أسمعن أحدا يقول : تعال حتى نلعب ولكن يقول : نتداول أو نتناقل ولم يكن حاذقًا بها ، وكان يقول : أنا أدير الدنيا فاتسع لذلك وأضيق عن تدبير شبرين في شبرين [6].

---

(١) العقد الفريد ج٣ ص٣٦٢.

(٢) البيهقي : المحاسن ص٥٩٩.

(٣) الصولجان : عصا معقفه يضرب بها الكرة .

(٤) النشاب : الرماح والبرجاس هدف في الهواء يرمى فيه .

(٥) الإكره : الكرة ، والطبطابه : خشبة عريضة يلعب بها بالكرة .

(٦) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص٣٢٥ .

ويقول ابن عبد ربه : إن المأمون إذا جلس للاستراحة يثني انصبابه إلى ما يجد فيه من التسلية أدبًا وفائدة ، ولم يكن شيء من الملاهي أحب إليه من لعب الشطرنج يمارسه كأبيه لاستنباطه الحيل فيه حتى لم يكن في الناس من يفضله فيه وهو القائل في الشطرنج :

أَرْضٌ مُرَبَّعَةٌ حَمْرَاءُ مِنْ أَدَمِ ... مَا بَيْنَ إِلْفَيْنِ مَوْصُوفَيْنِ بِالكَرَمِ
تَذَاكِرا الحَرْبَ فَاحْتَالا لها شَبهًا ... مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسعَيا فِيْهَا بِسَفْكِ دَمِ
هَذَا يُغِيرُ عَلَى هَذَا وَذَاكَ عَلَى ... هَذَا يُغِيرُ وَعَيْنُ الحَرْبِ لَمْ تَنَمِ
فَانْظُرْ إِلى الخَيْلِ قَدْ جَاشَتْ بِمَعْرَكَةٍ ... في عَسْكَرَيْنِ بِلاَ طَبْلٍ وَلاَ عَلَمِ [١]

وكان الولاة في إمارتهم يسمحون بلعب الشطرنج ، فيقيمون لها المباريات في حضرتهم ويستمتعون بها ، إذ كان المتنافسون في هذه اللعبة يناظر كل منهما الآخر بالجد والهزل ، وكان العامة يجيدونها أيضًا وزاول أمراء المشرق بعض الألعاب ، كالصولجان كما اهتموا بالصيد كرياضة وتسلية ، فكان الأمير يخرج ومعه صحبه من حاشيته يحملون معهم أدوات التسلية كالشطرنج ، وها هو عبد الله بن طاهر كان يستمتع بحضور تلك المناظرات الهزلية التي تتم أمامه ، حتى أنه في إحدى المباريات فحص برجليه من شدة الضحك [٢] .

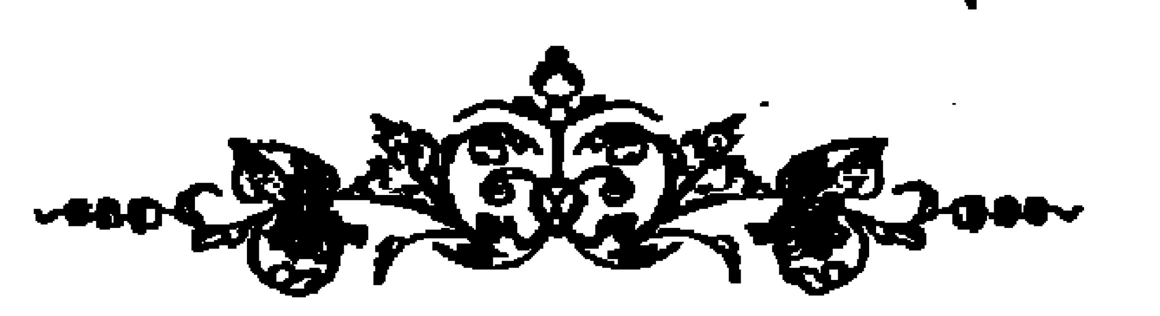
وقد عني المأمون أشد عناية باقتناء الآثار والتحف التي تخلفت عمن سبقه من الحكام من ثياب وسلاح وآنية ومتاع وغير ذلك ، حتى جمع من طرائفها القدر العظيم الثمن ، فقد وجد في صندوق له يملكه أودع فيه خواتم الخلفاء من العباسيين والأمويين والخلفاء الراشدين ، فكان جامعًا لجميع خواتيمهم إلا خاتم النبي ﷺ ، ولو لم يكن ضاع من عثمان في بئر أريس كما تواتر في الأنباء ما

---

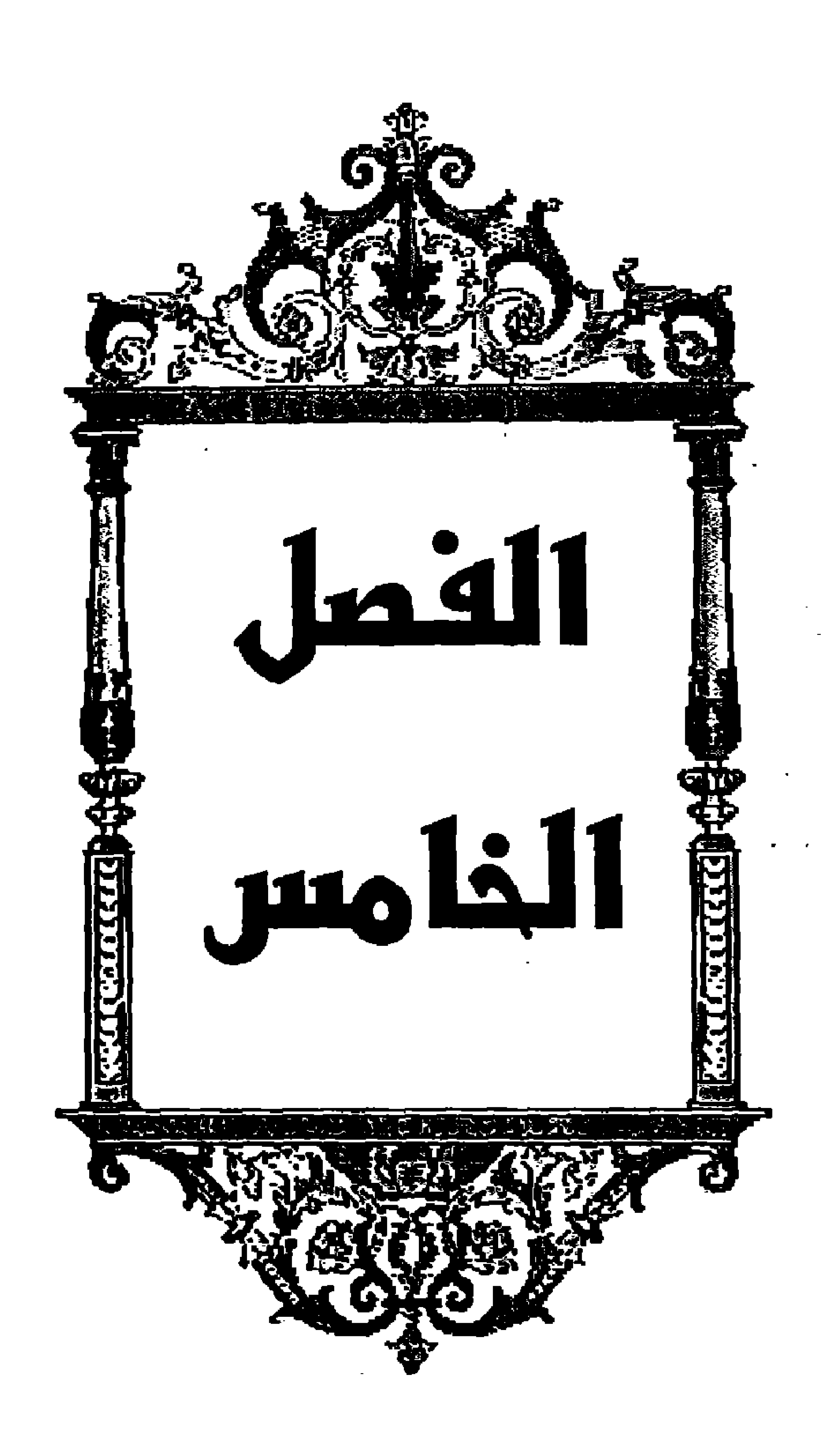
(١) العقد الفريد ج٣ ص٢٥٤ .

(٢) فتحي سيف : المشرق الإسلامي ص١٧٩ .

كف عن طلبه حتى يجده ، وفي هـذا المجمـوع وأمثالـه مـن المجموعـات أدب مـع الفكاهة والزينة والمكاثرة بجم الفوائد [1] .



(١) حضارة الإسلام لجميل نخلة المدور ص١٢٦ وفيه أن المأمون كان يعني باقتناء الطير والخيل والحيوان واتخاذه الديكه ليقاتل بعضها بعضًا والكباش ليناطح بها بين يديه ، وكان يعد ذلك على سبيل المباهاة والمفاخرة .



الفصل الخامس



أهم رجالات المأمون والعلماء الأعلام

أولاً : أهم رجالات عهده :

كان المأمون خليفة بني العباس المثالي في جهاده بل وجهوده الموفقة في حاجة متممة إلى أعوان صدق وأمراء أخيار ، يتميزون بحنكة الكفاءة العالية في تسيير حركات الإدارة ، ويسهمون فوق إخلاصهم المقدر بمواصلة أعمالهم الحكومية دائبين طرفي النهار وزلفًا من الليل ، فكان الجهاز كله من أرباب الدراية الذين انتقاهم من بين معادن الرجال الصلبة ، هؤلاء ممن لا يشكون تعبًا ولا نصبًا وقد برزت مواهبهم ـ كما سترى ـ في استجلاء النشاط وملء أوقاتهم العملية في الصالحات الباقيات : ﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ [الكهف:٤٦] .

فكانوا بتشجيعه المأمول ثريات هذا العهد الذي أضاء جنبات مجتمع الإسلام وفي المرافق الحيوية التي تشهد مناقبهم الجليلة وتواصيهم بالحق في الكشف عن مكنون ما تخبئه الضمائر في دواوينهم ومجالس أعمالهم ، وكانت كلمة السر بينهم وبينه ، إتيان حميد الأفعال دون ما تباطؤ يوقف مسيرات الإصلاح ويخمد جذوة الإنجازات التي يضرها التقاعس ، فبذل كل عامل أو عالم من الجانبيين ـ دون فاصل محجم أو باطل مهلك ـ وسعه بالعطاء في سبيل النفع العام .

الفضل بن سهل الوزير النابه:

فارسي المنزع والمنشأ ، كان من مبدأ أمره في معية البرامكة الذين استؤصلت فروعهم في عهد الرشيد ، وقد كان لهم أيام مجدهم العديد من الأعمال الفائقة التي تشهد بإخلاصهم جميعًا يحيي بن خالد وأبناءه جعفر والفضل وموسى ومحمد الذين كانوا جواهر لتَلأْلَأَ في تاج الرشيد قبيل غضبه عليهم ، وقد خدم ابن سهل أيام جعفر البرمكي فتشبه بأفعاله وأنجازه ، فكان الفضل سخيًا كريمًا يجاري جعفر في جوده ، شديد العقوبة سهل الانعطاف ، حليمًا بليغًا عالمًا بآداب الملوك

بعيدًا جيد الحدس محصلاً للأموال ، وكان يقال له الوزير الأمير [1] .

ويقول المسعودي : « إن ابن سهل كان يتشيع كمذهب غالب الفرس ، وكان في بدء أمره مع المأمون لما غلب عليه يستعمل للنظر في أحكام النجوم وقضاياها وينقاد إلى موجباتها ، ويذهب مذاهب من سلف من ملوك ساسان كأردشير بن بابك ، وساعد الخليفة بإظهار القول بالتوحيد والوعد والوعيد ، وجالس المتكلمين وألزم مجلسه الفقهاء وأهل المعرفة وأقدمهم من الأمصار وأجرى عليهم الأرزاق [2] .

ويقول عنه ابن الأثير : « لقد كان الفضل بن سهل فتى من أمراء آل نوبخت وهو خليل المأمون وصديقه لا يصبر على فراقه في ليل أو نهار ، وإذا ركب في موكب أركبه معه على النجائب المخضوبة بالحناء وعليها القطوع والديباج [3] .

وقد كان له أيام فتنة الأخوين دور في تكالب أهل خراسان ضد عيسى بن ماهان ، على الرغم مما نوه به بعض الباحثين من أن الفضل كان يميل إلى قتل الأمين ؛ ليحظى بالمكانة ويدافع عن طاهر بن الحسين قال : فقد كان طاهر حريصًا على مشورة المأمون خوفًا من عقابه إذ أن الفضل بن سهل هو الذي عمل على أن يصل الصراع بين الأمين والمأمون إلى أقصى مداه [4] ، وقد علا نجم الفضل بعد أن بويع المأمون بالخلافة فأصبح هو وزيره الأول ، ولقب بذي الرياستين ، وجعل أخاه الحسن واليًا على بغداد ، فصار إليه القبض والبسط والأمر والعزل ، فأقبل عليه الشعراء والندماء فأجازهم وأجزل لهم العطايا ومدحوه بغرر الكلام وجعلوا مجلسه تتألق في جنباته أرباب الحجا ونصراء البيان ، فتكاكأ على باب قصره أصحاب الظلامات وطلاب الحاجات حتى شكى إلى ثمامة بن أشرس من زعماء المعتزلة : ما أدري ما أصنع بهؤلاء ؟ فقد كثروا عليَّ وأضجروني ، فقال له : زل عن

---

(١) الفخري في الآداب السلطانية لابن طباطبا ص ٢٠٧ .

(٢) مروج الذهب ج٢ص٣٣٥ .

(٣) الكامل ج٦ ص٥٧.

(٤) فتحي سيف : المشرق الإسلامي ص٩٠.

موضعك وعلى ألا يلقاك أحد منهم ، فقال : صدقت ، وانتصب لقضاء أشغالهم ، وكان قد مرض بخراسان وأشفى على التلف ، فلما أصاب العافية جلس ابن سهل للناس ليسمع تباريكهم وتهانيهم فلما فرغوا وأكملوا شرع في المخاطبة وفق خطة ابن أمرس المعتزلي قال : إن في العلل لنعمًا لا ينبغي للعقلاء أن يجهلوها : تمحيص الذنوب ، والتعرض لثواب الصبر ، والإيقاظ من الغفلة ، واستدعاء التوبة ، والمضي على الصدقة والإذكار بالنعمة في حالة الصحة ، فخفف ذلك من غلواء التزاحم [١].

وقد أطلق المأمون يد الفضل بن سهل في الأحكام والتدابير وفوض إليه ترتيب أمر المملكة ، فمما نقل إلينا في هذا السبيل قوله : وقد جعلت لك بعد ذلك مرتبة من يقول في كل شيء فتسمع منه ، ولا تتقدمك مرتبة أحد ما لزمت ما أمرتك به [٢].

تلك الحظوة جعلت من ابن سهل صاحب نفوذ قوي ، وغالى في مطاردة العديد من المنافسين مثل : طاهر بن الحسين ، وهرثمة بن أعين ، بدأت بطلب تسليم طاهر لجميع ما بيده من أعمال إلى أخيه الحسن بن سهل وإبعاده عن بغداد وإقصائه إلى منطقة الرَّقة ، واستجاب طاهر وآثر السلامة وتولى العمل الذي ظن أن تلك الحظوة من ترتيبات أمير المؤمنين [٣].

وحدثت الفتنة التي كانت سببًا في التعجيل به ، وملخصها : أن ابن سهل قد ستر عن المأمون ما حدث في أرجاء بغداد من التقاتل والتربص وخروج ابن إسماعيل المعروف بابن طباطبا وانضمامه إلى أبي السرايا ، ونفر الناس خاصة البيت العباسي من إقدام المأمون على تولية الرضا العلوي الأمر بعده ، الأمر الذي جعل بنو هاشم يجمعون أمرهم إلى إبراهيم بن المهدي ، ويبايعوا له بالخلافة ، وعندما استفحل الأمر ولم يستطع الحسن بن سهل إدارة أعمال بغداد وفلت منه الزمام خلا

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٥ ص٧١٢.

(٢) الجهشياري : الوزراء والكتاب ص٣١٧.

(٣) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ج٧ ص١١٦، والرقة بفتح الراء مدينة بالعراق .

(علي الرضا) بالمأمون وأسر إليه بأن الفضل بن سهل وزيره قد ستر عنه تلك الأخبار الساخنة ، وأن أهل بيته والناس نقموا عليه أشياء أظهرها ولاية العهد وأن ابن سهل غشه وكذبه ، وأن الحرب قائمة بين عمه إبراهيم والحسن بن سهل ، وأن الناس غير راضين عليك مكانه ومكان أخيه ومكاني ومكان بيعتك لي من بعدك ، فقال : ومن يعلم هذا من أهل عسكري ، فقال له : فلان وفلان ، فقال : أدخلهم عليَّ أسألهم ولم يتكلموا إلا بعد أن يضمن لهم الأمان من بطش ابن سهل ففعل ؛ فأخبروه جميعًا بما عليه الناس من الفتن وأخبروه بغضب أهل بيته ومواليه وقواده ، وذكروا المساوئ التي عليها الحال وأن الأمور لم تعد تتحمل بقاء المأمون في مرو فجاء مسرعًا إلى بغداد بعدما بعث إلى الفضل بن سهل في منطقة سرخس التي ذهب إليها من يقوم بأمر التخلص منه ، فأقدموا على ضربه بالسيوف حتى مات في شعبان (سنة ٢٠٢هـ - ٨١٧م) عن ستين سنة ، وجعل المأمون لمن جاء بقاتليه عشرة آلاف دينار وكانوا أربعة من مماليكه فقالوا : أنت أمرتنا بقتله ، فأنكر وضرب أعناقهم [(١)]، وقد قال المأمون أعياني جواب أم ذي الرياستين الفضل ابن سهل عندما صرت إليها أعزيها فيه وقلت : لا تأسي عليه فإني عوضه لك ، قالت : يا أمير المؤمنين : وكيف أحزن على ولد أكسبني مثلك [(٢)]، وزاد طيفور أن المأمون لما وجدها تبكي على ابنها الفضل قال لها : أنا ابنك مكانه فدعي البكاء ، فقالت : إن ابنا ترك لي ابنا مثلك لجدير أن يبكي عليه [(٣)].

الحسن بن سهل الجواد الوفي :

الوزير بعد أخيه الفضل وقد كان يتولى أمر بغداد فحاول المأمون استرضاء آل سهل فعين الحسن لهذه الغاية ، وقد بعث المأمون برءوس الذين قتلوا الفضل في حمام سرخس وأرسل بمخطوط إلى الحسن معزيًا واعلمه ما دخل عيه من المصيبة بقتل

---

(١) الطبري : مرجع سابق ج٧ ص١٥٥ والذهبي سير أعلام النبلاء ج٩ ص ٥١ .

(٢) الذهبي : مرجع سابق ص ٤٩ .

(٣) بلاغات النساء ص٣١٢ .

قرينه وصديقه الفضل وأنه قد صيره مكانه[1] وعاش الحسن في أوفر عيشه بعدما استوزره المأمون بعد أخيه المقتول ، وما زال في صعود وترقى في مكسبات العمل الإداري حتى أنه بنى لنفسه قصرًا منيفًا على ضفة دجلة الذي أكمل مناظره على هيئة قصور الخلفاء ، وعرف بالقصر الحسنى نسبة إليه ، وقد تزوج المأمون بيته بوران سنة عشرة ومائتين فلا يوصف ما غرم الحسن على عرسها ، ويقال : بأنه صرف على مجرد الوليمة والنثار أربعة آلاف دينار وعاش في أوفر عز وحرمه وكان يدعي بالأمير [2].

وكان فردًا في الجود والسخاء وأعانه الأصحاب أوقات احتياجاتهم ، فمما يروي أن الكاتب الشهير الحسن بن وهب قد مر بضائقة مالية أُنزِلَتْ به ، فشكى إلى الوزير الحسن بن سهل مما يحيق به فوصله بمائة ألف دينار دفعة ، كما وصل الكاتب البارع محمد بن عبد الملك الزيات مرة بعشرين ألفا ومرة بخمسة آلاف دينار [3]، وفد على مجلسه الحافل شاعر مغمور يبغي صلته ، فأدخله واستمع إليه ولم يعبأ برثاثة ثيابه ، قال :

المَالُ وَالعَقْلُ مِمَا يُسْتَعَانُ بِهِ ... عَلَى المَقَامِ بِأَبْوَابِ السَّلاَطِيْنِ
وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنِّى مِنْهُمَا عَطِلٌ ... إِذَا تَأَمَّلتَنِي يَا اِبْنَ الدَهَاقِينِ
أَمَا تَدُلُّكَ أَثْوَابِي عَلَى عَدَمِي ... وَالوَجْهُ إِني رَئَيْسٌ فِي المَجَانِينِ
واللهِ يَعْلَمُ مَا للمُلْكِ مِنْ رَجُلٍ ... سِوَاكَ يَصْلُحُ للدُّنْيَا وَاللدينِ

وعلى الفور أمر له بكيس نقود به عشرة آلاف درهم أخذها وبعدها انصرف شاكرا [4] ، كما أراد أن يكتب لقاء مرة ألف درهم فسبقته يده فكتب ألف ألف درهم ، فروجع في ذلك فقال : والله لا أرجع عن شيء كتبته يدي ، فصولح

(١) ابن طبا طبا الفخري ص ٢٠٩ .

(٢) الذهبي العبر في أخبار من غبر ج١ ص٤١٤ وسرخس التي مات فيها الفضل مدينة قديمة من نواحي خراسان كبيرة واسعة وهي بين نيسابور ومرو وياقوت معجم البلدان ص٢٨٧.

(٣) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٩ ص ٤٣٠ .

(٤) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج٣ ص١٦٧ .

الفاء على جملة منها[1] .

وقد كان الحسن أعظم الناس منزلة عند المأمون ـ كما ينوه ابن طباطبا ـ وكان المأمون شديد المحبة لمفاوضته ، فكان إذا حضر عنده طاولة الحديث وكلما أراد الانصراف منعه : فانقطع زمان الحسن بذلك وثقلت عليه الملازمة ـ فصار يتراخى من الحضور إلى مجلس الخليفة بسبب مرض ألم به في دماغه يسمى السوداء يصيبه بالاختلاط من جراء حزنه الواصب على قتل أخيه بهذه الصورة الشنيعة ، فانقطع الحسن في داره لا يزور أحدا وظل المرض ملازمًا لحاله واستمر التغير في علقه حتى شُد في الحديد [2] ، وهذا آخر العهد به في إدارة العمل الوزاري للمأمون أو لغيره حتى لحقته يد المنون بمنطقة سرخس في ذي القعدة سنة ست وثلاثين ومائتين هجري .

الجاحظ الكاتب المميز :

هو العالم المشهور صاحب التصانيف في كل الفنون ، أبو عثمان عمرو بن محبوب الليث المعروف بالجاحظ ، وله أيادي طولى في الأدب والنثر حتى عده البعض مؤسس مدرسة النثر العربي ، وقد تميز بسعة إطلاعه وغزارة علمه ووضوح بيانه وقوة حجته ، إلى الدرجة التي جعلت ثابت بن قرة المترجم أعجب به وعده من عظماء الدولة الإسلامية حيث قال : ما أحسد هذه الأمة إلا على ثلاثة : أولهم عمر بن الخطاب وثانيهم الحسن البصري وثالثهم أبو عثمان الجاحظ[3] .

لهذه الغاية ولعلمه الغزير ولنبوغه في ملتقى العلوم التي أصبح فيها قطب الراية ونجم الرسائل العجيبة بعث الخليفة المأمون في طلبه وولاه ديوان الرسائل التي أجاد في مصنفاته واستعاد وجمع الشتات المتفرق وأضفى على كل ما خطه يراعه من سحر بيانه واستيعاب أطراف موضوعه ، وسَوْق المعلومات الضافية المناسبة على سبيل الاستطراد وحسن الربط بينها ، وكتب نحوًا من سبع عشرة رسالة للولاة والعمال وقواد الجند في تلك الفترة التي تولاها ، وهي على الأرجح ثلاثة أشهر لا كما يدعي

---

(١) الذهبي : المرجع السابق ص ٤٣٠ .

(٢) ابن طباطبا الفخري ص ٢١٢ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج١ ص٦٠١ .

البعض [1] ، وعقب على رأيه بأنه لو ثبت في هذا الديوان أن أفل نجم الكتاب لأنه لنبوغه سيظهر عليهم فيصغر شأنهم ويظفر بالمجد وحده » .

وكان المأمون يجله ويقدره ويقربه ولا يباعده ويمده بالمكآفات والألطاف لما وصل إليه من شهرة علمية ذائعة واحتوائه للمعارف الذاخرة ، فكان أحد سمار مجالسه لما له من ذكاء حاد وعقل راجح وفهم صحيح لمدارج علوم العصر ، التي جعلت له المكانة المرموقة بين القواد والخلفاء والوزراء والكبراء الذين استعادوا كل ما قاله في حضرتهم أو ما كتبه في مساجلات الرقاع التي عدت وهو معهم من حسنات هذا الزمان الذي عاش فيه[2] .

ومن رسائله السائرة للوزير أحمد بن أبي خالد في يوم عيد « سيدي أخَّرتني العلة عن لقاء الوزير أعزه الله ، فحضرت بالدعاء في كتابي هذا لينوب إليك عني ، ويعمر ما أخلفت العوائق منى ، وأسأل الله تعالى أن يجعل هذا العيد أعظم الأعياد السالفة بركة على الوزير ودون الأعياد المستقبلة فيما يحب ويحب له ، ويقبل منا ما نتوسل إلى مرضاته ، ويضاعف الإحسان إليه على الإحسان منه ، ويمتعه بصحة النعمة ولباس العافية[3] .

صاحب ديوان الرسائل أحمد بن يوسف :

الكاتب البارع الحجة الثبت الملم بأغوار المعاني والمحيط بأسرار مهنة الكتابة : أبو جعفر أحمد بن يوسف بن القاسم أحد الفحول الأكابر في ديباجة الرسائل ، ومن صناع الكلمة البليغة الرصينة ، وقد كان جده صبيح مولى قبطيًا لبني عجل ، أقام بالكوفة زمنًا وأشيع عن تلك الأسرة النجيبة المحتد بإيثارها الجانب العلمي الموصل لدرجات الصعود لارتقاب الأمجاد الإدارية ، وقد داوموا على التفرغ للعلم والأدب وتفننوا في الكتابة والمعارف الأدبية التي كانت بالقطع توصلهم إلى

---

(١) أحمد أمين : تاريخ الأدب العربي ص١٥.

(٢) أحمد الاسكندراني الوسيط ص٢١٢.

(٣) ابن خلكان : مرجع سابق ج٥ ص١٩٣.

دواوين الخلفاء أكثر من قرن مضى ، وهاهو القاسم العربي اللسان والمصقع في البيان يصل إلى مكانة الأثير في دواوين بني أمية ، ثم خلفه في هذا الطريق ابنه يوسف الذي استهل مع قدوم الخلافة العباسية فعمل في دواوينها ، ولمع تحت ظلالها أحمد المترجم له المشهور بذكائه وسعة إدراكه ، فخدم هذا الكاتب الألمعي الذي اندمج في معية آل البرامكة ، ودار فلكه مع حركة طموحاتهم ، وتقلبت في غضون الأمجاد الباسقة أحواله ، وهو الذي سما في رغد العيش ورفيع الهمة حتى وصل إلى بلوغ ما يرتقبه للكتابة لذي الرياستين وزير المأمون الفضل ابن سهل ، وعندما لمع اسمه في آفاق عمله اتخذه المأمون رئيس ديوان رسائله التي برزت بين أقرانه مواهبه ، فصدرت عنه أبلغ الكتب والتوقيعات المؤثرة [1].

ومن أبدع الرسائل التي تنسب إلى ابن يوسف وكانت سببًا مباشرًا في صلاح أمره عند الخليفة المأمون ؛ تلك الرسالة الخطية التي دبجها على لسان قائده المهيب طاهر بن الحسين بن محرز موجهةً إلى المأمون بعد انتصاره وتمكنه من الأمين بمقتله ، قال : أما بعد فإن المخلوع وإن كان قسيم أمير المؤمنين في النسب واللحمة فقد فارق حكم الكتاب بينه وبينه في الولاية والحرمة لمفارقته عصمة الدين وخروجه على إجماع المسلمين ، قال الله عز وجل لنوح عليه السلام في ابنه : ﴿ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ﴾ . ولا صلة لأحد في معصية الله ما كانت في ذات الله [2]، ومن التوقيعات المهمة لذاتها والموجهة إلى عامل ظالم غشوم ، الحق طريق واضح لمن طلبه تهديه محجته ، ولا تخاف عثرته ، وتؤمن في السر مغبته ، فلا تقلن منه ، ولا تعدلن عنه ، وقد بالغت في مناصحتك فلا تحوجني إلى معاودتك فليس بعد التقدمة إليك إلا بعد سطوة الإنكار عليك [3].

---

(١) ابن قتيبه : المعارف ص٤٠٨، بتصرف .

(٢) المبرد : الكامل في الأدب ص٢٨٧.

(٣) المرجع السابق ص٢٨٧.

ومن كتابته الإخوانية الجميلة ما صاغها ابن يوسف في تهنئة ابن طاهر بمولود له قال : أما بعد .. فليس من أمر يجعل الله لك فيه سرورًا إلا كنت بها بهجًا ، اعتد فيه بالنعمة من الله الذي أوجب عليَّ من حقك ، وعرفني من جميل رأيك فزادك الله خيرًا وأدام إحسانه إليك ، وقد بلغني أن الله وهب لك غلامًا سريًا ، أجمل صورته وأتم خلقه وأحسن فيه البلاء عندك ، فاشتد سروري بذلك وأكثرت حمد الله عليه ، فبارك الله فيه وجعله بارًا تقيًا يشد عضدك يكثر عددك ويقر عينك [1]، وقد قال إبراهيم ابن العباس سمعت ابن يوسف يقول : أمرني المأمون أن أكتب إلى النواحي في الاستكثار من القناديل في المساجد ، فبت لا أدري كيف أفتتح الكلام ، فأتى آت في منامي فقال : قل : فإن في ذلك أنسًا للسابلة وإضاءة للمتهجدة ، ونفيًا لمكامن الريب ، وتنزيهًا لبيوت الله عن وحشة الظلم فأتممتها [2].

الكاتب المؤثر عمرو بن مسعده :

الكاتب الضليع والأديب البارع الحجة عمرو بن مسعدة ، أحد أركان دولة الكتابة في عصر الدولة العباسية ، فقد تهيأت له كل أسباب النجابة والتفرد في الخبرة الديوانية والأعمال الحكومية ، فإن أبا الفضل هذا ابن عم إبراهيم بن عباس الصولي [3] وجدهما صول تركي من أشراف جرجان ، أسلم على يد يزيد بن المهلب أثناء فتوحات خراسان ، وخدم أحفاده في دواوين بني العباس فكان مترجَمنا الأريب هذا كاتب التوقيعات بين يدي الوزير البرمكي جعفر أيام الرشيد ، وظهرت براعته الكتابية مبكرًا حيث قال : كنت أوَقِّع بين يدي جعفر فرفع إليه غلمانه ورقة يستزيدونه في رواتبهم فرمى بها إلي فقال : أجب عنها فكتبت : قليل دائم خير من كثير منقطع . فضرب بيده على ظهري وقال : أي وزير في جلدك [4].

---

(١) أحمد الإسكندراني الوسيط ص٢٠٢.

(٢) ابن قتيبه : مرجع سابق ص٤٠٨.

(٣) هو ابن إبراهيم بن العباس بن محمد من صول أشهر كتاب العراق في زمنه ، كان كاتبًا بليغًا لا يستملي معانيه البديعة إلا من فكره وقريحته ، وقد كان يتشيع فلما بويع المأمون بالخلافة في خراسان وعهد بها من بعده إلى على الرضا العلوي رحل إليه إبراهيم ومدحه بقصيدة فأجازه ، واتصل بذي الرياستين الفضل بن سهل فجعله من كتاب الدواوين في الدولة .

(٤) الجهشياري الوزراء والكتاب ص٣٢٢.

وبالفعل تدرج هذا الأديب المميز في سلك هذا الديوان حتى بلغ الشأو في زمن المأمون الذي قلده الوزارة لأشهر قليلة ، بل وجعله من أوفى خلصائه ومن أبرز أهل الثقة في مجالسه وأعماله وكان يقول له : أنت أبلغ كتاب الإيجاز وأحسن من أحاط البيان . حيث كان المأمون يُقدِّر بلاغته في إيجازه العجيب ، وكان يقربه على جميع الأحوال ، وقد توفي في بلاد أذنه ـ أطنة ـ التركية أثناء حرب المأمون لتلك المنطقة ومواجهة الروم عندها سنة ٢١٥[١] .

ومن أهم رسائله التي خطها في حياته المؤثرة ما كتبه إلى المأمون في رجل يستشفع له بالزيادة في منزلته عنده وجعل كتابه تعريضًا لنفسه ، أما بعد : « فقد استشفع بي فلان يا أمير المؤمنين لتطولك علي في إلحاقه بنظرائه من الخاصة مما يرتزقون ، وأعلمته أن أمير المؤمنين لم يجعلني في مراتب المستشفعين وفي ابتدائه بذلك تعدي طاعته والسلام » فوقع المأمون على تلك الرقعة المحمولة ، قد عرفنا تصريحك له وتعريضك لنفسك وأجبناك إليهما ووقفناك عليها [٢].

وكتب مرة وهو مع جيش متأهب لقتال بعض المرتزقة وقد نفذت أرزاق الجند ، فكانت رسالته إلى الخليفة المأمون يستمده بالمال وأرزاق العسكر ؛ لأنهم بدرت منهم القلاقل قال : « كتابي إلى أمير المؤمنين ومن قبلي قواده وسائر أجناده في الانقياد والطاعة على أحسن ما تكون عليه طاعة جند تأخرت أرزاقهم واختلت لذلك أحوالهم ، فأعجب المأمون ببلاغته وإيجازه وأمر للجند قبله بعطائهم لسبعة أشهر » ومن رسائل ابن مسعدة المشتهرة السديدة على لسان المأمون إلى أحد عماله يوصيه بشخص : كتابي إليك كتاب واثق بمن كتب إليه معنيٌّ بمن كتب له ولن يضيع حامله بين الثقة والعناية [٣].

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ص١١٧.

(٢) الوسيط ص ٢٠٢.

(٣) الجهشياري مرجع سابق ص٣٢٢.

قاضي القضاة يحيى بن أكثم :

لقد كان يحيي بن أكثم أقرب القضاة إلى قلب المأمون ، وكان له أكبر الحظوظ في التنويه بجل مواقفه مع ذلك الخليفة في حله وترحاله في جلساته للمظالم وفي نزهاته وإقاماته واستشاراته ، ومجالسه مع الخواص وعموم الناس ، فلا أعتقد أنه في حاجة إلى زيادة المعلومات تكشفه إلى عالم الأضواء أكثر مما قدمناه سلفا حتى لا نقع تحت طائلة التكرار والحشو ، ولهذا سوف نكتفي في تلك الأسطر القادمة باللفتات وموجز المعلومات فوق ما قدمناه ، لأن ما عرض في مكانه يتبع الغناء والكفاية ، فالتعريف به أول درجات الإيجاز ، فهو أبو محمد يحيي بن أكثم بن صيفي التميمي ، وتتواكب المواقف السعيدة مع الأقدار الموفقة في تعيينه قاضيًا للمأمون ، وذلك عندما هَمَّ أن يختار رجلاً من أهل الكفاية العلمية والفقهية وصاحب نظر ورؤية ثاقبة ، فذكر ذلك لسميه الحسن بن سهل فوصف له هذا الرجل المعنيٌ ، فاستحضره فلما أتى ادخلوه عليه ، وكان دميم الخلقة فاشمأز الخليفة لذلك فلاحظ يحيي ذلك من قسمات وجه المأمون ، فأسعفته القريحة الوقادة التي لم تغب عنها الفراسة ، قال : يا أمير المؤمنين ؛ سلني إن كان القصد علمي لا خَلقي ، فسأله المأمون تلك المسألة الشهيرة والمنسوبة إلى المأمون (المسألة المأمونية) لحالها ومحتواها : أبوان وبنتان لم تقسم التركة حتى إحدى البنتين وتركت من في المسألة سواها . فقال يحيي : يا أمير المؤمنين الميت الأول رجل أم امرأة ؟ فعرف المأمون حصافة الرجل وأنه قد حل معضلة المسألة فأجازه وحياه وقربه وقلده القضاء[1] .

ويقال أن ابن أكثم القاضي لما علت مكانته عند المأمون فاستشاره في أمر من يختارهم من القضاه غيره وطريقته أن قال للخليفة : أظهر للقاضي ما تريد أن توليه إياه وأمَرُه بكتمانه ثم انظر أيفعل أم لا ؟ وضع عليهم أصحاب أخبار ، فقال له المأمون أوليك قضاء القضاة ، وقال لغيره ما يريد أن يوليه فشاع ذلك كله إلا خبر يحيي فإنه أتاه أن الناس ذكروا أنه يريد الخروج إلى البصرة على

---

(١) ابن خلكان وفيات الأعيان ج٢ ص١١٧.

قضائها . قدمهم وقال له : كيف شاع هذا وأمرت باكتراء السفن إلى البصرة ؟ قال يحيي : يا أمير المؤمنين ليس يستقيم كتمان شيء إلا بإذاعة غيره ، وإلا وقع الناس عليه ، قال المأمون : صدقت وأثنى على فعلته [1].

ومن دلائل الثقة في هذا القاضي الجرئ أن ولاه المأمون قيادة الجيش المتأهب للجهاد ضد الروم في تلك الغزوة التي قصدت أرض أدنه من أعمال الروم سنة ٢٠٢هـ ثم عاد بعد أن أظهر للعدو قوة الجيش الإسلامي الذي كان يتألف من سبعة آلاف مقاتل في تقدير ابن خلدون[2].

الوالي الكفء عبد الله بن طاهر :

الأمير العادل أبو العباس حاكم خراسان وما وراء النهر ، وشهدت أرض الكنانة بعضًا من إصلاحاته وعظيم إنجازاته عندما جاء إليها ليعيد إلى أركانها الهدوء والاستقرار بعد طول اضطراب ، حيث واجه هذا الرجل الشجاع الأريب في مصر قوتان تناوئان حكم المأمون : قوة يشحذها عبيد الله السري الوالي من قبل الأمين ، وأخرى يدعمها بسطوته المسمى على بن عبد العزيز الجروي ، ونزل بقواته المشاغبة شمال الدلتا وتحصن بها ، يقول الطبري وزحف عبد الله بن طاهر بجيشه الكبير متوجهًا إلى مصر سنة ٢١١هـ بعد فراغه من القضاء على فتنة نصر بن شبث [3] فسار وشق طريقه إلى أن وصل إلى الفسطاط فحاصرها وبعث هذا القائد الموفق إلى الوالي الثائر ابن السرى يحسن له أمر الأمن بعد إعلان الطاعة إن أراد إلا أن الوالي ركب الصعب ورفض بل حاول بطريقته التلويح للقائد العباسي بموفور الهدايا وثمين الجواهر باحتساب أن ذلك يثنيه عن مصر واقتحام الفسطاط ، غير أن عبد الله أعاد الهدايا مع من حملها إليه ومعها رقعة بخطه فيها لو قبلت هديتك نهارًا لقبلتها ليلاً بل أنتم بهديتكم تفرحون [4] ، فحارب

---

(١) ابن قتيبة : المعارف ص٣١٨.

(٢) المقدمة ص١٩٣.

(٣) سوف يأتي تفصيل ذلك فيما يلي.

(٤) تاريخ الأمم ج٧ ص١٧١.



ابن طاهر خصمه الذي فرَّ سرًا تاركًا أمر الفسطاط لمن اقتحمها ، وبعد أن تمكن ابن طاهر من مصر وأعاد إليها الأمان وطرد منها بعض القوات الأندلسية التي نزلت بثغر الإسكندرية قسرًا ، واستطاع ابن طاهر أن يقضي على الفوضى والاضطرابات التي كانت تحدث بسبب المشاحنات والتنافس بين العناصر المتكالبة ، فاستوثقت له الرعية من أهل مصر بالسمع والطاعة ، وكان للشعر صوته المعلن في تلك الاستجابة الشعبية فقال معلى الطائي :

يَا أَعْظَمَ النَّاسِ عَفْوًا عِنْدَ مَقْدِرَةٍ ... وَأَظْلَمَ النَّاسَ عِنْدَ الجُودِ بِالمَالِ

لَوْ يَصْبِحُ النِيلُ يَجْرِي مَاؤُهُ ذَهَبًا ... لَمَا أَشَرْتَ إِلَى خَزْنٍ بِمِثْقَالِ[1]

وعندما عاد ابن طاهر إلى العراق بعد أن أدى مهمته السامية في أشهر قليلة استقبله المأمون بحفاوة بالغة ، وكان في مقدمة من استقبله من أسرة الخليفة العباس بن المأمون والمعتصم أخوه وأعيان البلد وأرباب المناصب العالية ، وكافأه المأمون بأن ولاه خراسان وأبقى له مصر ينيب من يراه صالحًا من رجاله ، فأناب ابن طاهر عيسى بن مزيد الجلودي الخراساني الأصل واللحمة[2].

وعن هذا الجانب يقول الذهبي : إن ابن طاهر قد قلد مصر وأفريقيا ثم خراسان ، وكان ملكًا مطاعًا سائسًا مهيبًا جوادًا ممدحًا من رجال الكمال ، وقد أدخل تحسينات على المسجد الجامع بالعتيق ، فزاد في عدد أبوابه ورمم جدار حائط القبلة ودعمه بأحجار سميكة ثم أظهر كتابات المحراب وجمل ما سواه بالملاط ، وكانت صلاته جمة فقال إنه وقَّع مرة على رقاع بصلاتٍ بلغت ألف ألف وسبعمائة ألف ، وهو القائل سمن الكيس ونُبْلُ الذكر لا يجتمعان ، وقد ارتحل إليه الشاعر الأشهر أبو تمام وامتدحه بغرر الكلام مثل :

وَرَكْبٌ كَأَطْرَافِ الأَسِنَّةِ عَرَّسُوا ... عَلَى مِثْلِهَا وَاللَيْلُ تَسْطُو غَيَاهِبُهُ

---

(١) الخطيب البغدادي تاريخ بغداد ج٩ ص٤٨٤.

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٢ ص٢٧٤ .

وَعَتْـهُ الفَيَـافِي بَعْـدَمَا كَـانَ حِقْبَـةً رَعَاهَا وَمَاءُ الرَّوْضِ يَنْهَلُّ سَاكِبُهْ
إِلَيْـكَ جَزَعِنَـا مَغْـرِبَ المُلْـكِ كُلَّـهَا هَبَطْنَا فَلا ضَلَّت عَلَيْكَ سِبَاسِبُهْ[1]

ثانيًا : أهم العلماء الأعلام في عهد المأمون :

سطعت في سماء دولة المأمون أنجم العلوم والمعارف وبرزت معالمها في الساحة الشاسعة من أرض معمورة الإسلام ، وكان لها صداها ومغزاها في سماء الدنيا عندما تخطت أسهمهم في كل المجالات التي برعوا فيها حدود البلد التي شهدت تفوقهم وسددت بالحق والتشجيع كل نتاج عطائهم ، ونحن نقدمهم هنا وبكل فخر لمن يريد زادًا مصوراً مجسمًا لحسنات الزمان الماضي ، ليلهب حماس أبناء هذا الزمان الذي نعيش فيه ليسير على الدرب إن أراد .

يعقوب بن إسحق الكندي الفيلسوف:

هو أبو يوسف يعقوب الكندي فاضلُ دهره وواحد عصره في معرفة العلوم القديمة بأسرها ، والمتبحر بسائر المعارف الحكمية المنقولة عن الحضارات السابقة هندية كانت أو يونانية أو فارسية [2] ، ففي الوقت الذي ظهر فيه ذلك العالم الجهبذ « الكندي » على مسارح الفكر في داخل أقطار الإسلام ؛ كان معظم المشتغلين بالعلم والفلسفة إن لم يكن جميعهم نصارى وصابئة ، وكان من الطبيعي أن يعني بالفلسفة أولئك الذين كانوا من المشتغلين بها قبل دخولهم في الإسلام ، وكان أغلبهم من السريان والصابئة مثل حنين ابن إسحق وابنه أسحق ، وثابت بن قره ، وقسطا بن لوقا ، ولم يقل أحد عن واحد منهم هو فليسوف العرب ، ذلك اللقب الذي إزدان به مفرق الكندي العالم العربي الكبير[3] .

وقد نشا يعقوب المولود سنة ١٨٥ هـ بالكوفة وتركه أبوه طفلاً فنشأ بتلك المدينة

---

(١) سير أعلام النبلاء ج٩ ، ص٣٠٩ معنى جزعنا الأرض : قطعناها عرضًا ، ومغرب الملك : الشام والملا ، الصحراء والسياسب : الأرض المستوية .

(٢) سير أعلام النبلاء ج٩ ص ٣٠٩ .

(٣) مصطفى عبد الرازق : فيلسوف العرب والمعلم لثاني ص ٤٧.

في حضن اليتم بعد أن توارى عن أسرته العز الزاهر ، ومع أن الكندي نشأ يتيمًا إلا أنه رأى آثار أبهة الإمارة وهو صبي ، فانطبعت في صفحة خياله أنه سليل الملك وربيب المجد ووريث تقاليد جرت في أصلاب الأسرة جيلاً بعد جيل[١].

كان الكندي العالم الفهامة المجرب والمتفرغ لحقائق العلوم جديرًا بالمكانة التي وُضِع فيها إبان عصره لما أورثته النجابة وحب العلم من إلمام فائق في متفرعات الثقافة فنال حظه الأوفر من زاخر كنوزها التي وجدت بين يديه ، وبما سعى لاقتناء حقائقها من متونها وأصولها بعد ترجمتها وتشذيب مفرداتها ، حتى غدت مع جهوده كيانًا علميًا ينسب إليه ، يقول ابن النديم : « نشأ الكندي في الكوفة وتعلم في البصرة ، ثم انتقل إلى بغداد التي ازدهرت فيها النهضة العلمية والعمرانية حتى نافست الكوفة والبصرة في البحث والدرس ، ولم تكن جهود الكندي مقصورة على دراسة الفلسفة والكتابة فيها ، بل كتب في كثير من العلوم مثل المنطق والهندسة والنجوم والحساب والموسيقى النظرية والبصريات[٢].

هكذا نلحظ أنه واسع المعرفة ذا جلد ودأب فحظي بالمنزلة الرفيعة عند المأمون المقدر للعلم والعلماء ، وقد شجعهم بشتى ألوان الحوافز والمكافآت ؛ حتى غدت دولته تتلألأ بأنجم عظماء العصر الذين خدموا الحضارة الإسلامية بقسط هائل من وافر المعارف والآداب وسمو المنازل التي هم جديرون بتبوئها عن جهد وبصر ومساهمة ، وإن كانت المناصب السياسية لم تشغل فكره المتّقِد وعيًا بما هو أبقى لخدمة الإنسانية ، فارتفعت مكانته وتخطت حجب العصر الذي عاش فيه ، بل وسبقت شهرته في المحافل العالمية الكثير ممن لمع بريق المنصب من أسمائهم في أزمانهم ، وعندما انقضى الوقت وطويت صفحات حياتهم انزوت أماكنهم وانطفأت الجذوة وجعلتهم في عداد المغمورين ، غير أن الكندي رفع نفسه فوق منزلة هؤلاء جميعًا بما حصله وجمعه من رصيد الخلود العلمي » ويكفي له شرفًا

---

(١) فيلسوف العرب ص٢٦.

(٢) الفهرست ص٣٥٧.

أن جعل لنفسه مذهبًا فلسفيًا ينسب إليه ، جمع فيه بين آراء أفلاطون وأرسطو ، واعتبر الرياضيات الفيثاغورثية أساس العلم كله[1].

ويقول الأهواني : إن الكندي قد تعلم الفلسفة وما يتصل بها من علوم طبيعية ورياضية في بغداد وكانت تلك العلوم لا تزال في أيدي قلة قليلة من السريان شرعوا في نقلها عن اليونانية وعن السريانية ، لأن تلك العلوم في أساسها يونانية وإن يكن بعضها فارسيًا أو هنديًا ، ولم يكن ثمة سبيل لمن يرغب في الإطلاع على حقيقة هذه العلوم إلا أن يردها في منابعها ويأخذها من أصولها ، ولا مناص لمن يفعل ذلك إلا أن يتعلم اللغتين اليونانية والسريانية أو يلجأ إلى من ينقل له عنها[2].

وكانت الكتب في ذلك الزمان تقتنى بالنَّسْخ ، ولما كان الكندي صاحب مكتبة كبيرة سميت « بالكندية » ، فلا جرم أنه كان يحتاج إلى دفع كثير من المال أجرًا لانتساخ ما فيها ، غير أنه لم يبلغ من الثراء مبلغ غيره في البذل ولم يستطع مجاراتهم ، وعندما تعرض الكندي لتصنيف العلوم واجه مشكلة هذه التصانيف المختلفة ؛ أيأخذ بواحد منها فقط أم يوفق بينها ؟ وكان عليه باعتبار أنه أول عربي مسلم خاض غمار الفلسفة فآثر التوفيق ولاءم بين الاتجاهات[3].

العلامة الخوارزمي :

ومن الشخصيات اللامعة التي استظلت بالأمان المعيشي والتشجيع العلمي الفائق في هذا العهد النبيل للخليفة العالم المأمون ، عالم الرياضيات الأشهر محمد بن مرسي الخوارزمي .

إن عالم الحضارة الإسلامية يتباهى بإصداره وتصلدره ونفاذه إلى العالمية من واسع الآفاق في مدارات نبوغه وكفاحه العلمي الجيد في بابه ، خاصة علم الجبر والمقابلة ، فعالِمُنَا الثبت الخوارزمي قد قدم ويفخر إلى ساحة المعارف أقدم

---

(١) انظر مصطفى زيادة : الدولة الإسلاميةص١٥٦.

(٢) أحمد فؤاد الأهواني : فيلسوف العرب ص٣٧، ٣٨.

(٣) المرجع السابق ص٧٥، ٩٨.

مرجع عربي في الجبر سماه « حساب الجبر والمقابلة » وجمع فيه أكثر من ثمانمائة مسألة فهو أول من ألف فيه في عصر المأمون ، وقد حقق كتابه هذا شهرة ذائعة منقطعة النظير ، فقد حل المعادلات من الدرجة الثانية كما عرف الحالة التي يكون فيها الجذر كمية تخيلية ، فقد قال : اعلم أنك إذا أنصفت الأجذار وضربتها في مثلها فكان ذلك يبلغ أقل من الدراهم التي مع المال فالمسألة مستحيلة ، كما حل معادلات من الدرجة الثانية ذات المجهولين ، كما حل معادلات من قوى أعلى ، وابتكر طرقًا هندسية لحل بعض معادلات الدرجة الثانية ، وفي باب المساحة عمليات حلها بطرق جبرية « فلم نعثر على كتاب واحد يشبه كتاب الخوارزمي ، وتتجلى عبقرية هذا الرجل في أنه أوجد علمًا من معلومات مشتتة وغير متماسكة حيث كان ينبغي أن تجتمع الهندسة الإغريقية والحساب الهندي لكي ينشا علم الجبر الذي حمل معه اسمه العربي إلى الجامعات الأوربية بعد ترجمته إلى اللاتينية[1].

ويبرز الخوارزمي حقائق ما توصل إليه من خطوات مهمة لهذا العلم يقول : أنه وجد أن الأعداد التي يحتاج إليها في حساب الجبر والمقابلة على ثلاثة ضروب وهي جذور وأموال ، وعدد مفرد لا ينسب إلى جذر ولا إلى مال ، فالجذر كل شيء مضروب في نفسه من الواحد وما فوقه من الأعداد وما دونه من الكسور (س) ، والمال : كل ما اجتمع من الجذر المضروب في نفسه (س٢) والعدد المفرد : كل ملفوظ به العدد بلا نسبة إلى جذور ولا إلى مال وهو العدد الخالي من (س) [2].

وإلى مؤلفات الخوارزمي يرجع الفضل في إدخال الأرقام العربية إلى أوربا وقد عرفت هذه الأرقام عند الأوربيين باسم « الخورزمس » يعني الخوارزمية نسبة إلى الخوارزمي[3].

فقد كانت الطريقة الإغريقية ـ قبله ـ في الحساب عقيمة بقدر ما كانت هندستهم

---

(١) قدري حافظ طوقان : تراث العرب العلمي ص٢٠٧ .

(٢) عبد الحليم منتصر : تاريخ العلم ص١٠٢ .

(٣) فليب حتى : تاريخ العرب ج٢ ص٤٨٠ .

خصبة ، فقد كانوا يستخدمون تسعة حروف أبجدية للدلالة على الأرقام من (١ – ٩) ثم تسعة أخرى للدلالة على الأرقام من (١٠ـ ٩٠) ثم تسعة أخرى للدلالة على المئات وبعد ذلك يستخدمون نفس الأحرف بإضافة حركة تشبه الفتحة ، فلما انتقل حساب الهنود وهندسة الإغريق إلى الخوارزمي بدأ في وضع علم الجبر وعلمه للناس جميعًا [١] وقد ترجم كتاب الجبر والمقابلة إلى اللغة اللاتينية في القرن الثاني عشر الميلادي وظل يدرس في الجامعات الأوربية حتى القرن السادس عشر ، وقد كان له كتاب في تقديم البلدان شرح فيه أراء بطليموس وله كتب عدة أخرى [٢].

أبناء موسى بن شاكر النجباء :

كانت تلك الكوكبة المنتظمة في دولة المأمون من أفاضل علماء العصر في العديد من الملتقيات العلمية الزاخرة التي جمعتهم في أروقة البحث والنقل والمدارسة والتأليف والابتكار وشتى سبل المعارف التي برعوا في حقائقها وعددًا من أعلامها ، ولهم السبق في غير موضوع الأفانين التي سجل التاريخ العلمي أسماءهم في صدر الصفحات ، « فقد ألف بنو موسى في موضوعات مختلفة من هندسة وحيل ومساحة ومخروطات وهيئة ، لهم كتب في المساحة وقسمة الزاوية إلى ثلاثة أقسام متساوية ، وكتاب في الآلات الحربية وآخر في حركات الفلك الأول وكتاب في الشكل الهندسي وكتاب في الشكل المدور والمستطيل وكتاب في أولية العالم ، وقد ترجمت بعض كتبهم إلى اللاتينية[٣] ، وقد حاول المنافسون إلصاق بعض التصرفات الشائنة بموسى بن شاكر الأب [٤] ، وذلك قبيل اتصاله بالخليفة المأمون ، وقد كان ابن شاكر من منجميه المقربين من مجالسه وموضع أسراره وقد كان قد اشتهر أمره أبان تلك الفترة

---

(١) منتصر : المرجع السابق ص١٠٣.

(٢) فليب حتى المرجع السابق ص٤٨٠.

(٣) منتصر : تاريخ العلم ص١٤٨ .

(٤) قيل أنه كان في حداثته قاطع الطريق يصلي العشاء في المسجد ثم يغير زيه فيقطع الطريق على فراسخ كثيرة من طريق خراسان وينصرف من ليلته فيصلي الصبح مع الجماعة ثم تاب بعد ذلك .

في مجال الترجمة والتأليف العلمي والفني ، ولما توفي موسى خلفه أبناءه الثلاثة - محمد وأحمد والحسن - صغارًا ، فوصى بهم المأمون إسحق بن إبراهيم حاكم بغداد بأن يراعيهم ويسأل عن أخبارهم وكانت كتبه ترد إلى الوالي تحمل هذا المعنى حتى قال إسحق : جعلني أمير المؤمنين دابة لأولاد موسى بن شاكر [1] وقد خلف هذا العالم الضليع في الهيئة والترجمة أبناءه في كنف الخلافة التي لم تهمل تلك المجموعة التي رباهم أبوهم في محافل العلم وعلى بساط الثقافة الرحيب ، فأحب الخليفة أن تستمر جهود الأب المتوفي ، وقد لاحظ من قسمات وجوههم علامات النجابة فوفر لهم كل سبل التفوق الذي سوف ينبثق منه الرصيد الحسن لمستقبل أيامهم ، فوصي بهم المصعبي وأثبتهم مع يحي بن أبي منصور في بيت الحكمة ، فخرج بنو موسي بن شاكر نهاية في علومهم وكان أكبرهم وأجلهم أبو جعفر محمد وافر الحظ في الهندسة والنجوم عالمًا بإقليدس والمجسطي وجمع كتب النجوم والهندسة والعدد والمنطق [2].

وقد كانت حالة أبناء موسي من مبدأ أمرهم تدعو إلي الرثاء ، حيث عاشوا في بساطة ودعه وأرزاقهم في الأعم كانت قليلة ؛ لأن أصحاب المأمون كلهم كانوا قليلي الأرزاق ، على رسم أهل خراسان ، فخرج بنو موسي في كفاحهم العلمي غاية الارتقاء ومعها تحسنت المكافآت وجزيل العطاء فواتاهم الحظ والثروة حتى بلغ دخل كل واحد منهم ما يقرب من أربعمائة ألف دينار [3].

وينوه البعض أن تلك الأسرة المتماسكة بأهداب حب الثقافة التي رفعتهم مكانًا عاليا تشبهوا بالخليفة المأمون في بذله المال ، فأغدقوا هم أيضا علي المترجمين والعلماء علي العادة الجارية في ذلك الزمان ، ومع ذلك لم يكن الحسن بن موسي - أصغرهم - علي منزلة رفيعة في العلم ؛ لأنه لم يدرس من كتاب إقليدس سوي المقالات الست الأولي الشهيرة ، واجتمع الحسن والمروزي بحضرة المأمون ذات ليلة فذكر المروزى

---

(١) قدري طوقان مرجع سابق ص٣٠٧.

(٢) القفطى تاريخ الحكماء ص٤٤١ ، ٤٤٢.

(٣) المرجع السابق ص ٤٤٢.

ـ غامزا ـ أن الحسن لم يقرأ إلا المقالات الست ، وكان عند المأمون أن من لم يقرأ هذا الكتاب لم يعد مهندسًا البتة ، ولذلك قال له : ما أعذرك ومحلك من الهندسة محلك أن يبلغ بك الكسل أن لا تقرأه كله وهو أصل الهندسة[1].

ولبني موسى كتاب في الحيل يعرف بحيل بني موسى ، وهو الأول من نوعه الذي يبحث في الميكانيكا ، ويحتوي على نحو مائة تركيب ميكانيكي ، وألفوا أيضًا في مراكز الثقل كما كتبوا في الآلات وأكثرها يوضح أنواعًا من الحيل العلمية مبينة على مبادئ الميكانيكا ، وقد كلفهم المأمون قياس محيط الأرض وقد قدره بنحو أربعة وعشرين ألف ميل ، ويعتبر قياسهم من الأعمال العلمية الجيدة التي شارك فيها بنو موسى [2].

الإمام الحافظ : عفان بن مسلم محدث العراق :

كان هذا العالم ثقة متقنًا متينًا في روايته ، حدث عنه البخاري ، فقد كان المستشار الأرفع لقاضي بغداد المسمى معاذ بن معاذ في عهد المأمون ، وقد جعل له عشرة آلاف دينار فكان إليه يرجع فيما استعصى عليه من مسائل ، وقد كان صاحب سُنَّة ثقة ثبتًا كما يقول عنه معاصروه ، قال أحمد بن حنبل : ما رأيت الألفاظ في كتاب أحد من أصحاب شعبة أكثر منها عند عفان فهو أنبأنا وأخبرنا أن أصحاب الحديث خمسة مالك وابن جريج والثوري وشعبة وعفان [3] ، وقال عنه غير واحد من علماء عصره كتبوا له شهادات متوالية تثبت ضبطه وورويته وحسن إتقانه في الحديث الشريف ، فمما قالوه « عفان متقن صحيح الكتاب قليل الخطأ ، وهو من خيار المسلمين يحسن الحديث متين ، ولقد رأيت يحيى بن سعيد يومًا يحدث بحديث فقال له عفان : ليس هو هكذا ، فلما كان من الغد ، أتيت يحيي فقال : هو كما قال عفان . ولقد سألت الله أن لا يكون عندي على

---

(١) طوقان : مرجع سابق ص ٣٠٨ .

(٢) عبد الحليم منتصر : تاريخ العلم ص ١٤٧

(٣) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٩ ص ٢٧ .

خلاف ما قال عفان [1] ، هكذا كانت أمانة العلماء وتثبتهم وعدم غلوهم وتمسكهم بغير الحق الذي غالبًا مالا يفيد .

وقد كان عفان رفيع المنزلة قوي الجنان متمسك بالحق ، ولا يعبأ بما يجره ثباته وجرأته من ويلات ومحن وبلاء ، تقول المرويات بأن هذا العلامة أول من امتحن في مسالة خلق القرآن التي دهمت الأعلام وروعتهم ، فقد استدعاه والي بغداد إسحق بن إبراهيم المصعبي ليسأله ويمتحن مع جلة من أصحابه . قال له الوالي المتجهم : يا أبا زكريا لم أسود وجهك ولا وجوه أصحابك؟ فلم يجب عفان ، ثم قرأ عليه الذي كتب به المأمون من الجزيرة فاطلع عليه فإذا فيه : امتحن عفان وادعه إلى أن يقول : القرآن كذا وكذا ، فإن قال كذلك فأقره على أمره وإن لم يجبك إلى ما كتبت به إليك فاقطع عنه الذي يجري عليه ، وكان المأمون يجري على عفان كل شهر خمسمائة درهم ، يقول عفان : فلما قرأ إسحق عليَّ الكتاب قال لي : ما تقول؟ فقرأت عليه : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ . حتى ختمتها فقلت : أمخلوق هذا ؟ فقال : يا شيخ إن أمير المؤمنين يقول : إنك إن لم تجبه إلى الذي يدعوك إليه يقطع عنك ما يجري عليك ، فقلت : ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ . فسكت عني وانصرفت [2] .

إن هذا الموقف الجيد لعفان ليدل على كبر نفسه وعزتها الشماء ، فضلاً عن ارتفاع شأنه عند الدولة ، فإن غيره بعدما امتحن تعرض للإيذاء والاضطهاد والقيد والسجن ، لكن هذا الجهبذ كل الذي فعلوه معه قطع الدراهم التي كان يعيش عن طريقها ، ومن الطريف أنه لما عاد إلى بيته وحكي لأسرته ما تعرض هو من محنة وعقاب السلطة له : أن نساءه عذلنه ، وكل من كان في داره ، قال الراوي : وكان في داره نحو أربعين إنسانًا ، فدق عليه داقٌّ الباب فدخل عليه رجل شبهته بسَمّانٍ أو زيات ، ومعه كيس فيه ألف درهم ، فقال : يا أبا عثمان ثبتك الله كما ثبت الدين ، وهذا في كل شهر [3] .

---

(1) المتقي تهذيب الكمال ج٩ ص٢٧٨.

(2) تهذيب الكمال ج٩ ص٢٧٧.

(3) الذهبي : مرجع سابق ج٩ ص٢٧.

وقد عاش عثمان عالم الحديث القوي الحجة والبرهان إلى سنة عشرين ومائتين من الهجرة عن عمرٍ يناهز الثمانين سنة رحمه الله وأجزل له في الصالحات أعماله .

الإمام الحافظ الصدوق المصري يحيى بن عبد الله بن بكير:

قد ساهم هذا العالم الثبت بتضلعه في رواية الحديث وعلوم السنة ـ وهو من الثقات في هذا المضمار ـ أن مدرسة الحديث في مصر ليشرفها أن تقدم هذا العالم الموسوعي الذي كان غزير العلم عارفًا بالحديث وأيام الناس بصيرًا بالفتوى ، سمع الموطأ من الإمام مالك سبع عشرة مرة ، وكان البخاري ومسلم يحتجان برواياته للأحاديث النبوية المعروفة عند كثير من الحفاظ [1]، وكان الليث وابن لهيعة يقدرانه ويُسْمِعَانه الأحاديث ويَسمَعان منه ، وقد روي عنه عدد كثير ، وقد دعاه المأمون إلى خراسان أيام المحنة ؛ ليعرف رأيه غير أن الظُرُوف ساعدته وخدمته حيث سمع بوفاة الخليفة قبيل أن يرحل من الفسطاط إلى خراسان فعاش مجتنبًا للخلق مؤثرًا للعزلة أيام المعتصم حتى مات في نصف صفر سنة ٢٣١هـ [2].

الفقيه الدمشقي أبو مسهر بن عبد الأعلى :

تتلمذ هذا الفقيه النابه على علماء الشام وأكابر أهل زمانهم من حواضر الإسلام الأخرى ، مثل : خالد بن يزيد المرّي ، وإسماعيل ابن عباس ، ومعاوية بن سلام ، ومالك بن أنس ، ويحيى بن إسماعيل ابن أبي المهاجر ، وغيرهم ، ومن شهادة زملاء الكفاح العلمي لتفرده وأستاذيته قول يحيى بن معين : « الذي يحدّث ببلد به من هو أولى بالتحديث منه أحمق ، وإذا رأيتني أُحدِّث ببلد فيها مثل ابن مسهر فينبغي للحيتي أن تحلق ، وما رأيت منذ خرجت من الأنبار أحدًا أشبه بالمشيخة الذين أدركتهم من أبي المسهر »[3].

---

(١) تهذيب الكمال ج٩ ص٢٥٥.

(٢) المرجع السابق ص٢٥٤.

(٣) الذهبي : أعلام النبلاء ج٩ ص١٧.

وقد كان أبو مسهر قوي الحفظ تولى القضاء لأشهر في دمشق قسرًا ، ثم تنحى عن ذلك المنصب ، وقد كان يحضر الجامع بأحسن هيئة في البياض والساج والخف ، ويعتم بعمامة سوداء عدنية ، وكان الناس عند خروجه يصطفون ويسلمون عليه ويقبلون يده الأمر الذي جعل البعض يتهمه بالتكبر في نفسه ، فذكر ذلك للسجستاني فقال في حسم : بل كان من ثقات الناس رحم الله أبا مسهر ، لقد كان من الإسلام بمكان ، حُمل على المحنة فأبى ، وحُمل على السيف فمد رأسه ، وجُرِّد السيف فأبى ، فلما رأوا ذلك منه حُمل إلى السجن [1].

ولمحنة الرجل مع موضوع خلق القرآن روايات متداخلة وفصول للمواقف شائكة ومتشابكة نوردها للمتتبع بما تيسر له المقام ، وبيان ذلك تنويهًا أن المأمون لما دخل دمشق في زيارته للشام ذكروا له أبا مسهر ووصفوه بالعلم والفقه فأحضره ، ولما مُثِل بين يديه صار يجاذبه أطراف الحديث – في موضوع الساعة آنذاك – فقال الخليفة : ما تقول في القرآن ؟ قال : كما قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:٥] . فقال : أمخلوق هو أو غير مخلوق؟ قال : ما يقول أمير المؤمنين ؟ قال : مخلوق . قال : يخبر عن رسول الله ﷺ أو عن الصحابة أو التابعين ؟ قال : بالنظر واحتد عليه ، فقال : يا أمير المؤمنين نحن مع الجمهور الأعظم أقول بقولهم والقرآن كلام الله غير مخلوق ، قال : يا شيخ أخبرني عن النبي ﷺ هل اختتن؟ قال أبو مسهر : ما سمعت في هذا شيئًا ، قال : فأخبرني عنه أكان يشهد إذا زوج أو تزوج ؟ قال : ولا أدري ، قال المأمون : أخرج قبحك الله وقبح من قلدك دينه وجعلك قدوة ، ويقول واحد من مريدي ومحبي جَلساته والموالين لتتبع الاستماع إلى ما يقوله من علم وفضل ، وكان قد مرض وتوعك فيقول : فعدناه وقلنا : كيف أصبحت ؟ قال : في عافية راضيًا عن الله ساخطًا على ذي القرنين كيف لم يجعل سدًا بيننا وبين أهل العراق ، كما جعله بين

---

(١) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج١١ ص٧٣.

أهل خراسان وبين يأجوج ومأجوج ، فما كان بعد هذا إلا يسير حتى وافى المأمون دمشق ونزل بدير مران [1]، ويني القبة فوق الجبل ، فكان بالليل يأمر بجمر عظيم فيوقد ويجعل في طسوت كبار ، تدلى من عند القبية بسلاسل فتضيء لها الغوطة فيبصرها بالليل ، وكان لابن مسهر حلقة في الجامع بين العشاءين عند الحافظ المشرقي ، فبينما هو ليلة إذ قد دخل الجامع ضوء عظيم ، فقال أبو مسهر : ما هذا ؟ قالوا : النار التي تدلى من الجبل لأمير المؤمنين حتى تضيء له الغوطة ، فقال : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ [الشعراء:١٢٨، ١٢٩] ، وكان في الحلقة صاحب خبر المأمون ، فرفع ذلك إلى الخليفة فحقدها عليه ، فلما رحل المأمون أمر بحمل أبي مسهر إليه ، فامتحنه بالرقة في القرآن وجرى معه الحوار الذي رأيناه سابقًا فأمر به أن يوجه إلى العراق ، وأقام عند إسحاق بن إبراهيم نائب بغداد أيامًا ثم وضع في السجن الذي مكث به أيامًا لا تبلغ مائة يوم حتى مات داخله فليرحمه الله [2].

الحافظ الصادق الإخباري على بن محمد المدائني :

من أوائل الذين كتبوا في المغازي والسير وما يتبعها من دراسة التراجم وتراجم الحال والطبقات ، وما يستتبع ذلك في الاعتماد على السند في الرواية في الاعتماد ، فتكون بذلك أكثر تماسكًا وتسلسلاً زمنيًا واضحًا . فهو أشهر من خاض هذا الغمار ورمى فيه بسهمه الأوقع .

أن العلامة المدائني قد نزل مدينة بغداد عاصمة الربيع الثقافي المزدهر أيام المأمون يقول عنه الذهبي : صنف المدائني التصانيف وكان عجيبًا في معرفة السير والمغازي والأنساب وأيام العرب ، مصدقًا فيما ينقله عالي الإسناد[3].

---

(١) بالقرب من دمشق على تل مشرف على مزارع الزعفران في هيكله صورة عجيبة دقيقة المعاني .

(٢) الذهبي العبر ج٣ ص١٢٠ ، تاريخ بغداد ج١١ ص٧٢ ، تهذيب الكمال ج١١ ص١٦ .

(٣) سير أعلام النبلاء ج٩ ص١٢٦.

وقد جلست مجموعة من أعلام الفقه والسنة في مدخل دار من دور السلام وفيهم يحيي بن معين ، فمر رجل بالعشيات على حمار فاره وبزة حسنة فسلم وخص ابن معين بالسلام ، فقال له : يا أبا الحسن إلى أين ؟ فقال : إلى هذا الكريم الذي يملأ كمي دنانير ودراهم إسحق بن إبراهيم الموصلي ، فلما ولى قال يحيي : ثقة ثقة ثقة ... فسألوا من هذا ؟ قال : هذا المدائني[1].

وقد ألف في العديد من ملتقيات العلوم الزاخرة بالحقائق التاريخية والأدبية واللغوية ، حيث كان موسوعي المنهج فإذا رجعت إلى ثبت مصنفاته أمكن لك التعرف على تلك العقلية الدعوية ، التي خرجت المتون والأصول من مكامن وعيه السديد وإلمامه الخاص بالفتوح والمغازي والشعر والشعراء ، حيث كان صدوقاً في كل ذلك ، فمما ورد في ذاكرة التاريخ من مؤلفاته وأبرزتها كتب التراث بكل إعجاب من مثل : خطب النبي الأكرم ﷺ وكتاب في « عهوده » وآخر في أخبار قريش ، فضلا عن مؤلفه البديع عن أخبار أهل البيت وكتاب « تاريخ الخلفاء » وخطب الإمام علي وكتبه ، فضلا عن رسائله التي شملت في تسجيل المحتويات خمس ورقات ونصف ، منها « تسمية المنافقين وأخبار الشعراء » ، و« قصة أهل الكهف » ، و« كتاب الجواهر » ، و« أخبار الأكلة » ، وكتابي « أخبار الحجاج بن يوسف » ، و« سيرة ابن سيرين » العالم المنجم ، فضلاً عن كتابي « الزجر والفأل » ، و« من هجاها زوجها » وغيرها من الرسائل التي تاهت بين متون غيره ممن عاصروه وأخذوا عنه العلم ، واستفادوا من خطواته الجبارة في وضع تلك المؤلفات ، التي لم تجد اليد المحققة التي تخرجها من عقالها لتعم بها الفائدة على أرجح التقديرات[2] ، وقد قال المدائني في جلسة مقتصرة في الليالي البغدادية المقمرة ما نصه : « أدخلت على المأمون بين حشمه وجلة رجاله فحدثته بأحاديث عن الإمام علي لم يسمعها

---

(١) الذهبي : العبر ج٥ ص٢١٧.

(٢) أعلام النبلاء ج٩ ص١٢٧ ، وتهذيب الكمال ج١١ ص١٠٢ بتصرف .

من ذي قبل ، فلعنت بني أمية ، ثم نقل عن رجل شامي المثنى بن عبد الله الأنصاري قوله : كنت بالشام فجعلت لا أسمع عليًا ولا حسنًا وإنما أسمع معاوية ويزيد والوليد ، فمررت برجل على بابه فقال : إسقه يا حسن ، فقلت : أسميت حسنًا ؟ فقال : أولادي حسن وحسين وجعفر . فإن أهل الشام يسمون أولادهم بأسماء خلفاء الله ثم يلعن الرجل ولده ويشتمه قلت : ظننتك خير أهل الشام ، إذ ليس في جهنم شر منك ، فقال المأمون : لا جرم قد جعل الله من يلعن أحياءهم وأمواتهم ، يريد الناصبة [1] .

ومات العلامة المدائني عن عمر بلغ ثلاث وتسعون سنة قضاها في جمع الحقائق التي مالت إليها قريحته وشملت متون مؤلفاته الغزيرة التي عرفت الناس في الحقل العلمي به ، فتوفي سنة خمس وعشرين ومائتين تاركًا وراءه تلك الذخيرة الباقية من الأخبار والمغازي وزمان الفتوح والفتن وما إليها ، وقد كان منقطعًا في بيت إسحق الموصلي الذي توفي في داخله ونقل بعدها إلى البصرة حيث دفن بها .



(١) الذهبي المرجع السابق ج٩ ص١٢٧.



الفصل السادس

ثبت العلوم ومعارف الدنيا أيام المأمون

يعد عهد المأمون متممًا لعصر أبيه الرشيد ، فقد سار سيرته واتبع طريقته في تشجيع العلوم والأدب وتقريب العلماء والأدباء على مختلف مشاربهم وأجناسهم ، فلا تجد في أبيه خلة من الخلال المحمودة ولا خلقًا من الأخلاق الرضية إلا وتجدها في نفس المأمون من أول الوهلات ، تسموا به إلى أرفع مقام في أدب الدنيا والدين ، وزاد بأنه برز في عشقه للعلوم الحكمية ، وأنه يقيم بين العلماء لمناظرتهم في جميع أنواع العلوم ، ويقصده أئمة العلم وجماعات أهل الثقافة الرائدة الذين توافدوا منفردين أو مجتمعين ، متلهفين ليكونوا أنجمًا ساطعة في مجالسه ومناظراته التي يعقدها بانتظام ، وكما أظهر المأمون القول بالتوحيد والوعد والوعيد وجالس المتكلمين وألزم مجلسه الفقهاء وأهل المعرفة ، وأقدمهم من الأمصار وأجرى عليهم الأرزاق الذين عرفوا فيه أنه كان أكثر الناس عفوًا وأشدهم احتمالاً وأحسنهم مقدرة وأجودهم بالمال الرغيب وأبذلهم للعطايا[1] .

ألم يكن هو حفيد الخليفة النابه المنصور الذي شاع في جنبات دولته كل ألوان المعارف الإسلامية ، وزاوجها بالحقائق التي وصلت إليه من اطلاعاته على حضارة الأمم السابقة ، خاصة منبثقات العقلية اليونانية ولقاح الجهود الموفقة التي وردت إليه ، وتمنى أن تعم الفائدة بقراءاتها ، وحفزه لهذه الغاية ما نقله ابن خلدون في موسوعته ، قال : بعث أبو جعفر المنصور إلى ملك الروم أن يبعث إليه بكتب الأقدمين مترجمة فبعث إليه بكتاب إقليدس وبعض كتب الطبيعيات الموجودة لديه ، فأرسل الرجل ما طلبه المنصور فوضعها في خزانة ليقرأها عامة المسلمين ، وقد اطلعوا بالفعل على ما فيها وازدادوا على الظفر بما بقي عنده[2] .

كما استقدم المنصور كثيرًا من الأطباء والمترجمين ، فترجموا له كتب اليونان والفرس والهنود في الطب والفلك والسياسة ، ومن أشهر هؤلاء جرجيس الكبير

---

(١) المسعودي مروج الذهب ج٥ ص١١٧.

(٢) المقدمة ص٤٨٠.

ابن بختيشوع ، ونوبخت وابنه أبو سهل وابن المقفع، ولما مات المنصور فتر أمر الترجمة إلى زمن الرشيد والبرامكة فحثوا العلماء على ترجمة الكتب اليونانية وصححوا ما ترجم زمن المنصور[1].

أما درة البيت العباسي المأمون صاحب العقلية المتمدينة الفذة ؛ فقد علم أن تلك العلوم القديمة كاليونانية والفارسية لابد من وجودها في دولته حتى تزدهر الحضارة الإسلامية بوعاء تلك العلوم المتقدمة ، فأحضر تلك الكتب ـ كما سنرى ـ في الفلسفة والطب والرياضة وغيرها وحث الناس بقراءتها ، وعقد المجالس للمناظرة والمباحثة في شتى العلوم ، وقرب إليه العلماء والأدباء من جميع الأديان وشجعهم بشتى ألوان الإنعامات والإغداقات حتى كان عصره أزهى العصور الإسلامية ، وراجت العلوم رواجًا لم ير التاريخ في مستقبل دوراته وتوالي أيامه مثله .

مجالس المناظرات المأمونية :

قد نشأ المأمون منذ حداثته على حب العلم ومدارسة حقائقه وتقليب وجوه المسائل مع أساتذته ، فلاحظوا وعيه ونجابته فبالغوا في إرواء نهمه ودأبه بالمزيد من أقساط الدروس ، يقول شاهد عيان : « كان بجانب المأمون جماعة من النحاة قد أحدقوا به إحداق الهالة بالقمر ، منهم الكسائي وأبو محمد اليزيدي مؤدباه ، وهم يتباحثون في مسائل نحوية وكنت أسمعه يقول لهم : زيدٌ على الرفع ، والكسائي يقول : بل زيدًا منصوبة بإنَّ ، فتطارح العلماء الجملة الإعرابية التي دار عليها كلامهم وهي : إن من خير القوم أو خيرهم نيةً زيد » فأجمع رأيهم على موافقة المأمون ، وتحققت فضله في ذلك اليوم وعرفت أنه يدخل العلوم من أبوابها وليس تطفلاً منه كما يتبادر إلى العقل عن آداب المترفين من أولاد الملوك[2].

وكان المأمون ماهرًا في جميع الفنون كاشفًا عن كل سر مكنون ، كان يعقد المجالس للمناظرة والمباحثة في شتى العلوم ، وتجد في حضرته الأدباء والأطباء من جميع الأديان

---

(١) أحمد الإسكندراني : الوسيط في الأدب وتاريخه ص٢٤٢.

(٢) جميل نخلة المدور : حضارة الإسلام ص١٢٥.

فكان يشجعهم ويغدق عليهم العطايا والمنح الوافرة ، وكان يحدد يومًا في كل أسبوع يشارك فيه علماء الدولة وأدباءها فيما كان يدور في مجالسه من تلك المناظرات والمساجلات الأدبية ، وكان يوم الثلاثاء من كل أسبوع هو اليوم الذي يؤم فيه العلماء والأدباء والفلاسفة قصر المأمون في الصباح حيث يقدم لهم الخليفة الفطور ، وبعد الفراغ من تناوله يتجهون جميعًا إلى الديوان المخصص لعقد تلك المناظرات التي كان المأمون يرأسها بنفسه ولم تكن تنتهي إلا بعد صلاة العشاء ، فيدخلون حجرة أخرى ملحقة بذلك الديوان قد مدت فيها الموائد حيث يقدم لهم طعامه الثرى الذي ما إن يفرغوا منه حتى ينصرف آحادهم كل في الطريق الذي أتى منه[1].

وقد كانت تلك المناقشات العلمية تحوى الغذاء العقلي الفريد الذي صال فيه المأمون برفيع ثقافته وجال ، وكانت المناظرات تجري بحضوره فلبست صورة أكيدة من الجد والاهتمام ، ودارت ولاشك بإدراك الحقائق المنوط بها المناظرة ، وقد عايشها المأمون بكل وعيه وأحاسيسه المتأججة والتي دلت على صدق معايشته وقوة حافظته وبصره بكل ما يقال ويصرح ، والذكاء العلمي يعلن يقظته على كل الأحوال مسجلا وجوده وتفتحه وكأنه هو الذي يحاججهم ، ولم يفلت منه زمام المبادأة ، وابتثقت براهين الحقائق من بين تلك المواجهات الكلامية ، فقد قال عمارة بن عقيل : أنشدت المأمون قصيدة مائة بيت ، فأبتدئ بصدر البيت فيبادرني إلى قافيته كما قفيته : فقلت والله يا أمير المؤمنين ما سمعها مني أحد قط ، هكذا ينبغي أن يكون ، ثم قال : أما بلغك أن عمر بن ربيعة أنشد عبد الله ابن عباس قصيدته التي يقول فيها : « تشُطُّ غدًا دارُ جيرانِنا » فقال ابن عباس : « وللدّارُ بعدَ غدٍ أبعَدُ » ، حتى أنشده القصيدة يقفيها ابن عباس ، ثم قال : أنا ابن ذاك[2].

وفي موقف آخر وأسبوع آخر وفي ليلة جمعَتْ عيون الأدب ورواد الذوق

---

(١) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ص٢٦٩.

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج٣ ص٢٠٨.

الأدبي ، كان شاعره عمارة هذا يسبق غيره في إنشاده فأخره واستمع إلى غيره ، فقد لاحظ وجود رجل قد شمر ثيابه ونعله في يده ، فوقف على طرف البساط وقال : السلام عليك ، فرد المأمون ، فقال أتأذن لي في الدنو ؟ قال : ادن وتكلم ، قال : أخبرني عن هذا المجلس الذي أنت فيه ؛ جلسته باجتماع الأمة أم بالغلبة والقهر ؟ قال : لا بهذا ولا بهذا ، بل كان يتولى أمر الأمة من عقد لي ولأخي ، فلما صار الأمر إليّ علمت أني محتاج إلى اجتماع كلمة المسلمين على الرضا بي ، فرأيت أني متى خليت الأمر اضطرب حبل الإسلام ، ومرج عهدهم وتنازعوا وبطل الحج والجهاد وانقطعت السبل ، فقمت حياطة للمسلمين ، إلى أن يجمعوا على من يرضونه فأُسَلِّم إليه « فاقتنع الرجل وانصرف وقال السلام عليك ورحمة الله »[1].

ثم دعي الشاعر عمارة بن عقيل بعدما أرجأه ليستمع إلى ما جاء به ، قال : هات ما عندك ، فأنشد الرجل :

قَالَتْ مُعِدَاةُ لَمَّا أَنْ رَأَتْ أَرَقِي ... وَالهَمُّ يَعْتَادُهُ مِنْ طَيْفِهِ لَمَمُ

نُهِبتُ مَالِكَ فِي الأَدْنِينَ آصِرَةً ... وَفِي الأَبَاعِدِ حَتَّى عَفَّكَ العَدَمُ

فَاطْلُبْ إِلَيْهِم تَرَى مَا كُنْتَ مِنْ ... حَسَنٍ تُسْدِي إِلَيْهِم فَقَدْ بَانَتْ فِي صَرَمُ

فَقُلْتُ عَذْلَكِ قَدْ أَكْثَرْتِ لائِمَتِي ... وَلَمْ يَمُتْ حَاتِمٌ هَزْلاً وَلاَ هَرِمُ

فقال له المأمون : ما أجبتك يا أعرابي وقلت ما قلت : فأين رميت نفسك إلى هرم بن سنان سيد العرب ، وحاتم الطائي فعلا كذا وفعلا كذا ، وظل المأمون ينثال عليهما بفضلهما ، فقال عمارة : يا أمير المؤمنين : أنا خير منهما أنا مسلم وكانا كافرين وأنا رجل من العرب [2].

---

(١) المرجع السابق ص٢٠٩، وفيه : وجه المأمون في إثره من يكشف خبره فرجع فقال : مضى إلى مسجد فيه خمسة عشرة في هيئته ، فقالوا : لقيت الرجل ؟ قال : نعم وأخبرهم بما جرى فقالوا : ما نرى بما قال بأسًا . فقال المأمون : كفينا مؤنة هؤلاء بأيسر الخطب .

(٢) ياقوت : معجم الأدباء ص٢٧٠.

قال ابن العرابي : قال لي المأمون : خبرني عن قـول هنـد بنـت عتبـة : نحـن بنات طارق نمشي على النمارق ، فمن هو طارق ؟ فنظرت في نسبها فلم أجده ، فقلت : لا أعرف ، إنما أرادت النجم انتسبت إليه لحسنها ، ثـم دعـا لـي بعنـبرةٍ مكافأة لي فبعتها بخمسة آلاف درهم [(١)].

وقد كان المأمون بصيرًا بتخريج الأحاديث محيطًا بأسانيدها صحة وجـودة ، وتتبـع روايتها ولهذه الغاية طلب من قاضيه يحيى بن أكثم أن يضع له منـبرًا في داخـل مجلسـه بعد أن قال له : يا يحيى إني أريد أن أحدث ، فقلت : ومن أولى بهذا من أمير المؤمنين ، فصعد وحدث حديثًا حدثنا به عـن أبـي هريـرة عـن الـنبي ﷺ ، قـال امـرؤ القـيس صاحب لواء الشعراء في النار ، ثم حدَّث بنحوٍ من ثلاثين حديثًا ، ثم نزل فقال لي يـا يحيى : كيف رأيت مجلسنا ؟ قلت : أجل مجلس يا أمير المؤمنين تفقه العامة والخاصـة ، قال : لا وحياتك ما رأيت لكم حلاوة ، وإنما المجلس لأصحاب الخلقان والمحابر [(٢)].

وعن سهل بن عسكر قال : تقدم رجل غريب بيده محبرة إلى المأمون في مجلسه العامر فقال : يا أمير المؤمنين صاحب حديث منقطع به فقال : ما تحفـظ في بـاب كذا وكذا ؟ فلم يذكر شيئًا فقال : حدثنا هشيم وحدثنا يحيى وحدثنا حجاج بـن محمد حتى ذكر الباب ثم سأله عن باب آخر فلـم يـذكر شـيئًا ، فقـال المـأمون : حدثنا فلان وحدثنا فلان ثم قال لأصحابه : يطلب أحدهم الحديث ثلاثـة أيـام ثـم يقول : أنا من أصحاب الحديث ، أعطوه ثلاثة دراهم ، وحدث أحمد ابن إبراهيم الموصلي قال : كنا عند المأمون فقام إليه رجل فقال : يا أمر المؤمنين ، قال رسول الله ﷺ : « الخلق عيال الله وأحب عباد الله إلى الله عز وجل أنفعهم لعياله » ، فصاح المأمون ، وقال : اسكت ، أنا أعلم بالحديث منك حدثنيه فـلان عـن فـلان عـن أنس أن النبي ﷺ قال : « الخلق عيال الله فأحب عباد الله أنفعهم لعياله » [(٣)].

---

(١) الذهبي : العبر ج٨ ص٩٨.

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص٣٣٢.

(٣) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٩ ص٤٥.

وقد قال أبو العتاهية شاعر الزهد والحكمة الأشهر عن مجلس من تلك المجالس التي تتناثر فيها أنجم الأدباء والبلغاء وأهل الفصاحة في الدين والدنيا : دعاني المأمون يومًا فصرت إليه فلقيته مطرقًا مفكرًا فأحجمت عن الدنو منه في تلك الحال ، فرفع رأسه فنظر إلي فعرفني وأشار بيده أن ادنُ ، فدنوت ثم أطرق مليًا ورفع رأسه فقال : يا أبا إسحاق : شأن النفس الملل وحب الاستطراف ، تأنس بالوحدة كما تأنس بالألفة ، قلت : أجل يا أمير المؤمنين ، ولي في هذا بيت قال : ما هو ؟ قلت :

لا يُصْلِحُ النَّفْسُ إِذْ كَانَتْ مُدَبَّرَةً   إِلا التَّنَقُّلُ مِن حَالٍ إِلى حَالٍ[1]

وتتواثب معالم الأفكار وتتولد المعاني من داخل ذلك الرواق الذي يتصدره المأمون بعلمه وسماحته وبساطته في التلقي ورباطة جأشه في استيعاب الناقد وفهمه ووعيه ، ولما يدور في حلقته من مسائل وأنماط لفظية ، فعن النضر بن شميل عن الحسن أن النبي ﷺ قال : « إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيه سِداد (بالكسر) من عوز » وكان المأمون متكئًا فاستوى جالسًا وقال : السَّداد لحن يا نضر . قلت : نعم ههنا ، وإنما لحنُ هشيم[2].

وكان لحانًا فقال المأمون : ما الفرق بينهما ؟ قلت : السَّداد بالفتح : القصد في السبيل ، والسِّداد بالكسر : البُلغةْ ، وكل ما سددت به شيئًا فهو سداد ، قال : أفتعرف العرب ذلك ، قلت : نعم هذا العرجي من ولد عثمان بن عفان يقول :

أَضَاعُونِي وَأَيُّ فَتَىً أَضَاعُوا   لِيَوْمِ كَرِيْهَةٍ وَسِدَادِ ثَغْرِ

فأطرق المأمون مليًا ثم قال : قبح الله من لا أدب له ، ثم طلب مني أن أنشده أخلب بيت للعرب ، وأنصف بيت للعرب وأقنع بيت للعرب ، فقلت له : عن كل ما يريده بأبيات من عيون الشعر ثم قال : أحسنت يا نضر ، وأخذ القرطاس فكتب شيئًا لا أدري ما هو ثم قال : كيف تقول : افْعَلْ من التراب؟ قلت : أتْرِبْ ، قال : ومن الطين ، قلت : طِنْ . قال : فالكتاب ماذا ؟ قلت : مُتْرِبٌ مُطَيَّنٌ ، قال : هذه

---

(١) ياقوت : معجم الأدباء ص٢٧٠.

(٢) الراوي الذي نقل عنه الرواية وهو هشيم بن بشير .

أحسن من الأولى ، فكتب لي بخمسين ألف درهم ثم أمر الخادم أن يوصلني إلى الفضل بن سهل - الوزير - فمضيت معه ، فلما قرأ الكتاب ، قال : يا نضر لحنت أمير المؤمنين ، قلت : كلا ، ولكن هشيم لحانه فتبع أمير المؤمنين لفظه ، فأمر لي من عنده بثلاثين ألفًا فخرجت إلى منزلي بثمانين ألفًا[1].

وعن أبي خليفة الفضل بن الحباب قال : سمعت بعض النخاسين يقول : عرضت على المأمون جارية شاعرة فصيحة متأدبة شطرنجية[2]، فساومته في ثمنها بألفي دينار فقال المأمون : إن هي أجازت بيتًا أقوله ببيت من عندها اشتريتها بما تقول وزدتك ، فأنشد المأمون :

مَـاذَا تَقُـولِيْنَ فِـيمَنْ شَـفَّهُ أَرَقٌ   مِن جُهْدِ حُبِّكِ حَتَى صَارَ حَيْرَانَا

فأجازته :

إِذَا وَجَـدْنَا مُحِبًّـا قَـدْ أَضَرَّ بِـهِ   دَاءُ الصَّـبَابَةِ أَوْلَيْنَـاهُ إِحْسَـانَا[3]

وقد كان المأمون يعقد مجالسه ولا يقطع عليه ما اعتاده من الجلوس إلى رواد حلقاته ما يمنعه من ذلك مانع ، بل كان يجلس في أوقات الشدائد والملمات الخاصة التي نزلت بساحته ، وها هي ابنته الحبيبة الأثيرة إلى نفسه - زبيدة - بعد فقدها فجلس إلى الناس كالمتبع ، وأدخل الشعراء والوجوه مظهرًا تجلده غير متبرم ولا قانط ، فترك الهموم والألم النفسي وراء ظهره واستقبلهم ، وأمر أن يؤذن لمن بالباب فدخل عليه العباس بن الحسن العلوي فقال له : يا أمير المؤمنين إنا لم نأتك معزين ولكن أتيناك مقتدين ، ثم قال : يا أمير المؤمنين إن لساني ينطق بمدحك غائبًا وأحب أن يتزيد عنك حاضرًا أفتأذن فأقول ، قال المأمون : قل فإنك تقول فتحسن وتشهد فتزين وتغيب فتؤتمن ، فقال له العباس : وصدق فيما تقول : ما أقول بعد هذا ، لقد بلغت من مدحي ما لا أبلغه من مدحك[4].

---

(١) السيوطي : مرجع سابق ص٢١٩ ، وقد ورد عن المأمون أنه فرق في جلسة ستة وعشرين ألف ألف درهم ، وأنه أعطى أعرابيًا مدحه ثلاثين ألف دينار .

(٢) تجيد لعب الشطرنج .

(٣) السيوطي : المرجع نفسه ص٢١٩، ومعنى شفه : أضناه وأهزله وارق جسده حتى ضَؤُلَ ونحف .

(٤) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج٦ ص٨٢.

بيت الحكمة :

لقد كان المأمون من كبار العلماء مشجعًا للعلم في خطواته كلها حتى وصلت ذروتها في هذا العهد الخصيب ، إذ ظهر بين المسلمين من الفقهاء والمحدثين والأدباء والفلاسفة والمؤرخين وغير هذا من طوائف أرباب الثقافة فكانوا جميعًا أئمة الدنيا في العلوم ، وكانت الدولة العباسية بعد إنشاء هذا الصرح العلمي الزاهر أعظم دولة في العالم آنذاك ، فيعد علماء الحضارة ذلك الخليفة العباسي حامل لواء العلوم العتيقة التي شجع العلماء في استقدامها من بغداد فهي التي سببت تلك النهضة الكبرى التي انبثقت في عصره المزدهر ، والتي كان من نتاجها هذا المجمع العلمي الحاشد الحافل بالعلوم المبتكرة والعلماء الأفذاذ وأقصد به بيت الحكمة ، حتى بدا عصره من أزهى العصور ومكانه القمة بالنسبة إلى سواه ؛ لأن جميع الحركات الثقافية في الأقطار الإسلامية منذ عهد المأمون هي فروع للأصول التي غرسها وسقاها ذلك الخليفة العظيم ، فهذا (بيت الحكمة) أول مؤسسة ثقافية عند المسلمين بين يدي المأمون بما منحه له من عناية وما أضفى عليه من قوة ، وما أنفق من مال ، وعن طريق هذا المعهد كسبت اللغة العربية كثيرًا من الزاد والمعرفة بما أُجْرِيَ في بيت الحكمة من ترجمة إليها من اللغات الأجنبية ، وبواسطة بيت الحكمة حفظ للإنسانية كثير من تراث الإغريق الذي ضاعت أصوله ، ولم يجد العالم غير الترجمات العربية وسيلة للوصول إلى هذا التراث [1].

وقد أنفق المأمون عن سعة على بيت الحكمة التي خصصت لها جناحًا منها للمجمع العلمي وآخر للجنة الترجمة وثالثًا للمكتبة ، وعُين لها رئيس هو يحيى بن ماسويه ، وكان من نتاج هذا المعهد المزدهي بالخيرات ذلك المجمع الحاشد الحافل بالعلوم المبتكرة والعلماء الأفذاذ ، ففي عهده ظهر الفيلسوف العربي النابغة يعقوب بن يوسف الكندي الذي كان يعد موسوعة علمية زاخرة وملتقى لمعارف عدة ألَّف فيها جميعًا المؤلفات القيمة ، فقد اشتهر بإحكام العلوم والتوسع في فنون الحكمة

---

(١) أحمد شلبي : تاريخ التربية الإسلامية ص٣٥٥.

وتبحر في الفلسفة وأجزائها من منطق وطبيعيات ورياضيات وإلهيات مع إلمامه بعلوم العرب وبراعته في الآداب من النحو والشعر ، إن هذه الإحاطة بجميع ألوان المعرفة هي التي جعلت القدماء يسمونه فيلسوفًا لا منجمًا أو مهندسًا أو طبيبًا لا غير ، فكان لهذه العلة أول من سمي عند العرب والمسلمين فيلسوفًا [(١)].

وقد نقل بعض المترجين كتاب الجغرافيا لبطليموس من اليونانية فتأثرت الجغرافيا الإسلامية به تأثيرًا كبيرًا ، ونسج على منوال بطليموس محمد بن موسى الخوارزمي في كتابه (صورة الأرض) ثم طلب الخليفة المأمون إلى الخوارزمي أن يضع لكتابه هذا مصورًا جغرافيًا عربيًا للدولة الإسلامية وأقاليمها فقام بهذا العمل مع تسعة وستين عالمًا [(٢)].

وقد ازداد اهتمام الناس بالمعارف بعدما حظوا به من اهتمام المأمون فبالغوا في إرضائه وانصرف العلماء يوجهون جهدهم في تدوين ما وعته صدورهم وولدته أفكارهم في مختلف الثقافات ، ولا عجب أن يرد اسم سند بن علي الذي اشرف على بناء مرصدٍ للمأمون ، وأبو جعفر بن محمد البلخي الذي كان من أصحاب الحديث ، ثم اشتغل بعلم النجوم ، وقد ترك عدة مؤلفات في علم الفلك من أشهرها كتاب (هيئة الفلك واختلاف طلوعه) ، وكتاب (الأمطار والرياح وتغيير الأهوية) [(٣)]، وكان سند بن علي يهوديًا وأسلم على يد المأمون ، وهو منجم فاضل عالم بتيسير النجوم ، وعمل آلات الأرصاد والاصطرلاب ، وندبه المأمون في إصلاح آلات الرصد ، وأن يرصد بالشماسية ببغداد ، وقد تعلم النجوم بعد سبع وأربعين سنة من عمره [(٤)].

ويقول علماء التراث : أن المأمون عين سهل بن هارون كاتبًا على خزانة الحكمة

---

(١) الكندي للأهواني ص٤٥.

(٢) قدري طوقان : التراث العربي العلمي ص١١٥.

(٣) ابن النديم : الفهرست ص٣٨٧.

(٤) المرجع السابق ص٣٨٨.

وهو من العلماء الممتازين محيطًا بمعارف شتى من مختلف الفروع المتخذة من أفاضل الأصول ، وقد وفدت إلى تلك الخزانة الحاوية كتب الفلسفة التي نقلت إلى المأمون من جزيرة قبرص ، وذلك أن المأمون لما هادن صاحب هذه الجزيرة أرسل إليه بطلب خزانة كتب اليونان ، وقد اغتبط بها المأمون ، كما كانت هناك مراسلات بين ملك الروم مع المأمون الذي كان يسأله الإذن في إنفاذ ما يختار من العلوم ، فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم : الحجاج بن مطر ، وابن البطريق ، وسلم من علماء بيت الحكمة فأخذوا ما اختاروه وما أوجد لهم في هذا السبيل [(١)].

وقد صنفت تلك الكتب الواردة إلى خزانة دار الحكمة حسب موضوعاتها وألوان المعارف في متونها ولا عجب أن يقول البعض : « أن جميع الحركات الثقافية والعلمية في البلاد الإسلامية منذ عهد المأمون إنما هي فروع للأصول التي أنبتها هذا الخليفة العظيم » .

وقد كانت رعايته لبيت الحكمة وما أنفق عليه من مال وما جرى في عهده من أعمال لتراث الإغريق مما يعد مضرب الأمثال ، ولعله أول جمعية علمية أو جامعة إسلامية يجتمع فيها العلماء للبحث والدرس ولجأ إليها الطلاب ، فكان بذلك مركزًا علميًا شمل العلوم الطبية والفلسفية والحكمية وغيرها ، ويعتبر عصر المأمون أزهى عصور بيت الحكمة ، فقد كان المأمون مثال الخليفة العالم يهب العلم وقته ورعايته ، كما كان يهب العلماء عطفه وعنايته [(٢)]، كما كان المأمون أكبر مشجع لحركة العلوم ، فقد اشتغل العلماء والطلاب بتلك المصنفات المترجمة التي كان يطلق عليها قبيل هذا العهد اسم (علوم أهل النار) ، ثم انتقلت إلى الحواضر الإسلامية كلها [(٣)]، كما وفر كل الأدوات والكتب المعينة لاستظهار العلوم المختلفة ، كما جعل في بيت الحكمة

---

(١) الفهرست ص٣٠١.

(٢) انظر : عبد الحليم منتصر : تاريخ العلم ص٦٣، ٧٣.

(٣) ياقوت : معجم الأدباء ج٦ ص٢٦٨.

رواقًا للمناظرة والمحاجات الكلامية التي كان يؤمها علماء الفلسفة وعلم الكلام والشعراء والأطباء ، فجعل المأمون للأدباء والباحثين في حضرته المناظرة والمحاجة الكلامية ، كما كان ناقدًا بصيرًا يتذوق الشعر وحفظ أبياته ، من ذلك ما نقل من أن الشاعر مروان بن أبي حفصة قال : أعلمت أن المأمون لا ينصر الشعر ؟ فقلت : من ذا يكون أفرس منه ؟ والله إنا لننشد أول البيت فيسبق إلى آخره من غير أن يكون قد سمعه ، قال : إني أنشدته بيتًا أحدث فيه فلم أره تحرك له وهو هذا :

فَـلاَ هُـوَ فِي الـدُّنْيَا يُضِـيْعُ نَصِـيبَهُ ... وَلاَ عَرَضُ الدُّنْيَا عَنْ الدِينِ شَـاغِلُهُ[1]

وقد كان للمأمون نزعة تجديدية للتقارب بين أهل المذاهب الإسلامية المتعددة ، وقد مضى فيها غير متأثر فيها برأي غير رأيه ، فرأى أن خير وسيلة للجمع بين الفرق الدينية أن يعقد لهم مجالس مناظرة في بيت الحكمة ؛ ليدور فيها البحث فيما بينهم من خلاف ويعرف كل منهم ما عند الآخر من دعوى ودليل ويزول الخلاف بينهم بالإقناع والاقتناع ، فأمر يحيى بن أكثم قاضي قضاته – وكان من أهل السنة – أن يجمع له وجوه الفقهاء والعلم من أهل بغداد ، فاختار له من أعلامهم أربعين رجلاً فلما حضروا جلس المأمون لهم وسأل عن مسائل وأفاض في فنون الحديث والعلم ، فلما انفض ذلك المجلس قال ليحيى بن أكثم : يا أبا محمد إني لأرجو أن يكون مجلسنا هذا بتوفيق الله وتأييده على إتمامه سببًا لاجتماع هذه الطوائف على ما هو أرضى وأصلح للدين ، إما شاكٍ فيتبين ويتثبت طوعًا ، وإما معاند فيُرد بالعدل كرهًا[2].

وقد كانت لتلك المكتبة فهارس مسجل في أوراقها الكتب التي توجد في خزانتها ، فقد حدث الحسن بن سهل قال : قال لي المأمون يومًا : أي كتب العجم أشرف؟ فذكرت كثيرًا منها ، ثم قلت : جاوندان خرد (يتيمة السلطان) يا أمير المؤمنين ، فدعا المأمون بفهرست كتبه ، وجعل يقلبه فلم ير لهذا الكتاب

---

(١) الطبري : تاريخ الأمم ج١٠ ص٣٠٣.

(٢) عبد المتعال الصعيدي : المجددون في الإسلام ص٦٦.

ذكرًا ، فقال : كيف يسقط ذكر هذا الكتاب من الفهرست [1].

وبقيت حقيقة مؤسسة أن بيت الحكمة تلك تأسست في أيام الرشيد وعظم شأنها في عهد المأمون ولا صحة مطلقًا لما يقع فيه الكثير من الخلط من أن تلك المؤسسة من إنشاء المأمون ، فنجد أن ياقوت يصرح بأن بيت الحكمة كان في حيز الوجود أيام الرشيد والمأمون والبرامكة ، وكان سهل بن هارون ، وسعيد بن هارون ، وسلم خَزَنَةً لبيت الحكمة الذي أنشأه الرشيد فكان سلم حكيمًا فصيحًا شاعرًا ، وكان الجاحظ يجله ويصف براعته وفصاحته ، ويحكي عنه في كتبه ، ولسلم نقولُ من الفارسي إلى العربي ، ولسهل بن هارون عدة من الكتب ، وأما سعيد فقد كان بليغًا فصيحًا مترسلاً ، وله من الكتب كتاب الحكمة ومنافعها ، وله رسائل مجموعة [2].

وفي النهاية يمكننا استنتاج مستوى بيت الحكمة من مقدرة أساتذته ومديره ، أما ما هو معلوم عن رئيس بيت الحكمة فقد أوفده المأمون مع كوكبة أخرى للذهاب إلى بلاد الروم لنقل الكتب التي سوف تترجم ، وعندما لم يتقن أحد المترددين على بيت الحكمة كتاب المجسطي ، ندب المأمون لتفسيره أبا حسان وسلم صاحب بيت الحكمة فأتقناه ، كما أن الخوارزمي كان منقطعًا إلى خزانة الحكمة للمأمون وهو من أصحاب علم الهيئة ـ كما بَيَّنَّا ذلك من قبل ـ فإذا كان سلم والخوارزمي ممن برعوا في ترجمة العلوم اليونانية ، وتعلما المباحث الرياضية بشهادة الجميع وصالا وجالا في المجسطي وعلم الهيئة ، من ذلك نستنتج مقام هذين الأستاذين العلمي ، ومنه نحكم على مستوى بيت الحكمة ، وبالنظرة الفاحصة إلى مناهج التدريس بتلك المؤسسة المشيدة على الأرجح سنة ١٧٠هـ وجدناه راقيًا كل من أسهم فيه بلبنة بالرسوخ [3] ، وقد قال قوم تغدَّينا مع المأمون في يوم عيد فوضع على مائدته أكثر من ثلاثمائة لون ، قال : فكلما وضع لون نظر المأمون إليه فقال : هذا نافع لكذا ضار لكذا فمن كان

---

(١) ياقوت : معجم الأدباء ج٢ ص٣١٥.

(٢) المرجع السابق ص٣١٧.

(٣) كتاب معجم الأدباء ، والفهرست بتصرف وفق ما يقتضيه المقام .

منكم صاحب بلغم فليجتنب هذا ، وإن كان صاحب صفراء فليأكل من هذا ، ومن غلبت عليه السوداء فلا يعرض لهذا ، ومن قصد قلة الغذاء فليقتصر على هذا ، وقال له يحيى بن أكثم : يا أمير المؤمنين : إن خضنا في الطب كنت جالينوس في معرفته ، أو في النجوم كنت هرمس في حسابه ، أو في الفقه كنت علي بن أبي طالب في علمه ، فسر بهذا الكلام ، وقال : إن الإنسان إنما فضل بعقله ولولا ذلك لم يكن لحم أطيب من لحم ولا دم أطيب من دم [1].

حركة الترجمة :

وقد ألحق الخليفة العالم المأمون بهذا الصرح الثقافي النشط (بيت الحكمة) لجنة من أكابر علماء عصره يقومون بأعمال الترجمة للكتب التي بعث في طلبها من مصافها ومنابعها الأصلية من بلاد الروم وقبرص ، فضلاً عما وجد بالخزانة من كتب ومخطوطات قديمة جمعت كلها في الجناح الخاص بالترجمة إذ المعروف أن عمق حركة الترجمة هذه ترجع إلى عهدي المنصور والرشيد اللذين عرف عنهما حبهما الأثير للعلم وتقريب العلماء ، فشجعا على نقل كتب الطب والفلسفة والرياضة والنجوم والكيمياء من اللغات الأخرى مثل اليونانية والفارسية والسريانية ، والهندية والنبطية إلى اللغة العربية ، فقد كلف المنصور محمد بن إبراهيم الفزاري بترجمة كتاب في الفلك من الهندية إلى العربية [2]. كما عني ذلك الخليفة الهمام بترجمة كتب الطب عندما شغر بالمرض الذي أصيب به في أمعائه فكلف أبا يحيى بن البطريق بترجمة كتب جالينوس ، وأبقراط . أما الرشيد فإن حركة الترجمة بدت أنشط وساعدها على هذا العامل أنه أثناء حروبه الطاحنة مع الدولة البيزنطية كان هذا الخليفة يستولي على بعض المدن ويحمل ما بها من المخطوطات اليونانية وينقلها إلى بغداد ، وكان معظم هذه المصنفات في علم

---

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص٢١٥، ٢١٦.

(٢) ياقوت : معجم الأدباء ج٦ ص٢٦٨ ، العالمية (٤) .

الطب ، ومن أشهر المترجمين في عهده يحيى ابن ماسويه ، وحنين بن إسحاق [1].

وبلغت الترجمة أوج عظمتها في عهد الخليفة المأمون صاحب الحظ الأوفر من الاهتمام بالعلوم والفنون والآداب فلا عجب أن يتقرب إليه الناس بالعلم ويرصدوا له جهدهم ، وكان جوابه عن ذلك هو الإنفاق عن سعة لهذه الغاية عن سعة وبذل في ذلك المال الوفير ، حيث ظهر في أيامه أبلغ العلماء والتراجمة والفطاحل في علوم الفلسفة وعلم الكلام والطب والكيمياء والفلك ، فأعطى الحوافز المادية لهذه الفئة التي ترجمت له كتب القدماء ، فجعل المأمون لكل مؤلف يترجم مثل وزنه ذهبًا على سبيل المكافأة ، فنقلت من مصافها الأولى الكتب البارزة في الطب والرياضيات عن الهندية واللاتينية والمصرية القديمة حتى غدت خزانة (بيت الحكمة) تغص بأنفس المخطوطات اليونانية العتيقة ، والمراجع العلمية في كل أنواع المعارف .

وقد حملت الكتب والمخطوطات النادرة إلى بغداد في ذلك العصر النبيل فترجمت برعاية المأمون وتشجيعه الذي لا حدود لمنتهاه ، وجاءت الأعداد الكبيرة من نفائس العلوم التي نشأ ذلك الخليفة متشبعًا بها شغوفًا بحبها مقتنعًا بفائدتها ، فنشطت حركة الترجمة مع النهضة العلمية الشاملة ، وذلك بفضل تعظيمه للعلماء وتقريبهم من مجالسه ، والعمل على استقدام العديد منهم من أنحاء متفرقة من المعمورة ، فتقاطر المترجمون من أنحاء العراق والشام وفارس إلى بغداد ، ومنهم : النساطرة ، واليعاقبة ، والصابئة ، والمجوس ، والبيزنطيين ، والبراهمة ، وغيرهم [2].

وكان المأمون يستقدم العديد من مؤلفات العلوم الحكمية والفلسفية خاصة كتب أرسطو ، فأرسل العديد من علماء عصره ممن يجيدون اللغة اليونانية والسريانية مثل : الحجاج بن مطر ، وابن البطريق ، وسلم ، وسهل بن هارون ، وأولاد موسى بن شاكر ، والخوارزمي أقطاب هذه النهضة ، ورجالاته المخلصين الأفذاذ فأرسلوا

---

(١) ابن النديم : الفهرست ص٢٩٥، أهم المدن التي وجد بها مخطوطات : أنقرة ، وعمورية .

(٢) ابن النديم : الفهرست ص٢٩٥، ابن أبي أصيبعة عيون الأنباء ج١ ص١٢٥.

لجمع المخطوطات النفيسة من أنحاء القسطنطينية ، وأثينا ، وصقلية ، والإسكندرية ، وأنطاكية ، وجندياسبور ، والرها ، وقبرص ، وغيرها من المدن والدول [1].

ومن الظروف السياسية السعيدة تلك المراسلات التي تمت بين ملك الروم والمأمون ، فاستأذن في إنفاذ ما يختاره من العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلد الروم فأجاب إلى ذلك بعد امتناع فاختار الخليفة مجموعة من علمائه منهم : يوحنا بن ماسوية ، وابن البطريق ، وسلم ، وابن مطر وغيرهم ، فأخذوا ما اختاروه وما أوجد لهم في هذا السبيل [2].

كما نقلت مجموعة هائلة من المصنفات الحكمية الزاخرة بالمعلومات التي تحتاجها العقليات المستنيرة من جزيرة قبرص وذلك كما يقول صاحب مؤلف عيون الأنباء : بأن المأمون لما أبدى السلم والمهادنة مع زعيم القبارصة أرسل إليه يطلب خزانة كتب اليونان ، وكانت مجموعة عندهم في بيت لا يظهر عليها أحد ، فجمع الرجل بطانته وذوي الرأي عنده واستشارهم في حمل الخزانة إلى المسلمين ، فكلهم أشاروا بعدم الموافقة إلا مطرانًا واحدًا فإنه قال : الرأي أن تعجل بإنفاذها إلى ملكهم فما دخلت هذه العلوم العقلية على دولة شرعية إلا أفسدتها وأوقعت بين علمائها ، فأرسلها صاحب قبرص إلى المأمون الذي اغتبط بها [3].

وقد كانت الترجمة قبل عصر المأمون عملاً فرديًا ، ولكنها مع الازدهار والاهتمام الفائق أصبحت من عمل لجنة مهيأة بالثقافة والإدراك العلمي والإلمام باللغة التي نقلت منها تلك المخطوطات مما جعلها أوسع دائرة وأكثر دقة مما كانت عليه من قبل ، فنقلت إلى العربية المؤلفات النادرة القيمة من كتب اليونان مثل مباحثات إقليدس ، وجالينوس ، وأبقراط ، وأرشميدس ، وأبو لدنوس ، وكتاب الجمهورية لأفلاطون ، وكتاب القانون والسياسة ومؤلفات أرسطو

---

(١) طوقان : مرجع سابق ص١١٥.

(٢) ابن النديم : الفهرست ص٣٠١.

(٣) ابن أبي أصيبعة ج١ ص١٧٥.

الشهيرة التي في مقدمتها المقولات الطبيعية والخلقيات وفيما وراء الطبيعة ، وكتب العهد القديم ، وكتاب في الطب ينسب إلى يونس الأحيني ، وكان في طليعة المترجمين : حنين بن إسحاق ، وأولاد موسى بن شاكر ، وحبيش ابن أخت حنين ، وعيسى بن يحيى ، وموسى بن خالد وغيرهم [(١)].

كما نقل ابن نوبخت ، ويحيى بن خالد مجموعات هائلة من ثقافات الفرس المختلفة وكان للفرس صلة بالهنود ومعرفة بالثقافة الهندية ومدى رقيها ، ومن أجل هذا نجد ابن نونجت ، وعلان الشعوبي ، وابن خالد يرسلون في طلب أشهر الكتب الهندية ومجموعة من علماء الهند الممتازين ؛ ليكونوا في ضيافة الخلافة العباسية إبان عصر المأمون المزدهر ، فأقدموا على ترجمة تراثهم القديم من علم وأدب وفن ، وقد كان استقدام تلك الكوكبة من العلماء والأطباء الهنادكة أكبر دليل على الانفتاح العلمي البالغ الأمر الذي شجع المأمون على الاستفادة من أطبائهم فعينهم أساتذة في البيمارستانات في حواضر الدولة الإسلامية الشاملة إلى جانب عملهم بالترجمة مما لديهم من كتب وتحويلها إلى اللغة العربية [(٢)].

ومن أهم المترجمين الذين ازدان بهم ذلك العصر وكانوا نخبة ممتازة يملكون الإحاطة الكاملة لما يترجمون إلى اللغة العربية ويضيفون لها ما يعن لهم من شروح وتعليقات ، وكان من طليعتهم الفذة : حنين بن إسحاق الذي بعث إليه المأمون وأمره بنقل ما يقدر عليه من كتب الحكماء اليونانيين إلى اللسان العربي وإصلاح ما ينقله غيره فامتثل أمره حيث كان أعلم أهل زمانه باللغة اليونانية والسريانية والفارسية إلى حد لم يصل إليه أحد من النقلة الذين كانوا معاصرين له ، وكان جل اهتمامه بكتب الحكمة والطب .

وقام حنين بترجمة الكتب الطبية اليونانية التي حذق لغتها ترجمة متقنة دقيقة ، ذلك أن المترجم لا يستطيع أن يترجم الكتب العلمية إلا إذا كان قادرًا على فهم

---

(١) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ج١ ص١٣٠.

(٢) المرجع نفسه ج٢ ص١١٧.

مادتها فكان على حنين أن يفهم الطب حتى تكون ترجمته لأبقراط وجالينوس ترجمة صحيحة مفهومة ، ولم تكن الصعوبات التي واجهت حنين ورجاله الذين عملوا معه في بيت الحكمة بالشيء القليل [1]، كان عليه أن يترجم المصطلحات العلمية ، ولم يعجزه ذلك فكان يختار الكلمات العربية للمصطلحات التي لا يتم فهمها بغير تفهم معناها كالمزاج والاختلاط والقوى والأركان ، أما المصطلحات التي لا يتوقف فهمها على فهم معنى ألفاظها فقد اختار أن يعربها [2].

وكان حنين المرجع الأساسي لما يترجمون ، وبلغ الجد العلمي غايته ، يدلنا على ذلك أن رجلاً اسمه اسطفان بن بسيل قام بترجمة كتاب ديوسقوريدس في المادة الطبية وعرض الكتاب على حنين فأقره ، ولعل كثير من المترجمين كانوا يفعلون ذلك فكان إقرار حنين لترجمة كتابٍ ما خير دليل على صواب الترجمة [3].

وقد زخرت بحور الترجمة بالعديد من الأسماء التي ساعدت حنين في عمله الجيد ، فقد ساعدهم في تصحيح الكثير من أغلاط اليونان واستدركوا عليهم من معلوماتهم في الكثير من الموضوعات ، كما أضافوا من عندهم إضافات وابتكارات قيمة ، وكان في مقدمتهم يوحنا بن البطريق ، فقد كان مولى للمأمون وظل يتابعه حتى بانت نجابته وبرزت مواهبه العلمية فأطلعه على العديد من الذخائر ، وقبل أن يرسله الخليفة إلى القسطنطينية مع سلم ، والحجاج طلب منه أن يتعلم الطب على النوابغ ، وتتلمذ على حنا بن ماسوية ، ولما ظهرت مواهبه في هذا المضمار عكف على التفقه في اللغات القديمة فأتقن السريانية واليونانية ، وأحاط بها وذهب إلى البصرة وتلقى العربية على خير علمائها ، ثم عاد إلى بغداد وعمل في بيت الحكمة والحق بلجنة الترجمة ونظم المخطوطات حسب ورودها والاستفادة من حقائقها ،

---

(١) كان معه ابن أخته حبيش ، وابنه إسحاق ، وابن البطريق ، وسلم ، والحجاج بن مطر .

(٢) فقد عرَّب حنين ليثاغورس ، والباسيليق ، والقيفال ، وكان موفقًا كل التوفيق في هذا العمل ، حفظ للعربية ما استطاع أن يحتفظ به .

(٣) محمد كامل حسين : كتاب في الطب والأقربازين ص٢٧٤.

وكان أمينًا في ترجمته ، وتولى ترجمة كتب أرسطو ، وبعض كتب أبقراط ، وقد كان إسحاق بن حنين وابن عمته الحسن بن حبيش على المنهج نفسه الذي جرى عليه أستاذهم الذي علمهم الدأب ومصاحبة العلماء ، وقد توفر لهما مكتبة ضخمة في علوم الطب حيث كان حنين الأب من هواة الكتب وورث ابنه وابن أخته تلك الخصيصة ، فقد اطلعا كما يقول ابن النديم على جملة كبيرة من الكتب أشهرها عشر مقالات في طب العين الذي كان أيضًا حاويًا تفسيرًا لما كتبه جالينوس عن أمراض العين فضلاً عن المراجع الثمينة التي وجدت في هذه المكتبة ، وكانت خير دليل لهم في براعتهم في العمل العلمي الذي قاموا به داخل لجنة الترجمة التي كانا من أنشط العاملين فيها ، وأقبل الناس على الاطلاع على هذه الكتب والبحث فيها أيما إقبال مثل : التشريح الكبير ، وعلم أبقراط ، وتشريح الحيوان الحي خصب البدن ، ومنافع الأعضاء ، وتركيب الأدوية وعلوم أرسطو [1].

المرصد :

وقد شيد الخليفة العالم المأمون مرصدًا في جبل قيسون بدمشق كما أنشأ في بلاد العراق مرصدًا آخر في الشماسية ببغداد وذلك لغاية العلم النبيل ، والهدف منه دراسة حركات الأجرام السماوية بواسطة الاسطرلاب ، وهو آلة اخترعها اليونانيون ليستعينوا بها على رؤية الكواكب ، وقد ترجم محمد بن إبراهيم الفزاري كتاب حركات النجوم عن الهندية ، وسماه : السند هند الكبير ، ويقي معمولاً به إلى أيام المأمون واختصره الخوارزمي ووضع منه زيجه المشهور حيث زاوج بين مذاهب الهند والفرس وبطليموس ، واخترع فيه أبوابًا حسنة ، كما ألف يحيى بن أبي منصور زيجًا فلكيًا مع سند بن علي ، وقد كان سند ممن أشرفوا على بناء

---

(١) المرجع السابق ص٢٤٢، هذا إلى جانب : مترجمات آراء أبقراط وأفلاطون ، الحاجة إلى النبض ، العادات وتشريح الرحم ، علم أبقراط بالتشريح ، تشريح الحيوان الميت ، الرياضة بالكرة الصغيرة ، الرياضة بالكرة الكبيرة ، الحث على تعلم الطب ، قوى النفس ومزاج البدن ، أفلاطون في طيماوس ، إسحاق مع والده حنين .

المرصد مع علي بن البحتري ، وقد أصلحا أغلاط المجسطي لبطليموس ، فحقق هؤلاء الفلكيون مسائل كثيرة في هذا المؤلف ، كما استطاعوا تقدير الدرجة العرضية الأرضية بمسافة طولها (٥٦ وثلثي الميل) ومكنهم بذلك معرفة محيط الكرة الأرضية ونصف قطرها ، وأسهم الخوارزمي العالم الرياضي المشهور في هذه العملية [١]، كما برزت الأزياج [٢]. فمن الآثار الباهرة أن المأمون هو صاحب فكرة قياس محيط الأرض ، حيث أخرج لتلك الغاية العديد من اللجان الفلكية والرياضية من أخص علمائه لإنجاز هذا السبق العلمي الرائد ، فقد قال سند بن عليّ المشرف على مراصد المأمون بأن هذا الخليفة الجهبذ قد أمره هو وخالد بن عبد الملك المروروزي أن يقيسا مقدار درجة من أعظم دائرة من دوائر سطح كرة الأرض ، قال : فسرنا لذلك جميعًا وأمر علي بن عيسى الاسطرلابي وعلي بن البحتري قبل ذلك فسارا إلى ناحية أخرى ، قال سند بن علي : فسرت أنا وخالد بن عبد الملك إلى ما بين واسط وتدمر وقسنا هناك مقدار درجة من أعظم دائرة عمر بسطح كرة الأرض فكان سبعة وخمسين ميلاً ، وقاس علي بن عيسى ، وعلي بن البحتري فوجدا مثل ذلك ، وورد الكتابان من الناحيتين في وقت بقياسين متفقين [٣]، كما كلف المأمون على وتيرة هذا القياس أبناء شاكر المعنيين بأمر النجوم والرياضيات الذين انقطعوا للعلم في خدمة بيت الحكمة ومراصد المأمون ، فقد قدروا محيط الأرض وفق مختبراتهم بنحو أربعة وعشرين ألف ميل ، وقد اختاروا مكانين منبسطين إحداهما صحراء سنجار حيث نصبوا الآلات وقاسوا الارتفاعات والميل والأفق وعلموا أن كل درجة من درجات الفلك يقابلها (٦٦ وثلث الميل) ، وتوافق الحساب مع ما علموه في أرض الكوفة [٤].

---

(١) طوقان : تراث العرب العلمي ص١١٨.

(٢) وهي صناعة حسابية على قوانين رياضية فيما يخص كل الكواكب عن طريق حركته إنها جداول فلكية .

(٣) طوقان : مرجع سابق ص١٢٠.

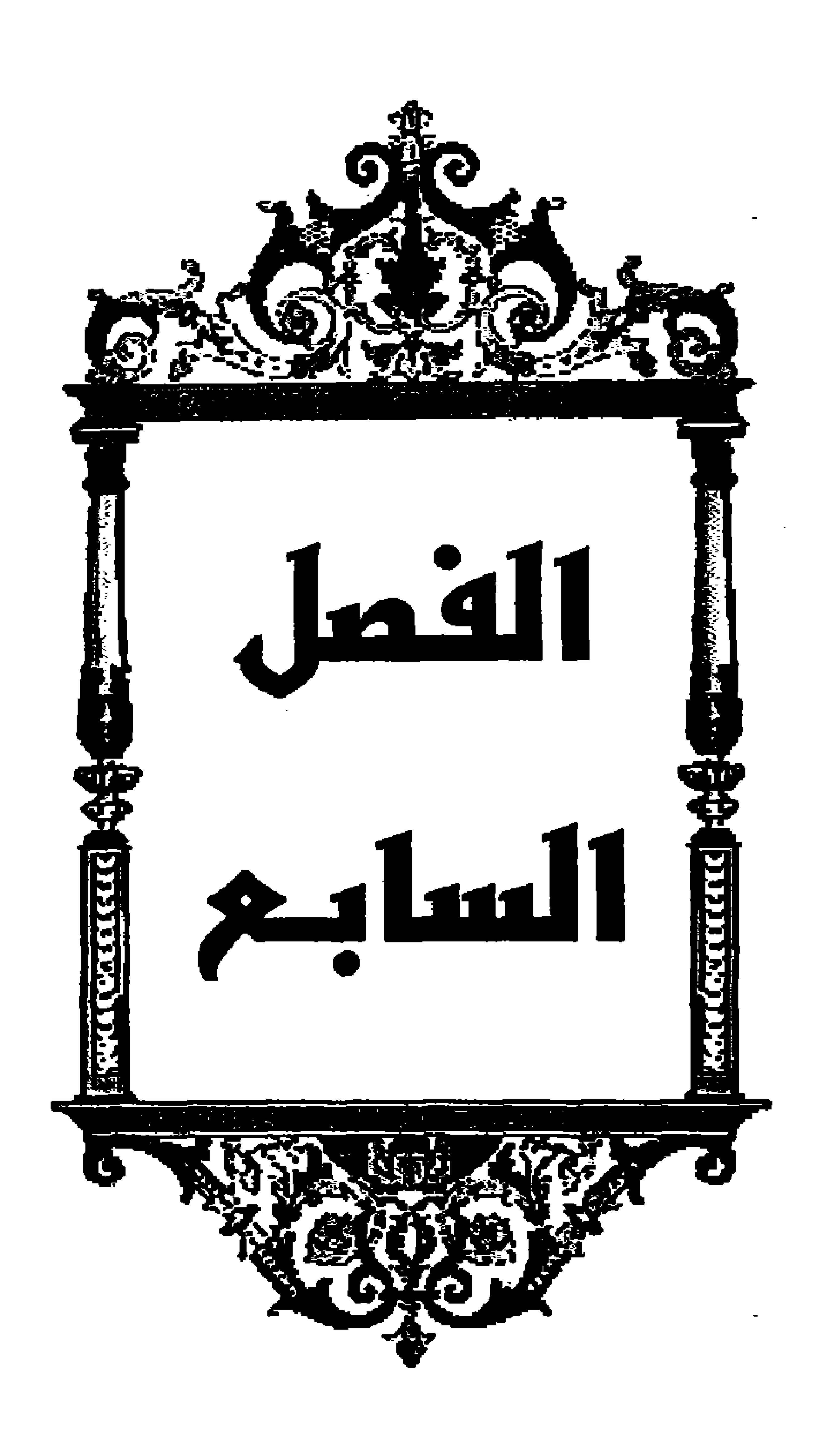
(٤) منتصر : تاريخ العلم ص١٤٨.

إن هذا القياس المنسوب إلى أبناء شاكر ، وما قام به سند بن علي وجماعته من الأعمال العلمية الجيدة ؛ لأنه وبترتيب موفق من الخليفة العالم الجرئ أول قياس حقيقي أجرى تباعد أو توافق ، وكل ذلك تم مع كل ما اقتضته تلك المساحات من المدة الطويلة والصعوبة والمشقة ومعاناة التواصل مع عوامل الجو المتباين ، فضلاً عن اشتراك مجموعة من العقليات المنسجمة آرائهم وهم من الفلكين والمساحين الذين يعملون لكل خطوة حسابها .

وأخيرًا نحب أن ننوه بأن المأمون قد سابق عصره بأن وقف العديد من الأماكن ليوفر ريعها على الصرف وقفًا يغل إيرادًا يكفي للإنفاق على شئون بيت الحكمة وفروعها ، وكان المأمون أول من ابرز تلك الفكرة الميمونة للوجود ، فإنه لم يشأ أن يكون نشاط هذا المركز قائمًا على سخاء الخلفاء والأمراء بل أراد أن يجعل نشاطه قويًا متصلاً سواء أكان الخليفة كريمًا أم شحيحًا ، فهيأ للعلماء رزقًا سخيًا يتقاضونه من وقف ثابت يقبض ريعه من التكاليف المطلوبة لهذه المؤسسة الثقافية [1]، ولا عجب أن يسير على درب المأمون كل من يفكر في إنشاء مؤسسة ثقافية أن يوفى بضرورياتها من الأوقاف .



(١) ابن الأثير : الكامل ج١٠ ص١٤٠.


الفصل
السابع

حركة الحياة بدءًا ونهاية

المأمون بين مادح له وقادح :

إن وقوف الرجل في ترسم أمام مرآة التاريخ العاكسة للأوضاع السائدة من بداية أمره في دنيا الناس إلى أن طوته يد المنون ، فالصورة الواضحة في الدلالة على منطوق ما خطه القلم في حقه من أناس يقيمون الساسة والزعماء تحت ميكروسكوب النقد التحليلي المجرد الذي لا يجامل ولا يتحامل ، وبما أنه لا يجري وراء تحقيق مغنم أو يطاول المستحيل ليبرز المحاسن في غير موضعها ؛ لينال حظًا موفورًا في المناصب الرفيعة التي كانت في الغالب لأرباب الكفاية أحيانًا ، وفي الغالب تكون لمن يجيدون فن الملق الموصل لساحات الذيوع دون ما انتقاص لمكسب وقتي أو خطوة مسددة يضعها التاريخ في جعبته المسجلة لكل الوقائع بالقول المبين .

إننا هنا لم ندخل في حسابنا مثل تلك الأحكام التي تغلفها المجاملات وتصورها الأغراض بكل أصباغ الجامد في لوحات الحياة ، فليقف المأمون على أي دائرة من دوائر قطب الأرض التي حكم معظم رقعاتها ، وهو في ميادينها عَلَم على رأسه نار ، وقبس من نور التاريخ نسلطه عليه من خلال ما كتبه أعلام الفكر والآداب الذين جمعناهم في حشد تلك السطور ، ليقولوا رأيهم في الرجل الذي وقف طواعيةً ولأول مرة في مناظرة من طرف واحد ، وجاء الدور على المقيِّمين ليؤدوا دورهم دون ما تدخل ، فيقول الذهبي شمس الدين عنه : إن هذا الرجل قد قرأ العلم والأدب والأخبار والعقليات وعلوم الأوائل ، وأمر بتعريب كتبهم وبالغ وعمل المرصد فوق جبل دمشق ، وكان من رجال بني العباس حزمًا وعزمًا ورأيًا وعقلاً وهيبةً وحلمًا ، ومحاسنه كثيرة في الجملة قد صبر على أمور وخطوب وبلاء وحروب تشيب النواصي [(١)].

---

(١) سير أعلام النبلاء ج٩ ص٤٤.

أما ابن الأثير فقد نظر إلى صورة المأمون الماثلة أمامه فقال : قرأ العلم في صغره ولم يلِ الخلافة من بني العباس مثله ، وكان فصيحًا مُفَوَّهًا أمّارًا بالعدل فقيه النفس وقد تشبه بأبي جعفر الذي كانت له في النفوس جلالة وتفاؤل ، وقد دعا إلى القول بخلق القرآن وبالغ ، وقد كان أبيض ربعةً حسن الوجه تعلوه صفرة قد خطه الشيب ، وكان طويل اللحية أعين ضيق الجبين على خده شامة [1].

وعندما يملك المسعودي زمام المبادأة والرأي فإنه يفاجئنا ببعض الحقائق الجانبية عن المأمون فيقول : عندما أُفْضِيَ الأمر إلى المأمون فكان في بدء أمره — لما غلب عليه الفضل بن سهل وغيره — يستعمل النظر في أحكام النجوم وقضاياها وينقاد إلى موجباتها ، ويذهب مذاهب من سلف من ملوك ساسان كأردشير بن بابك ، ثم أظهر المأمون القول بالتوحيد والوعد والوعيد وجالس المتكلمين وألزم مجلسه الفقهاء ، وأهل المعرفة من الأدباء وأقدمهم من الأمصار ، وأجرى عليهم الأرزاق ، وكان أكثر الناس عفوًا وأحسنهم مقدرة وأبذلهم للعطايا [2].

أما السيوطي فأفاض في السجايا وحدد المواقف قال : سابع خلفاء بني العباس فكان تقيًا ورعًا ميالاً للعفو يكره الانتقام ، عادلاً يجلس للقضاء بالعدل بين الناس ، ما توجه إليه مظلوم إلا أعاد له حقه ، وكان واسع الصدر يناقش من يخالفه بالحسنى ، وكان كريمًا كثير العطايا فاق في ذلك الرشيد نفسه ، وعندما انتشرت الفتوحات في بعض أجزاء من دولته جمع الجيوش وسار إليها بنفسه فأخمد ثورة البلاد وأعاد إليها السكينة ، وقد تابع الفتوح التي قام بها أبوه وهادن صاحب قبرص ، وتم في عهده فتح جزيرة كريت وصقلية [3].

وعن البعثات العلمية التي رفعت مكانة المأمون إلى أوج مجده يقول ابن خلدون : وجاء المأمون وكانت له في العلم رغبة بما كان تنتحله ، فبادر لهذه العلوم حرصًا ،

---

(١) الكامل في التاريخ ج١٠ ص١٥٥.

(٢) مروج الذهب ج٣ ص٧٠.

(٣) تاريخ الخلفاء ص٢١٠.

وأوفد الرسل إلى ملوك الروم في استخراج علم اليونانيين وانتساخها بالخط العربي ، وبعث المترجمين لذلك فأوعى منه واستوعب وعكف عليها النظار من أهل الإسلام وحذقوا في متونها وانتهت إلى الغاية أنظارهم فيها [1]، وقد خص الأصفهاني العديد من المباحث والحقائق في موسوعته الأغاني للمأمون آثره فيها بالإشادة وحسن التقييم ، من ذلك تلك المناظرة العلمية التي عقدها وقصد منها المؤلف بيان تفرد الخليفة العلمي ، فقد روي : أن المأمون قال مرة لجلسائه : أنشدوني بيتًا لملك يدل البيت وإن لم يُعرف قائله أنه شعر ملك ، فأنشده بعضهم قول امرئ القيس :

أَمِنْ أَجْلِ أَعْرَابِيَةٍ حَلَّ أَهْلُهَا   جَنُوبَ المَلاَ عَيْنَاكَ تَبْتَدِرَانِ؟

قال : وما في هذا مما يدل على الملك ؟ قد يجوز أن يقول هذا سوقه من أهل الحضر فكأنه يؤنب نفسه عن السؤال بقوله : الشعر الذي يدل على أن قائله ملك قول الوليد :

لِي المَحْضُ مِنَ وِدِّهِمْ   وَإِلَيْهِمُ نَائِلِي

فهذا قول من يقدر بالملك على المنح الغامر ولا يطلب من الممنوح إليهم إلا الولاء ومحض الود [2].

أما ابن النديم فيروي لنا حكاية أثبتها للمأمون في محضر مواجهة مع بعض المانوية دلت على سماحته وحسن استجابته قال : إن المأمون أرسل إلى يزدانبخت ـ أحد رؤساء المانوية ـ فأحضره من الري ـ بعد أن أمَّنه ـ فقطعه المتكلمون فقال له المأمون : أسلم يا يزدانبخت فلولا ما أعطيناه إياك من الأمان لكان لنا ولك شأن ، فقال له يزدانبخت : نصيحتك يا أمير المؤمنين مسموعة ، وقولك مقبول ، ولكنك ممن لا يجبر الناس على ترك مذاهبهم ، فقال المأمون : أجل ووكل به من حفظه خوفًا عليه من الغوغاء [3].

---

(١) المقدمة ص٤٨٠.

(٢) الأصفهاني : الأغاني ج٧ ص١١٥.

(٣) الفهرست ص٣٣٨.

وقد نوه ياقوت بحقيقة غاية في السبق تنسب إلى المأمون وعصره إذ سمح لأهل اليسار بأن ينشئوا دور الثقافة على نفقتهم لنشر العلم وفائدة المتعلمين قال ياقوت : كان بكركر [(١)]، ضيعه نفيسة لعلي بن يحيى بن المنجم من أعلام الهيئة في عهد المأمون وله قصر جليل فيه خزانة كتب عظيمة يسميها خزانة الحكمة ، يقصدها الناس من كل بلد فيقيمون فيها ويتعلمون منها صنوف العلم ، والكتب مبذولة في ذلك لهم والصيانة مشتملة عليهم ، والنفقة في ذلك من مال علي بن يحيى [(٢)].

ثم نبرز هنا بعض الأقوال المنسوبة إلى بعض الباحثين الأجانب عن المأمون وعهده الخصيب الحافل بخيرات النماء العقلي ، يقول كاجوري : إن العقل ليدهش عندما يرى ما عمله العرب في الجبر ، وهم أول من أطلق لفظة جبر على العلم المعروف بهذا الاسم ، وعنهم أخذه الإفرنج ، وكان محمد بن موسى الخوارزمي أول من ألف فيه في عهد المأمون ، وبذلك يصح أن يقال أن الخوارزمي واضع علم الجبر وعلم الحساب وهو الأول من نوعه من حيث الترتيب والتبويب والمادة ، وقد نقل إلى اللغة اللاتينية وظل زمنًا طويلاً مرجع العلماء والتجار والمحاسبين ، ويقول خوادبخش : يبدو أن عصر المأمون وهو أزهى العصور ومكان القمة بالنسبة إلى سواه ، ومن الحق أن يقال أن جميع الحركات الثقافية في الأقطار الإسلامية منذ عهد المأمون هي فروع الأصول التي غرسها وسقاها ذلك الخليفة العظيم [(٣)].

ويقول سيد أمير علي : إن بلاط المأمون كان يموج بجمهرة عظيمة من رجال العلم والأدب والشعراء والأطباء والفلاسفة الذين استدعاهم المأمون من جهات متعددة من العالم المتمدين وشملهم جميعًا بعنايته مهما اختلفت مشاربهم وجنسياتهم ، ويقول هوجر : إن عصر المأمون أزهى فترة في تاريخ النهضة بالعالم

---

(١) من نواحي القفص قرية قريبة من بغداد على بعد ميلين منها .

(٢) معجم الأدباء ج٢ ص٤٢٠.

(٣) حافظ طوقان : تراث العرب العلمي ص٢٨٢.

الإسلامي ، إذ كان الخليفة نفسه عالمًا من أساطين العلماء واختار أصحابه ورجال الدولة من الصفوة الأفذاذ في الشرق والغرب هذا إلى جانب الأساتذة والمشيرين والمترجمين والمفكرين الذين علا بهم بلاطه وزين ملكه .

ويقول طوطح : إنه بينما كان شارلمان يتعلم القراءة مكبًا على مطالعة رسائله مع أقرانه في مدرسة القصر ، وأن رجاله كانوا يتخبطون في تعلم كتابة أسمائهم ، كان المأمون ينبش في كنوز الفلسفة اليونانية والفارسية ويعالج حقائقها ويناقش أقضيتها في بغداد ، وقد كان في بيت الحكمة رواق خصصه المأمون لأبناء العرب يتعلمون فيه اليونانية والسريانية والهندية والنبطية وغيرها من اللغات المختلفة على يد هؤلاء الأعلام المنفردين في هذه اللغات في مقدمتهم ابن ماسوية وحنين ابن إسحاق وابن البطريق [(١)] .

ويجمل بنا أن نرى الوجه الآخر عن التصور لحقيقة ما يراه الناس عن خليفتهم المأمون فقد شابت بعض الآراء والأقوال المبثوثة في بطون الكتب يستشف منها عدم الارتياح بالكلية من الرجل وعصره فإرضاء جميع الخلق من المستحيل بمكان ، فهاهو الرجل الذي كد ذهنه اجتهادًا يجد من يعارض أحكامه وتصرفاته بل ربما قوبل بالهجاء والقدح ورميه بسوء المنقلب ، فيروي الطبري : أن رجلاً تعرض للمأمون بالشام مرارًا فقال له : يا أمير المؤمنين انظر لعرب الشام كما نظرت لعجم أهل خراسان ، فقال المأمون : أكثرت علي يا أخا أهل الشام ، والله ما أنزلت قيسًا عن ظهور الخيل إلا وأنا أرى أنه لم يبق في بيت مالي درهم واحد ، وأما اليمن فوالله ما أحببتها ولا أحبتني قط ، وأما قضاعة فسادتها تنتظر السفياني وخروجه فتكون من أشياعه ، وأما ربيعة فساخطة على الله منذ بعث الله نبيه من مضر ، ولم يخرج اثنان إلا خرج أحدهما شاريًا ، أُغْرُب فعل الله بك [(٢)] .

---

(١) مختصر تاريخ العلم ص١٦٧ .

(٢) تاريخ الأمم ج١٠ ص٢٩٦ .

وقد ثار أهل بغداد على المأمون عندما بايع بالعهد لعلي ابن موسى الرضا ونوه بذكره ونبذ السواد وأبدله بالخضرة فهاجت بنو العباس وخلعوا المأمون ثم بايعوا عمه إبراهيم ابن المهدي ولقبوه المبارك ؛ لأنهم رأوا الأمر يخرج من بين بيت العباس إلى بيت علي ، وقد ثار أهل بغداد لأنهم من أهل السنة ، وقد رأوا فيما فعله المأمون إيثارًا للتشيع ، ولم يكن إبراهيم من طراز المأمون ولا على الرضا في العلم والفضل ولكن التعصب المذهبي هو الذي قضى بإيثاره ، وقد وقع المأمون في حرج شديد ومكث بعيدًا عن بغداد لا يمكنه أن يدنو منها إلى أن مات علي الرضا سنة ٢٠٣هـ ، وعندما كاتبهم بوفاة علي فردوا جوابه أغلظ جواب إلى أنْ صالحهم [(١)].

وقد كانت تلك الخطوة التي أقدم عليها المأمون في الميل إلى البيت العلوي لها مغزاها ومرامي بعيدة في حساسيات الموقف داخل البيت العباسي ، فضلاً عما قدمناه سلفًا نجد أن السيدة زينب بنت الأمير سليمان عم المنصور العباسية ، وقد كانت معمرةً ولها مكانة عالية عند الخلفاء جميعًا وعاشت أيامهم بدءًا من السفاح إلى الأمين والمأمون ، وعندما مات ابنها عبد الله بن محمد بن إبراهيم الإمام سنة ٢٠٣هـ ، وأرسلت إلى الخليفة المأمون تبلغه خبر وفاة ابنها ، فأرسل المأمون وكان دائمًا يكرمها ويجلها على الفور لابنها المتوفى كفنًا وسير أخاه صالحًا ليصلي عليه نيابة عنه ويعزي عمته زينب الكبرى عميدة الزينبات ، وهي كما قلنا عند الأسرة العباسية بمنزلة عظيمة فأتى إليها الأمير معزيًا إياها في فقد ابنها عبد الله واعتذر عن تخلف المأمون عن الصلاة عليه بالمسجد ، فاستشاطت غضبًا وعلا صوتها بالتنديد بهذا الخليفة الذي سبق له أن حضر وفاة يحيى بن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين العلوي ، ونما إلى علمها حضوره الصلاة عليه بنفسه ، وقد رأى الناس عليه علامات التأثر والكآبة والحزن الواصب وعرفت زينب كل ذلك ، ولما مات ابنها أرسل المأمون من ينوب عنه في تقديم العزاء ، والصلاة عليه؟ فما كان منها إلا أن تجاهلت صالح

---

(١) الذهبي : أعلام النبلاء ج٩ ص٤٥، عبد المتعال الصعيدي : المجددون في الإسلام ص٧.

ووجهت كلامها إلى حفيدها قائلة : تقدم فصلي على أبيك بل وتمثلت بقول القائل :

سَكَبْنَاهُ وَنَحْسِبُهُ لُجَيْنًا ... فَأَبْدَى الكِيرُ مِن خَبَثِ الحَدِيدِ

ثم قالت لصالح : قل له يا ابن مراجل ، أما لو كان يحيى بن الحسين ابن زيد لوضعتَ ذيلك في فيك وغدوتَ خلف جنازته [1].

وقد هجا دعبل الخزاعي المأمون وقد وصله المأمون قال :

أَلَمْ يَأْنِ لِلسَفْرِ الذِينَ تَحَمَّلُوا ... إِلَى وَطَنٍ قَبْلَ المَمَاتِ رُجُوعُ

قُلْتُ وَلَمْ أَمْلِكْ سَوَابِقَ عَبْرَةٍ ... نَطَقْنَ بِمَا ضُمَّتْ عَلَيْهِ الضُّلُوعُ

وهو القائل :

إِنِّي مِنَ القَوْمِ الذِينَ سُيُوفَهُمْ ... قَتَلَتْ أَخَاكَ وَشَرَّفَتْكَ بِمَقْعَدَ

سَادُوا بِذِكْرِكَ بَعْدَ طُولِ خُمُولِهِ ... وَاسْتَنْقَذُوكَ مِنَ الحَضِيضِ الأَوْهَدَ [2]

وقد مر عليه ملاح وهو جالس على شط الفرات فقال بصوت يسمعه الخليفة : أتظنون أن هذا المأمون ينبل في عيني وقد قتل أخاه [3]، ويقول الذهبي معقبًا على أيام المحنة الخانقة والمعروفة بإيراد معنى خلق القرآن قال : أما مسألة خلق القرآن فما رجع عنها وصمم على امتحان العلماء في سنة ثماني عشرة وشدد عليهم فأخذه الله [4]، فما كان من المأمون الذي كان يؤثر الحلم والتسامح إلا أن رد على الأول بقوله ما أقل حياء دعبل ، متى كنت خاملاً وقد نشأت في حجر الخلفاء ، وقد تبسم لمقولة الثاني السريع في عدوه على متن الحراقة التي كان يركبها قال : ما الحيلة حتى أنبل في عيني هذا الرجل ، وكان رده على الثالث لم يجد سوى الصمت الخاشع ؛ لأن الذهبي عندما أبدى رأيه الأخير كان المأمون بين ثرى طرسوس في جدث مجهول المعالم !

---

(١) ابن الأثير الكامل ج٦ ص٨٧.

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص٣٥٥.

(٣) المرجع السابق ص٣٢٠.

(٤) الذهبي : العبر ج٦ ص٢٠٧.

ثقافة المأمون الدينية :

قد حفلت حياة المأمون الثقافية برصيد مجيد من الاتجاه الديني الواعد ؛ لأن والده الرشيد قد أسلمه إلى مكارم الأخلاق وضمه منذ حداثته مع رعيل المؤدبين الأصلاء الذين غرسوا في كيانه كل معالم الخير والسؤدد والنبل والسجايا الحميدة ، فبدت فراسته تنبئ عن نجابة ونبالة وجهد صادق للحصاد الشامل للعلم والدين ، فأذاب لنا المأمون خلاصة ما وعته ذاكرته التي نقشت تلك النصيحة المدبجة بأحرف الخبرة ، قال : المعلم يجلو لنا عقولنا بأدبه ، ويصدأ عقله بجهلنا ، ويوقرنا برزانته ونستخفه بطيشنا ، ويشحن أذهاننا بفوائده ويكل ذهنه بعيّنا فنأخذ منه محمود خصاله ويستغرق مذموم خصالنا ، فنحن الدهر ننزع من آدابه المكتسبة ونثبت فيه أخلاقنا الغريزية ، فهو طول عمره يكسبنا عقلاً ويكسب منا جهلاً [١].

وقد سجل المأمون ديوان الحفظ المكنون في نفسه ، فحفظ للمعلمين من تلقى عنهم بموفور الكرامة وأن لا يستخف بهم أحد ولا ينتظرون أن يبذل لهم أحدًا مالاً نظير تقديم العون العلمي فتورعوا عن أخذ المال ، فهاهو عبد الله بن إدريس علامة زمانه الذي لم يقبل أن يختص المأمون الأمير العباسي بدرس وحده حتى إذا سعى له المأمون ، وكان جوابه للرشيد وقد رجاه أن يعلمه الحديث أن قال : إذا جاءنا مع الجماعة حدثناه [٢]، وقيل حج الرشيد فدخل الكوفة فلم يتخلف إلا ابن إدريس ، وعيسى بن يونس فبعث إليهما الأمين والمأمون فحدثهما بمائة حديث ، فقال المأمون : يا عم أتأذن لي أن أعيدها حفظًا ، قال : افعل ، فأعادها فعجب من حفظه ، ومضيا إلى عيسى فحدثهما ، فأمر له المأمون بعشرة آلاف درهم فأبى وقال : ولا شربة ماء على حديث رسول الله ﷺ [٣].

وعنه أنه تلا في رمضان سنة ٢٠١هـ ثلاثا وثلاثين ختمة ، وكان يعظم العلماء ويقدر الفقهاء ويقربهم من مجالسه والعمل على استقدام العديد منهم

---

(١) ابن عبد ربه العقد الفريد ج٤ ص٩٨.

(٢) البيهقي المحاسن والمساوئ ص٢٠٥.

(٣) المرجع السابق ص٢٠٦.

من أنحاء متفرقة من المعمورة ، وقد بلغ من تسامحه أن جعل علماء الشيعة يفضلون الأئمة العلويين على أجداده العباسيين دون أن يتعرض لهم مطلقًا بأي سوء [1]، وقد تعمق في المناقشة العقلية حتى قيل إن المأمون تحاور مع علي الرضا قال : بم تدّعون هذا الأمر ؟ قال : بقرابة علي من النبي ﷺ ، وبقرابة فاطمة رضي الله عنها ، فقال المأمون : إن لم يكن هاهنا شيء إلا القرابة ففي خلف رسول الله ﷺ من أهل بيته من هو أقرب إليه من علي ، ومن هو في القرابة مثله ، وإن كان بقرابة من رسول الله فإن الحق بعد فاطمة للحسن والحسين ، وليس لعلي في هذا الأمر حق وهما حيان ، وإذا كان الأمر على ذلك فإن عليًا قد ابتزهما جميعًا وهما حيان صحيحان واستولى على مالاً يجب له ، فما أحار علي بن موسى نطقًا [2].

وقد كان المأمون إبان خلافته يجل رجلين من فطاحل العلم والزهد والتقى فكان يأخذ عنهما ويخشى سطوة العلم الذي يحملانه بين جنبيهما ، أولهما عبد الله ابن عبد العزيز حفيد عبد الله بن عمر بن الخطاب ، كان قد كتب من قبل إلى مالك وابن أبي ذئيب وغيرهما يغلظ لهما القول قال : أنتم علماء تميلون إلى الدنيا وتلبسون اللين وتدّعون التقشف ، فكان يعظ الخليفة الذي كان يتلقى قوله . نعم يا عم ، فلما ذهب اتبعه المأمون بكيسين فيهما ألفا دينار فردها ، وقال : هو أعلم بمن يفرقها عليه ولم يأخذ دينارًا واحدًا ، ثم شخص عليه بعد ذلك بغداد فكره مجيئه وجمع العمريين ، وقال : مالي ولابن عمكم احتملته بالحجاز فأتى إلى دار ملكي يريد أن يفسد عليّ أوليائي فردوه عني ، قالوا : لا يقبل منا ، فكتب إلى الأمير موسى بن عيسى بأن ترفق به حتى ترده [3].

أما العالم الثاني : فهو ذلك الذي قهر العلم : عيسى بن يونس الحافظ الحجة المرابط بثغر الحدث [4]، واسع العلم كثير الرحلة وافر الجلالة ، وقد قدم بغداد

---

(١) ابن النديم : الفهرست ص٢٩٥.

(٢) الجاحظ : التاج في أخلاق الملوك ص٢٨٥.

(٣) الذهبي : أعلام النبلاء ج٨ ص٣٣٢.

(٤) الحدث قلعة حصينة بين ملطية ومرعش من الثغور الشامية ويقال لها : الحمراء لأن تربتها حمراء .

فأمر له المأمون بمال فأبى أن يقبله ، وكان يتزين بزي الأجناد ، فقد غزا خمسًا وأربعين غزوة وحج كذلك [1].

أما عن اجتهادات المأمون وفتواه المنسوبة إليه مما نقلته كتب التراث إلينا ، فعن ابن عينيه قال : جمع المأمون العلماء وجلس للناس فجاءت امرأة فقالت : يا أمير المؤمنين ؛ مات أخي وخلف ستمائة دينار أعطوني دينارًا وقالوا هذا نصيبك [قال] فحسب المأمون ثم كسر الفريضة ثم قال لها : هذا نصيبك ، فقال له العلماء : كيف علمت يا أمير المؤمنين ، فقال : هذا الرجل خلف بنتين ؟ قالت : نعم ، قال : فلهن الثلثان أربعمائة وخلف والدةً فلها السدس مائة ، وخلف زوجة فلها الثمن خمسة وسبعون دينارًا ، وبالله ألك اثنا عشر أخًا؟ قالت : نعم ، قال : أصابهم ديناران كل واحد منهم وأصابك دينار [2].

وقيل أن المأمون أمر بالنداء بإباحة المتعة ـ متعة النساء ـ فدخل عليه يحيى بن أكثم فذكر له حديث علي رضي الله عنه بتحريمها ، فلما علم بصحة الحديث رجع إلى الحق وأمر بالنداء بتحريمها [3].

وحدثنا يحيى بن معين قال : خطبنا المأمون ببغداد ووافق يوم عرفة ، فلما سلك كبر الناس فأنكر التكبير ثم وثب حتى أخذ بخشب المقصورة ، وقال : يا غوغاء ، ما هذا التكبير في غير أيامه ؟ حدثنا فلان عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ ما زال يلبي حتى رمي جمرة العقبة والتكبير في غد ظهرًا عند انقضاء التلبية إن شاء الله تعالى [4].

وعن حامد بن العباس الوزير قال : كنا بين يدي المأمون فعطس فلم نشمِّته فقال : لم لَمْ تشمِّتوني ؟ قلنا : أجللناك يا أمير المؤمنين ، قال : لست من الملوك التي تتجال بالدعاء [5].

---

(١) الذهبي المرجع السابق ج٨ ص٤٣٥.

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص٣١٥.

(٣) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٩ ص٥٠.

(٤) السيوطي : المرجع السابق ص٢٣٠.

(٥) ابن الأثير ج١٠ ص١٥٧.

وقد قال المأمون في خطبته يوم العيد : الله الله عباد الله كونوا قومًا سألوا رجعة فأعطوها أو منعها الذين طلبوها ، فإنه ليس يتمنى المتقدمون قبلكم إلا هذا الأجل المبسوط لكم ، فاحذروا ما حذركم الله منه ، واتقوا اليوم الذي يجمعكم الله فيه لوضع موازينكم ، ونشر صحفكم الحافظة لما عليه ، ولست أنهاكم عن الدنيا وكل ما فيها يدعو إلى غيرها ، فإنه يقول تبارك وتعالى : ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ . فاحذروا مصارعها وجانوا حائنها وآثروا طاعة الله فيها ، وأدركوا الجنة بما يتركون منها [١].

محنة خلق القرآن :

في سنة ٢١٨هـ امتحن المأمون الناس بالقول بخلق القرآن ، وكانت ـ ويا للأسف ـ محنة قاسية شغلت بها الساحات الدينية والعلمية في بغداد والأمصار الإسلامية الأخرى بين مؤيديها ومعارضيها ، وكانت نظرية شائكة مدعمة بمسائل فلسفية مؤداها : أن القرآن مخلوق ؛ لأنه عبارة عن أصوات وحروف ، وهي ليست قائمة بذاته تعالى ، بل يخلقها الله في غيره كاللوح المحفوظ أو جبريل أو النبي ، وقد بُنِيَتْ هذه المسألة على نفي الصفات التي تؤدي إلى تشبيه الله تعالى بمخلوقاته ، والكلام في صفات المخلوقات ، ويلزم من اتصافه تعالى بها أن تكون له آلة الكلام وذلك محال على الله تعالى ، ولما كان القرآن كلامًا ومضافًا إلى الله تعالى فلا تكون تلك الإضافة إلا على معنى أنه مخلوق لله وليس صفة له [٢].

وتزعم هذا القول المعتزلة الذين وصلوا قمة نفوذهم أيام المأمون الذي تبنى فكرة « خلق القرآن » أي أنه مرتبط بالحوادث التي اقتضت نزوله ، وذلك ردًا منهم على المحدثين والفقهاء من أهل السنة الذين قالوا : بأن القرآن كلام الله ، وكلام الله قديم قدمه سبحانه وتعالى ، وبالغ المأمون في الأخذ بنظرية المتكلمين [٣]، وذلك بأدلة

---

(١) الطبري : تاريخ الأمم ج١٠ ص١٢٧.

(٢) الطبري : تاريخ الأمم ج١١ ص١٩.

(٣) المرجع السابق ص٢٢.

عقلية وأخرى نقلية ، ولما وجد معارضة شديدة لتلك الآراء من العلماء والفقهاء السنيين ، أقنعه المعتزلة وجروه إلى استعمال القوة والبطش والجبروت في محاولة خبيثة لإجبار العامة والخاصة لإخضاعهم جميعًا على الموافقة ، فأخرج المأمون من ديوان الرسائل منشورين مدبجين بأسلوب فيه التحدي وشدة المواجهة لكل من تسول له نفسه المعارضة لتلك الأحكام التي صاغتها عناصر المعتزلة ، والمنشور الأول وجهه إلى حاكم بغداد إسحاق ابن إبراهيم الخزاعي بقصد امتحان أهل الدين والتقوى في البلاد ، وفيه :

وقد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حشوة الرعية ممن لا نظر له ولا رؤية ولا استضاءة بنور العلم وبرهانه ، ذلك أنهم ساووا بين الله وبين ما أنزل من القرآن ، فأطبقوا على أنه قديم لم يخلقه الله ويخترعه ، وقد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ . فكل ما جعله الله فقد خلقه كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ . ثم انتسبوا إلى السنة وأظهروا أنهم أهل الحق والجماعة ، وأن من سواهم أهل الباطل والكفر ، فاستطالوا بذلك وغروا به الجهال ، واتخذوا من دون الله وليجة إلى ضلالهم .. إلى أن قال : واجمع من بحضرتك من القضاة فاقرأ عليه كتابنا وامتحنهم بما يقولون واكشفهم عما يعتقدون في خلقه وإحداثه ، وأعلمهم أني غير مستعين في عملي ولا واثق بمن لا يوثق بدينه [1] .

وقد كان هذا المنشور صريحًا في بلاغِهِ لمن يخالف اتجاه المتكلمين فسوف يلقي حرمانًا وإبعادًا بعد إظهار الحجة وبيان الميول ، وكان الأمر المشدد بإحضار كل من امتنع عن الشهادة ليستوثق من آرائهم ، فأحضر جماعة من العلماء والفقهاء في طليعتهم الإمام أحمد بن حنبل ، وبشر بن الوليد الكندي ، وأبي حسان الزيادي ، والقواريري ، وابن أبي مقاتل ، وإسحاق بن أبي إسرائيل ، وذيال بن الهيثم ، وقتيبة بن سعيد ، وعندما سئل الإمام : ما نقول في تلك المسألة ؟ قال : كلام الله ، قيل : أمخلوق هو؟ قال : كلام الله ولا أزيد على هذا ، ثم امتحن

---

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص٣٠٩، الذهبي أعلام النبلاء ج٩ ص٢٨.

غيره وسجلت إجاباتهم ، وكان رد معظمهم بأنه غير مخلوق ، أما ابن حيثمة ، وأبي مسلم ، وابن معين ، وابن داود فامتحنوا وأجابوا خوفًا من السيف ، أما من صمم على رأيه فقد قيد واضطهد وعذب [1].

وممن دخل على المأمون بالرقة أحمد الدورقي ، وقد ضربت رقبة رجل وهو مطروح ، فأوقف هذا الفقيه في الحال فامتحنه فلم يجبه فأمر به فوضع في النطع ليضرب عنقه فأجاب إلى خلق القرآن ، فأخرج من النطع فرجع عن قوله فأعيد إلى النطع ، فأجاب فأمر به أن يوجه إلى أمير بغداد إسحاق بن إبراهيم لعدم ثقتهم بمدلول ما تلفظ به حيث أظهر غير ما بطن خوفًا وهلعًا [2].

وقد توالى تعذيب ومطاردة من لم يقل بخلق القرآن ، وقد عقدت مئات الامتحانات وسط هذا الجو المشحون بالكآبة والهلع ، فمن الشجعان وفرسان الكلمة الصادقة من يصمد ويضحي بحياته بعد أن سلبت إرادته ، وعلى الطرف الآخر من المحاجة وهيلمان السلطة وسيف الجبروت يعلن عن وجوده من ولمن الغلبة؟ وقد أظهرت المعتزلة فيض عداوتها ونجحت في السعاية وتعكير الأجواء العلمية ، وجعلت دولة المأمون ومن تبعه يعيشون في غبش ظلام الخلاف فكالوا لأهل السنة الصاع صاعين كما قال البعض [3].

وليس هذا في شيء من الإسلام ؛ لأنه لا يقر مثل هذا في الخلاف في الدين أو السياسة أو العلم ولا يبيح أن يكون هذا الخلاف سببًا للعداوة بين الناس ؛ لأنه يرى أن المصيب في الخلاف مأجور ، والمخطئ فيه معذور ؛ ليعيش أبناء الدين الواحد أو الوطن الواحد إخوانًا في دنياهم ولا يقوم بينهم عداوة تفسد أحوالهم ؛ لأن السجن والتعذيب ونحوهما من الوسائل يزيد الخلاف حدة ويؤدي إلى

---

(١) ففي السيوطي ، وابن خلكان ، والذهبي ، والطبري ثبت بأسماء أهل المحاجة السنيين الذين صمدوا أمام الظلم الواقع عليهم .

(٢) الذهبي : مرجع سابق ص١٨، والنطع : هو الفرش السميك الذي يوضع فوقه المعاقب .

(٣) عبد المتعال الصعيدي : المجددون في الإسلام ص٦٧.

عكس المقصود منه ، ولم تهدأ هذه المحنة التي ما كان أغنى المسلمين من أن يزجوا بأنفسهم في الكلام عنها ، وقد تركت آثار الفرقة بين أفراد الأمة الواحدة .

المواجهة مع الخارجين على حكمه :

كانت الدولة العباسية أثناء تصاعد الفتنة الناشئة بين الأخوين ـ الأمين والمأمون ـ في استرخاء أمني واضح ، جعل بعض العناصر الخارجة أو الموتورة من السياسة العباسية تنتهز تلك الأوضاع في بث الفتن والاضطرابات الغوغائية في الأطراف والنواحي المتباعدة ، مستخدمة سلاحها ومؤكدة في ذات نفسها سلامة موقفها في مواجهة الخلافة ، إلا أن المأمون بعد أن انتصف لنفسه في إعادة حقه المضيع ، وسكنت الفتنة لصالحه ، بدأ في التصدي بغاية القوة لتلك الثورات والفتوقات مستعينًا بذكائه السياسي ومعتمدًا على قواده وعسكره المخلصين ، الذين جيش بهم جميعًا المجموعات التي خرجت كالسيل يتبعه السيل ، وفي موجات متتابعة فضرب بهم جموع الشر التي حاقت بملكه المتسع الأرجاء .

وقد سار هو في بعض الأحيان بنفسه في هذه المواجهات الصارمة التي سجلتها كتب التراث في قائمة الصفحات المجيدة ، وإن تتبعنا تلك الثورات إبان حدوثها فلا أقل أن نوردها من تلقاء دوران زمانها الناشب ، منها : تلك الثورة المندلعة بمدينة الكوفة سنة ١٩٩هـ والتي حركها المدعو أبا السرايا منصور الشيباني ، وكان هذا الثائر الخارج يدعو لأحد العلويين في البلاد اسمه محمد بن إبراهيم الشهير بابن طباطبا ، وقاد مؤيديه ضد والي العراق – أنذاك – الحسن بن سهل ، وأوقع به هزيمة ، وقيل في سبب هذه الثورة أن أبا السرايا هذا كان من رجالات هرثمة ابن أعين القائد العباسي الشهير ، وخرج عليه وتبعه عدد من الأعوان ممن تأثروا بمطلبه الداعي إلى استرداد حقوق الجند المتأخرة لهم ، الأمر الذي صعد الثورة في نفوس تلك العناصر المشاغبة ، وامتد سلطان أبي السرايا إلى البصرة والمدائن ، ولم يجد الحسن بن سهل بعد أن لقي الهزيمة بدًا من الاستعانة بهرثمة ذلك القائد المجرب وجيشه الكثيف ، فواجه القائد العباسي جند الثوار ، وأوقع بهم الهزائم المتلاحقة

فاضطربت صفوف تشكيلاتهم داخل مدينة الكوفة ، الأمر الذي جعل ذلك الثائر أبا السرايا يفر تاركًا جنده طعمة لجيش هرثمة الذي تلقفته السيوف في الساحات والطرقات وفني معظمهم ، ومن بقي منهم أسيرًا سيق إلى الوالي الحسن بن سهل ، ثم نجح القائد الكفء هرثمة في القبض على أبي السرايا حيث وجده يعاني من جراحات عدة في جسده ، وجيء به وهو على هذا الحال إلى الوالي الحسن ، وبعد عشرة أشهر من المطاردة المتواصلة في الدروب والكهوف وأعالي الجبال ، فتشفى منه الوالي المذكور بالقتل والصلب وتم ذلك في سنة ٢٠٠هـ [١].

وقد كان وزير الدولة الفضل بن سهل يكن الحقد على صاحب الانتصارات المتابعة هرثمة بن أعين ، وخاصة بعدما علم أن الخليفة قد كافأه بتعيينه واليًا على بلاد الشام والحجاز ، صحيح أن هرثمة اعتذر للخليفة عن منصبه وشكره ، وقد أشيع وقتها أن الفضل قد استبد بالحكم دون الخليفة ، وأن هذا يجعل الرعية وسائر الجند في أشد حالات الضيق والغضب ، وبما أن هرثمة فارس مخلص فأراد أن يذهب إلى الخليفة ليسر إليه بعض النصائح ويُمِدَّهُ ببعض الأسرار الدقيقة التي يحملها بين جنبيه ، وسوف يقولها للمأمون حين ينفرد به ، إلا أن الفضل - الخراساني العتيد - أحكم دسائسه وحال دون وصول ذلك القائد ، بل استخرج من المأمون أمرًا بالقبض عليه وإيداعه السجن بحجة واهنة ، بأنه كان السبب في خروج أبي السرايا وثورته مع جماعاته ، ولم يزل هرثمة المظلوم في سجنه حتى قتل في ظروف غامضة [٢]، وقد أثار هذا الحادث الجند الخراسانية في معسكراتهم خارج بغداد وازداد التصادم وروعت المناطق بأعمال الشغب والغوغائية الرعناء ، ولم ينقذ البلد من خراب محقق جديد سوى تدبير محكم من الخليفة المأمون حيث أضحى برجله المشاكس الفضل حيث تخلص من ذلك الوزير الذي كان سببًا في تلك الأحداث في حمام بناحية سرخس

(١) الطبري : تاريخ الأمم ج٧ ص١٦٩.

(٢) المرجع السابق ج٧ ص١٧٠.

سنة ٢٠٢هـ ، وهدد أعوان الفضل فتفرقوا ، وقيل أسكنهم بجزيل مكافآته [1].

كما ثارت بعض العناصر التي اختلف هواها السياسي في مصر ، حيث كانت مجموعة منهم من بين القيسية المناصرة للخليفة السابق الأمين الذي عدته تلك الفئة شهيدًا مات غدرًا بيد القوات الخراسانية ، أما المجموعة الأخرى المواجهة لها وهم من بني كلاب فهم يتعصبون للمأمون ، فاشتعلت نيران تلك الفتنة المستعرة بين الطرفين داخل مصر سنة ٢١٠هـ فبعثت الخلافة العباسية لإيقاف تلك الحروب الداخلية الطاحنة حملة مجهزة قوية على رأسها القائد الكفء عبد الله بن طاهر لإخمادها ، فدخل بقواته التي استولت على عاصمة البلاد الفسطاط التي كانت مسرحًا رهيبًا للعمليات العسكرية فاستطاع هذا القائد العباسي أن يعيد إلى المدينة الأمان المفتقد ، بل شرع بعد أن هدأت أتون المعارك يعيد كل البنايات التي طالتها يد الفتنة إلى حالتها مع الترميم والإصلاحات ، كما زاد في أروقة الجامع العتيق [2]، وعندما عاد ابن طاهر إلى العراق بعد انتهاء مهمته باستقرار الأوضاع التنظيمية والأمنية ، وما كاد ينصرف من البلاد حتى عادت الثورة مرة أخرى بضراوة وأشد تنكيلاً ، فانتفضت الخلافة في بغداد خاصة عندما ترامت الأنباء بتدخل عناصر غير المسلمين في تحريك المشاعر ضد الحكم العباسي وأظهروا التبرم من الولاة المسلمين ، فجهزت الإدارة العسكرية قوات كبيرة مستعدة بقيادة الأفشين [3] لقمع تلك الثورات ، ولم تهدأ الأحوال كلها إلا بمجيئ الخليفة المأمون نفسه على رأس جيش فأعاد الاستقرار إلى ربوع الوادي ، وعندما أتى إلى مصر ورأى عجائب مبانيها وآثارها أظهر إعجابه بما شاهد وأمر بفتح الثغرة التي بهرم الجيزة الأكبر ـ هرم خوفو ـ ولم يرجع المأمون إلى

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٣ ص٢١٠.

(٢) أبو حنيفة الدينوري : الأخبار الطوال ص٣٣٤.

(٣) هو القائد التركي الأصل من منطقة أشرونه الذي طمع فيما بعد في أن يستقل ببلاده فواجهه الخليفة المعتصم .

قصبة حكمه (بغداد) إلا بعد أن أعاد إلى مصر السكينة والاستقرار [١].

وقد قامت ثورة في بلاد الشام منددة بحكمه قادها عربي متعصب للخليفة الأمين اسمه (نصر بن شبث) وذلك بحجة استئثار العنصر الفارسي بالعديد من المناصب الرفيعة في أمور القيادة والزعامة دون العرب ، الأمر الذي أحفظ الناس هناك ، وتحولت همساتهم إلى إرادة واستحالت تلك الإرادة إلى قوة دافعة للتغيير ، وأسلموا قيادهم إلى نصر بن شبث الذي اتخذ من يكسوم [٢] مركزًا له بعد أن شق عصا الطاعة فزادت قوته واتسع نفوذه بعد أن أفهم الأهالي هناك أنه كان يدافع عن حقوق العنصر العربي ، وقد عبر عن تلك العصبية بقوله نقلاً عن ابن الأثير وذلك حينما شجعه بعض الطالبين ليختار من بينهم رجلاً ليكون في ذلك أسلم لثورته وأقوى حيث قالوا له : قد وترت بني العباس ، وقتلت رجالهم فلو بايعت لخليفة لكان ذلك أقوى لأمرك ، فقال : من أي الناس ؟ فقالوا : تبايع لبعض آل علي بن أبي طالب ، فقال : أبايع بعض أولاد السوداوات ، فيقول : إنه خلقني ورزقني ، قالوا : فتبايع لبعض بني أمية ، قال : أولئك قوم قد أدبر أمرهم ، والمدبر لا يقبل أبدًا ولو سلم على رجل مدبر لأعداني إدباره ، وإنما هو أي في بني العباس ، وإنما حاربتهم محاباة عن العرب لأنهم يقدمون عليهم العجم [٣].

ومما شجع على استمرار قوة هذا الثائر ذلك النصر الذي حققه على القائد المجرب طاهر بن الحسين بعد أن اقتتلا قتالاً عنيفًا ، إلا أن ابن شبث ألحق الهزيمة بالقوات التي أرسلها إليه المأمون وأرغم ذلك الجيش إلى التراجع إلى منطقة الرقة شمال الجزيرة مع أن الدولة التي كانت وراءه تمده بكل ما يحتاج إليه من جند وسلاح ومال غير أن طاهر يبدو أنه كان محبطًا فآثر السلامة [٤]، فشق الأمر على

---

(١) السيوطي : حسن المحاضرة ص١٥٥.

(٢) منطقة يكسوم : تقع في الشمال من حلب على طريق دمشق من أعمال الشام .

(٣) الكامل في التاريخ ج٥ ص١٧٦.

(٤) المرجع السابق ص٧٢، وفيها أن القائد العباسي دعا نصرًا للعود الأحمد إلى السلام ويدعوه إلى الطاعة ونبذ الخلاف ، إلا أنه ركب الصعب وآثر القتال .

الخليفة فدبر الخطة الكفيلة بتأديب ذلك الثائر المأفوف ، وإخماد تلك الفتنة المتأججة التي أحدثها ، وجعل مدينة الرقة معسكرًا ثابتًا لقواته التي أسرع في تحشيدها وأسند القيادة لعبد الله بن طاهر ، وهو أحد قواد العباسيين القلائل [1]، فمضى نحو الرقة لمحاربة ابن شبث الذي استمرت مناوشته قرابة خمس سنوات ، وكان المأمون قد اشتد قلقه من هذه الثورة العربية ؛ لأن نصرًا كان يريد أن يدعم موقفه بإسناد الأمر لأحد العلويين بتأثير من العامة ـ كما بينا ذلك ـ فطلب المأمون من قائده الجديد مضاعفة جهوده لضرب تلك الثورة في الصميم ، وتشتيت شمل التجمعات الملتفة حولها ، وهو يعلم أنه يحارب قائدًا على بصيرة بمكائد الحرب وخدعها ، غير أن التعاون المكثف بين بغداد وجيش ابن طاهر سهل كثيرًا من المصاعب التي يمكن أن تواجه جيش الخلافة بالرقة ، وأدت سرعة الإمدادات المتتالية إلى ابن طاهر إلى إضعاف قوة نصر بن شبث ، وعندما تلاحقت الضربات وأصبحت الهزيمة قاب قوسين في صفوف رجالاته أذعن هذا الثائر العنيد لطلب الصلح وشيكًا [2]، وكان المأمون قد ندب إليه من يؤمنه بعد أن ضيق عليه كل السبل في الفرار ، فأجاب ابن شبث الذي أقسم ألا يطأ بساط المأمون ، فوافق الخليفة على أن يكتب عبد الله بن طاهر قائده هذا الأمان نيابة عنه[3] وفيه : إن كنت للدين تسعى بما تصنع فأوضح ذلك لأمير المؤمنين يغتنم قبوله إن كان حقًا ، وإن كنت للدنيا تقصد فأعلِم أمير المؤمنين بغايتك فيها والأمر الذي يستحقها به [4]. غير أن نصرًا لم يف بما وعد من إسكات روح التمرد بل ظهرت عليه علامات النكوص الأمر الذي كلف الدولة أن ترسل بمن يعاقبه ويلقي القبض عليه ، فسيق في الأصفاد ذليلاً في شهر صفر سنة ٢٠٩هـ بعد حروب طويلة شرسة ونتائج مادية وبشرية مدمرة .

---

(١) قد ظهرت مواهبه القتالية في مواجهة جيش أبي السرايا في مصر ، وذلك القائد هو ابن طاهر بن الحسين .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ج١ ص٢٦٠.

(٣) *المرجع السابق* ص٢٦١.

(٤) تاريخ الأمم والملوك ج٧ ص١٧٢.

ومما يذكر أن قومًا من أخلاط البشر يسمون « عناصر الزط »[1]. قد انتهزوا فرصة في زحام الأحداث المدلهمة وعاثوا فسادًا في الطرق الموصلة إلى البصرة بعد أن غلبوا على هذه المدنية ، ولما عرف المأمون بأخبارهم المؤسفة وما أشاعوه من جو الرهبة والسلب والنهب وأعمال التخريب ، أسرع بتوجيه القوات المستعدة على رأسها قائده المدرب عيسى بن يزيد الجلودي لضرب تجمعاتهم الخارجة على الأمن والنظام في البلاد لمحاربتهم سنة ٢٠٥هـ ، وبعد أشهر من إرسال تلك القوات عين الخليفة واليه الجديد داود بن ماسجور أوائل سنة ٢٠٦هـ لمناطق وكور البصرة ودجلة واليمامة والبحرين ، مع إظهار النصح له بضرب تلك العناصر الغوغائية ، فإنهم إذا توقعوا الهزيمة تلحق بهم انسحبوا إلى الوراء ، تلك كانت طريقتهم عند إشاعة الفتنة تؤكدها تصرفاتهم في الهجوم والانسحاب ، كما عرف عنهم عند قرب الهزيمة أنهم يتحصنون بالجبال ويتفرقون في الصحراوات ، وعندما يخف عنهم الطلب والمطاردة يعودون إلى تجمعهم ، وقطعوا الطرق وشغبوا وعاثوا فسادًا لا يملك الناس في زمامهم دفعًا لأنفسهم[2].

ولا عجب أن تستمر مدة هجماتهم الشرسة ، ولم يكتب لهذا العهد النصر النهائي على تلك الفئة الضالة ، وإنما تم ذلك في عهد المعتصم بالله سنة ٢١٩هـ حيث قضى عليهم القضاء المبرم ، ولم تقم لفلولهم بعدها في البلاد قائمة .

أما أهل بغداد فقد ثاروا وولوا عليهم أميرًا هو إبراهيم بن المهدي - عم الخليفة - وطلبوا منه أن ينادي بنفسه خليفة في الوقت الذي كان فيه المأمون في بلاد مرو ، فلما أحس الناس بقدوم المأمون خلعوا إبراهيم الذي فر سريعًا ، وتمكن الخليفة بمساعدة جنده الأشداء من القبض عليه وأراد العفو عنه عسى أن يرجع إلى الطاعة

---

(١) ابن الأثير الكامل ج٥ ص١٧٥ ، الزط : يرجع أصلهم إلى المناذكة ويعرفون في الروايات العربية بالتور ، وكان همهم الشغب والخطف وكانت إقامتهم الدائمة على ساحل الخليج العربي .

(٢) الطبري : تاريخ الأمم ج١٠ ص٢٥٨.

والدخول مع المبايعين ، فرفض وفر من وجهه مرة أخرى [1]، ولما لم يقلع عن عصيانه ذهب إليه بجيش كبير خاصة عندما علم المأمون بانضمامه إلى فتنة موسعة كانت تقصد الانقضاض على الخلافة بقيادة متآمر عنيد اسمه إبراهيم بن محمد ابن عبد الوهاب الشهير بابن عائشة ، وقد حيكت أطراف تلك المؤامرة سنة ٢١٠هـ ، وعندما اكتشف المأمون أمر تلك الخيوط المتداخلة والموصلة بين ابن عائشة وعمه إبراهيم بن المهدي ؛ نجح في قطع كل الخيوط بحنكته وسياسته الحربية المتقدمة بدأها بمطاردة فلول الثوار حتى تمكن من القبض على الرؤوس المحركة ، وقد أمر المأمون بأن يعاقب ابن عائشة بأن وضعه في الشمس المحرقة ثلاثة أيام كوامل ثم ضرب بالسياط ثم حبس وبعدها أخرج وقتل وصلب على أعواد منصوبة وسط عاصمة الخلافة بغداد ليكون عبرة لجميع الخارجين [2].

أما إبراهيم المنيُّ بالخلافة والملقب بالمبارك فعندما تسلل الناس من حوله وبقي هو وحيدًا ، حيث اختفى في ذي الحجة وظل اختفائه مدة ثماني سنوات حتى تمكنت قوات المأمون من القبض عليه حيث كان يلبس ملابس النساء ، وقد شك فيه حراس القصر الذين ارتابوا في شخصه ، فأمروه أن يكشف عن نقابه فبدت لحيته فسيق إلى داخل القصر في حضرة المأمون الذي أمر بالاحتفاظ به داخل القصر ، وحاكمه بعد أيام من القبض عليه وسط جمع حاشد ضم أبناء العمومة وسائر بني هاشم والقواد وأرباب المناصب الذين حكموا عليه بأن ينفي إلى واسط ليكون بعيدًا عن مركز الخلافة في بغداد ، وهو عباسي المنشأوالمنزع ومع ذلك وضع تحت المراقبة الصارمة التي فرضها عليه واليها الحسن بن سهل [3]، وفي نهاية عام ٢٠١هـ كتب إبراهيم بن المهديّ من منفاه رسالة اعتذار ضمنها اعترافه بما اقترف من ذنب وطلب

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج٥ ص١٧٨ .

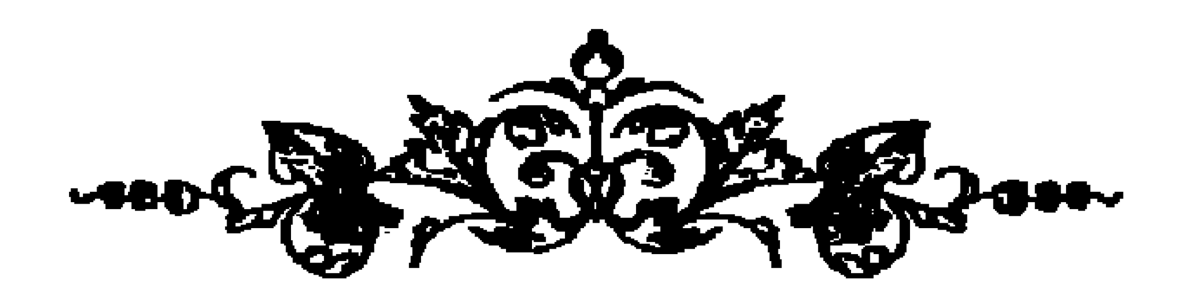
(٢) ابن كثير : البداية ج١٠ ص٢٦٢.

(٣) الطبري : مرجع سابق ج١٠ ص٢٥٩.

فيها الصفح ، قال : مهلاً أمير المؤمنين إن ولـي الثـأر يحكـم في القصـاص ، ولكـن العفو أقرب للتقوى ، وقد جعلك الله فوق كل ذنب كما جعل كل ذي ذنب دونـك ، فإن أخذت فبحقك ، وإن عفوت فبفضلك قال :

ذَنْبِـــــي إِلَيْـــــكَ عَظِـــــيمٌ   وَأَنْـــــتَ أَعْظَـــــمُ مِنْـــــهُ
فَخُـــــذْ بِحَقِـــــكَ أَوْ لَا   فَاصْـــــفَحْ بِفَضْـــــلِكَ عَنْـــــهُ

وأجيب إلى طلبه فعفا عنه المأمون بعد أن تبين له صدق توبته وإخلاصه وفك إساره ،وعمل على تقريبـه وإظهـاره في المحافـل والمجـالس العلميـة والفقهيـة إلى جواره ، وأشركه في بعـض المنـاظرات الـتي أظهـرت مجمـل ثقافـة هـذا العاهـل العباسي التائب ، فما كان من المأمون إلا أن رد إليـه كـل أموالـه وضـياعه الـتي صودرت أيام خروجه [1].



(١) ينظر الجاحظ : التاج في أخلاق الملوك ص١٢٠.

لكل أجل كتاب

يبدو أن علاقة المأمون مع الدولة البيزنطية قد توترت وشابها التصادم وتبادل الاتهامات ، وذلك في عهد الإمبراطور ثيوفيل ، وتأرجحت المواقف بين الحرب وضرب المواقع الأمامية لثغور المسلمين من قبل هذا الحاكم ، وعندما يبرز في الميدان قوة المسلمين للرد الفوري على تلك الهجمات التي استهدفت مناطق طرسوس والمصيصة ، وإعلان المأمون الحرب وتحركه بجيش كثيف كان هو على رأسه ، وتوغّله في آسيا الصغرى من بلاد الروم دون مقاومة تواجهه ، هنا عرض الإمبراطور على المأمون وشيجة الصلح على أن يدفع حاكم الروم مائة ألف دينار ، وأن يطلق سراح كل من وقع في يده من المسلمين ، غير أن المأمون في نهاية هذه المفاوضات طلب من ثوفيل أن يدخل في الإسلام أو يدفع فدية توجب ذمة ، وثبت نظره وإلا فالحرب حتى يحكم الله بيننا وبينك وشيكا [1]. غير أن ثيوفيل ماطل وحاول بجملة من الألطاف والهدايا لكسب الوقت وأن يطلق سراح الأسرى وأن يعمر كل الأبنية التي خربتها في الثغور جنوده ففهمها المأمون ، وأنه كان يعد العدة لهجوم جديد عند منطقة طرسوس ، وعندما وصله مندوب الإمبراطور بهذا العرض التفاوضي رفض المأمون تلك المساومات ، وأيقن أن ليس بينه وبين هذا العاهل سوى الحرب فقال : يا غلام اضرب الطبل واجمع الحشد [2]، فواصل المأمون مسيره أمام طلائع جيشه وعند منطقة بشمال طوس نزل بالقرب من عين البدندون حيث فاجأته المنية بالقرب منها ، والسبب كما يقول المؤرخون : أنه نزل عند عين البدندون [3]، فأعجبه برد مائها وصفاؤه

(١) الطبري ج٨ ص٦٢٩.

(٢) المسعودي : مروج الذهب ج٧ ص٩٥. بتصرف .

(٣) بشمال طوس بين منطقتي لؤلؤة وطرسوس بينها وبين طرسوس مسيرة يوم .

وطيب الموضع وحسنه ، فرأى فيها سمكة كأنها سبيكة فضة فأعجبته ، ولم يقبل أحد من أعوانه النزول إلى البحيرة لشدة البرد فجعل لمن يخرجها له سيفًا مطعمًا (كمكافأة) فنزل رجل فاصطادها ، فقال المأمون : تقلى الساعة ، فقيل أنه أصيب بالحمى حيث أخذته رعدة شديدة فدَثّروه بالغطاء وهو ينتفض ويصيح أوقدوا النيران ، فأوقدوها وزادوا في النيران وما هي إلا سويعات حتى لفظ أنفاسه في يوم الخميس لثلاث عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ثمان عشرة ومائتين ، وسِنُّه ثمان وأربعين سنة وأربعة أشهر [1].

وكان المأمون قبيل موته قد أوصى بالخلافة من بعده لأخيه أبي إسحاق المعتصم فأحسن بذلك إلى نفسه وإلى أسرته حيث جنبها الخلاف من بعد وفاته ، وكنا نتمنى في تلك الظروف أن المأمون قد تراجع وتاب وأناب إلى الله سبحانه في موضوع خلق القرآن ، ولكنه لم يفعل ، وهاكم وصيته بالبيعة التي أتى بها الذهبي : أشهد على نفسه عند الموت أن عبد الله بن هارون أشهد عليه أن الله وحده لا شريك له وأنه خالق وما سواه مخلوق ، ولا يخلو القرآن من أن يكون شيئًا له مثل والله لا مثل له ، والبعث حق وأني مذنب أرجو وأخاف وليصلِّ عليَّ أقربكم وليكبر خمسًا ، فرحم الله عبدًا اتعظ وفكر فيما ختم الله على جميع خلقه من الفناء ، فالحمد لله الذي توحَّد بالبقاء ، ثم لينظر امرؤ ما كنت فيه من عز الخلافة هل أغنى عني شيئًا إذا نزل أمر الله بي؟ لا والله لكن أضعف به على الحساب فيا ليتني لم أكُ شيئًا ، يا أخي ادن مني واتعظ بما ترى وخذ بسيرة أخيك في القرآن واعمل في الخلافة إذ طوقها الله عمل المريد لله الخائف من عقابه ، ولا تغتر فكأن قد نزل بك الموت ، ولا تغفل أمر الرعية .. الرعية .. الرعية .. فإن الملك يهم .. الله الله فيهم وفي غيرهم ، يا أبا إسحاق : عليك عهد الله لتقومن بحقه في عباده ولتؤثرن طاعته على معصيته ، فقال : اللهم نعم ، هؤلاء بنو عمك

---

(١) المسعودي : مروج الذهب ج٤ ص٤٤.

ذرية عليٍّ رضي الله عنه أحسن صحبتهم وتجاوز عن مسيئهم [1].

وقيل عندما مرض بعث في طلب ماسويه الطبيب وابنه العباس فلحقاه قبل قبضه، فتكلم مع الطبيب فلم يطمئن إلى مقولاته وأن منيته قد قاربت، أما العباس فقد أوصاه خيرًا بعمه أبي إسحاق على الرغم من أنه أتاه وهو مجهود، وعندما أفاق من الإغماءة التي أصابته سمعه يقول: يا من لا يموت ارحم من يموت، ثم توفي لساعته، وقد أمر العباس أن ينقل أباه من البندندون إلى طرسوس ليدفن في دار خاقان خادم أبيه هناك، وكان نقش خاتمه عبد الله بن عبيد الله، وله من الأولاد محمد الكبير والعباس وعلي ومحمد وعبيد الله والحسن وأحمد وعيسى وإسماعيل والفضل وموسى وإبراهيم ويعقوب وحسن وسليمان وهارون وجعفر وإسحاق، وتسع بنات أشهرهن أم الفضل التي زوَّجها أبوها من ابن أخيه الأمين، وخديجة التي كانت شاعرة أديبة ظريفة تنحو نحو عمه أبيها عليه [2].

وقد حمل المأمون إلى طرسوس على المحفات فوق الإبل ومعه على الخيول العباس ابنه والمعتصم ولي العهد وجملة من القواد المحاربين إبان غزوته لبلاد الروم، فوكلا من يحمله ويحرسه مبلغًا كبيرًا إلى أن وصل الجثمان ودفن بأرض طرسوس، فكلف العباس ناسًا من أهل طرسوس ليحرسوا المقبرة فأجرى عليهم مبلغًا قدره تسعون درهمًا شهريًا لكل واحد منهم، وقيل أن عددهم كان سبعة أفراد ولا يزيدون [3].

ولما وردت أنباء وفاة درة البيت العباسي عاصمة ملكه البديع ؛ حزن الناس

---

(١) سير أعلام النبلاء ج٩ ص٥٤.

(٢) المسعودي : مروج الذهب ج٤ ص٤٦، والسيوطي : نزهة الجلساء في أشعار النساء ص٤٨، وفيه ترجمة وافية عن خديجة أدبها وشعرها وجانب من فضلها .

(٣) ابن الأثير الكامل ج٥ ص١٨٧.

وحبست الأنفاس مع تواتر الأخبار بمرضه وإصابته بالحمى التي لم تمهله حتى توفي أثناء كفاحه وغزوه لبلاد الروم ، وتمثلوا في سلواهم بقول المعصوم ﷺ : « من اغبرّت قدماه في سبيل الله حرمت على جسده النار » ، وكان أكثر الناس حزنًا أسرته وأولاده وإخوته ممن أصابهم فقده بلواعج الأسى والأسف ، في مقدمتهم زوجته الوقور المخلصة بوران بنت الحسن بن سهل التي أنشدت ترثي المأمون بعد أن تجملت بالصبر قالت :

أَسْعِدَانِي [1] عَلَى البُكَا مُقْلِتَيْنَا ... صِرْتُ بَعْدَ الإِمَامِ لِلْهَمِّ فَيْنَا

كُنْتُ أَسْطُو عَلَى الزَّمَانِ فَلَمَّا ... مَاتَ صَارَ الزَّمَانُ يَسْطُو عَلَيْنَا

وعندما كانت تخلو إلى نفسها كانت تردد أرجوزته التي كان يطالعها بها فكان فإن تذكرتها كان ذلك أشد إيلامًا على نفسها فكان المأمون يقول لها :

لِسَانِي كَتُومٌ لأَسْرَارِكُمْ ... وَدَمْعِي نَمُومٌ لِسِرٍّ مُذِيعُ

فَلَوْلاَ دُمُوعِي كَتَمْتُ الهَوَى ... وَلَوْلاَ الهَوَى لَمْ يَكُنْ لِي دُمُوعُ [2]

ومن المراثي الشهيرة التي جأر بها شاعره المقرب أبو سعد المخزومي قال :

هَلْ رَأَيْتَ النُّجُومَ أَغْنَتْ فِي ... المَأْمُونُ أَوْ عَنْ مُلْكِهِ المَأْسُوسِ؟

خَلَّفُوهُ بِعَرْصَتَيْ طَرْسُوسِ ... مِثْلَمَا خَلَّفُوا أَبَاهُ بِطُوسِ

قال الثعالبي : لا يعرف أب وابن من الخلفاء تباعدت قبورهم أشد تباعدًا من الرشيد والمأمون [3].

رحم الله درة البيت العباسي المأمون الذي نشر العلم بما أوتيه من قوة

---

(١) أسعداني : ساعداني ، والعربي كان يتخيل من يوجه إليه الحديث ، وهي هنا تطلب إلى عينيها اللتين جمدتا من شدة الحزن أن تسعفاها بالبكاء .

(٢) السيوطي : نزهة الجلساء في أشعار النساء ص٣٢.

(٣) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص٣١٤.

وسلطان ، فدانت لسطوته البلدان وخضعت لعزتـه الأمـم ، وصـار ملـوك غـير المسلمين يخطبون وده ، ويمدون له يد التحالف والصداقة ، ويرسلون إليه الهـدايا والألطاف ؛ توطئه لعقد المزيد مـن المعاهـدات السياسـية والتجاريـة . فعظمـت دولته وجعلها درة يتيمة في جبين الدنيا الواسعة .



المصادر

- ابن الأثير : علي بن أحمد بن أبي الكرم (ت: ٦٣٠هـ - ١٢٣٨م) : الكامل في التاريخ - (ط) بولاق .

- الإبشيهي : محمد بن أحمد (ت:٨٥٠هـ- ١٤٤٦م) : المستطرف في كل فن مستظروف – ط بولاق.

- الأصبهاني : أبو الفرج بن الحسين (ت:٣٥٦هـ-٩٦٩م) : كتاب الأغاني - ط بولاق - دار الكتب المصرية ١٩٧٠م .

- ابن أبي أصيبعه : أبو العباس بن القاسم بن خليفة (ت:٦٦٨هـ-١٢٦٠م) : عيون النباء في طبقات الأطباء - دار مكتبة الحياة - بيروت .

- البغدادي : أبو بكر بن أحمد على الخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ) : تاريخ بغداد - ط دار الكتب العلمية - بيروت .

- البيهقي : إبراهيم بن محمد البيهقي (ت:٣٢٠هـ) : المحاسن والمساوئ - ط دار صادر - بيروت .

- الجهشياري : أبو عبد الله محمد بن موسى (ت:٣٣١هـ-٩٤٢م): الوزراء والكتاب - حققه مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري - مكتبة الحلبي ١٩٨٠م .

- الجاحظ : أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب (ت:٢٥٥هـ- ٧٦٨م) : التاج في أخلاق الملوك - تحقيق أحمد زكي باشا - ط الأميرية - القاهرة ١٩٤٢م .

- ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد (ت:٨٠٨هـ-١٤٠٥م): المقدمة - ط بولاق - القاهرة ١٢٨٤م .

- ابن خلكان : شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم الشافعي (ت:٦٨١هـ- ١٢٨٢م) : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان - تحقيق محمد محيي

الدين عبد الحميد ـ ط السعادة ـ مصر ١٣٦٧هـ .

- الخزرجي : أحمد عبد الله الخزرجي ـ خلاصة تهذيب الكمال في أسماء الرجال ـ ط الخيرية ـ مصر ١٣٢٢هـ .

- الدينوري : أبو حنيفة أحمد بن داود (ت:٢٨٢هـ -٨٩٥م) : الأخبار الطوال ـ تحقيق عبد المنعم عامر ـ وزارة الثقافة والإرشاد ـ القاهرة ١٩٦٠م .

- الذهبي : محمد بن أحمد شمس الدين (ت:٧٤٨هـ-١٢٤٨م) : سير أعلام النبلاء ـ ط دار الفكر ـ بيروت ١٩٩٧م ، العبر في أخبار من عبر ـ ط حكومة الكويت .

- السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت:٩١١هـ - ١٥٥٥م) : تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين ـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ـ ط القاهرة ١٣٨٣هـ - نزهة الجلساء في أشعار النساء ـ تحقيق عبد اللطيف عاشور ـ ط دار القرآن ١٩٩٥م ـ حس المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ـ المطبعة الشرقية ـ القاهرة ١٣٦٣هـ .

- الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير (ت: ٣١٠هـ -٩٢٢م) : تاريخ الأمم والملوك ـ ط الاستقامة ـ مصر ١٩٤٧م .

- ابن طباطبا : أبو بكر أحمد بن محمد (ت:٧٠٩هـ-١٣٠٩م) : الفخري في الآداب السلطانية ـ دار صادر ـ بيروت لبنان .

- ابن طيفور : أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر (ت٢٨٠هـ -٨٩٣م) : بلاغات النساء ـ ط العلم للملايين ١٩٥٦م .

- ابن عبد ربه : شهاب الدين أحمد (ت:٣٢٨هـ-٩٤٠م) : العقد الفريد — ط دار الكتب السلطانية ـ دار صادر بيروت ـ لبنان .

- ابن قتيبة : أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت: ٢٧٦هـ - ٨٨٩م) : المعارف ـ ط دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٩٦٠م .

- ابن القفطي : على بن يوسف ـ تاريخ الحكماء ـ مكتبة المثنى بغداد ١٩٠٣م .

- ابن كثير : عماد الدين إسماعيل بن كثير الدمشقي (ت:٧٧٤هـ - ١٣٩٢م) : البداية والنهاية ـ ط دار السعادة ـ القاهرة ١٣٥١هـ .

- المسعودي : أبو الحسن على بن الحسين (ت:٣٥٤هـ - ٩٥٦م) : مروج الذهب ومعادن الجوهر تحقيق محمد محيي الدين ـ ط دار الفكر ـ بيروت ١٩٣٨، التنبيه والإشراف راجعه عبد الله إسماعيل الصاوي ـ ط المثنى ـ بغداد ١٩٣٨م .

- المبرد : أبو العباس محمد بن يزيد (ت:٢٨٥هـ) : الكامل في الأدب واللغة - ط المنيرية بمصر ١٩١٨م .

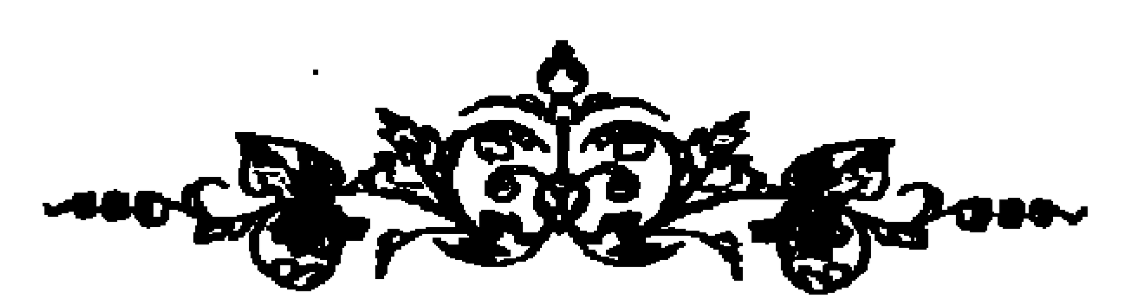
- أبو المحاسن : جمال الدين يوسف بن تغري بردي (ت: ٨٧٤هـ - ١٤٦٩م) : النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة ـ ط دار الكتب المصرية ١٩٣٠م .

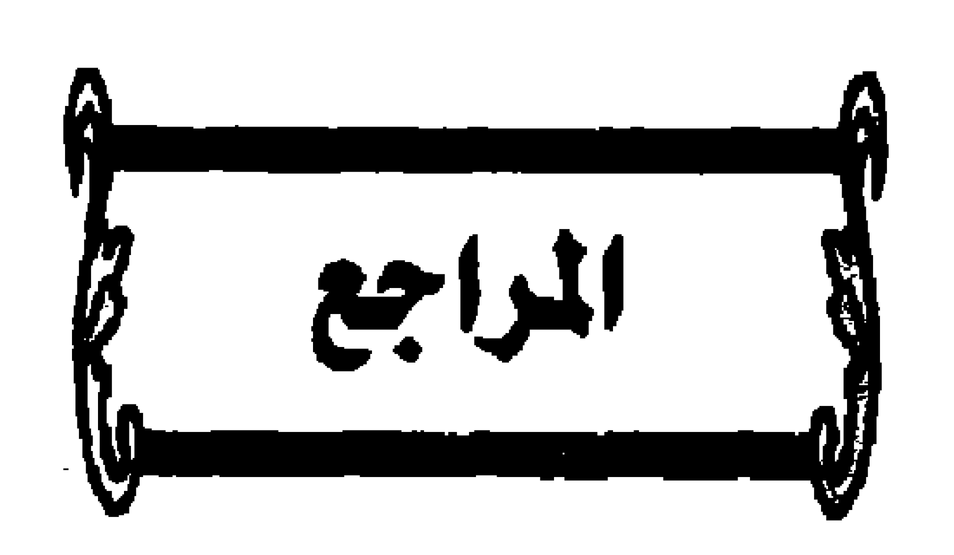
- المقاتي : عيسى بن على المقاتي ـ تنقيح المقال ـ ط دار المعارف النظامية ١٣٢٩هـ .

- ابن النديم : أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب (ت:٣٨٠هـ) : الفهرست ـ ط دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٩٩٦م .

- ياقوت : أبو عبد الله الحموي (ت:٦٣٦هـ) : معجم البلدان ـ ط بيروت ١٩٦٠م ـ معجم الأدباء ـ ط المنيرية ـ القاهرة ١٩١٩م .

- اليعقوبي : أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب (ت: ٢٨٤هـ - ٨٩٧م) : تاريخ اليعقوبي ط الغي النجف ١٣٥٨هـ .





المراجع

- أحمد أمين (مشترك) تاريخ الأدب العربي ـ ط دار الكتاب العربي بمصر ١٩٣٨م .

- أحمد الإسكندراني (مشترك) الوسيط في الأدب والتاريخ ـ ط بولاق ١٩٣٤م .

- أحمد شلبي : تاريخ التربية الإسلامية ـ مكتبة النهضة المصرية ط ١٩٦٦م .

- إبراهيم نمير سيف الدين : صورة من التاريخ ـ ط دار المعارف بمصر ١٩٥٨م .

- جميل نخلة المدور : حضارة الإسلام في دار السلام ـ المطبعة الأميرية ١٩٣٤م .

- أحمد فؤاد الأهواني : الكندي فيلسوف العرب ـ المؤسسة المصرية العامة ١٩٦٤م .

- أحمد فريد الرفاعي : عصر المأمون ـ مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٨م .

- حسن أحمد محمود وآخرين : العالم الإسلامي في العصر العباسي ـ ط الرسالة القاهرة ١٩٦٦م .

- على فكري : السمير المهذب ـ ط وزارة الإرشاد والتعليم بتونس ١٩٥٤م .

- عبد الحليم منتصر : تاريخ العلم ـ ط دار المعارف ١٩٦٩م .

- عبد المتعال الصعيدي : المجددون في الإسلام ـ ط مكتبة الآداب ـ القاهرة ١٤١٦هـ .

- عبد الرحمن سالم : تاريخ الخلافة العباسية - مطبعة المدينة - القاهرة ١٩٨٥م .

- فتحي سيف : المشرق الإسلامي بين التبعية والاستقلال - ط الحرية الحديثة ١٩٩٤م .

- فليب حتى : حضارة العرب ط بيروت ١٩٦٤م .

- قدري حافظ طوقان : تراث العرب العلمي - مطبعة كلية العلوم والآداب - دمشق ١٩٦٣م .

- محمد مصطفى زيادة : (مشترك) الدولة الإسلامية تاريخها وفنونها - ط . المصري - القاهرة ١٩٥٤م .

- محمد الخضري بك : تاريخ الأمم الإسلامية - ط التجارية القاهرة ١٩٧٠م .

- مصطفى عبد الرازق : فيلسوف العرب والمعلم الثاني - مطبعة العلوم بالحلمية ١٩٤٣م .

- محمد مصطفى هداره : المأمون الخليفة العالم - ط الحديثة خيرت - القاهرة ١٩٨٧م .

- محمود شرف الدين : العباسيون ملوك الدنيا - ط مكتبة الآداب - القاهرة ٢٠٠١م .





الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة



مكتبة الاسكندرية

من إصدارات مكتبة الآداب

